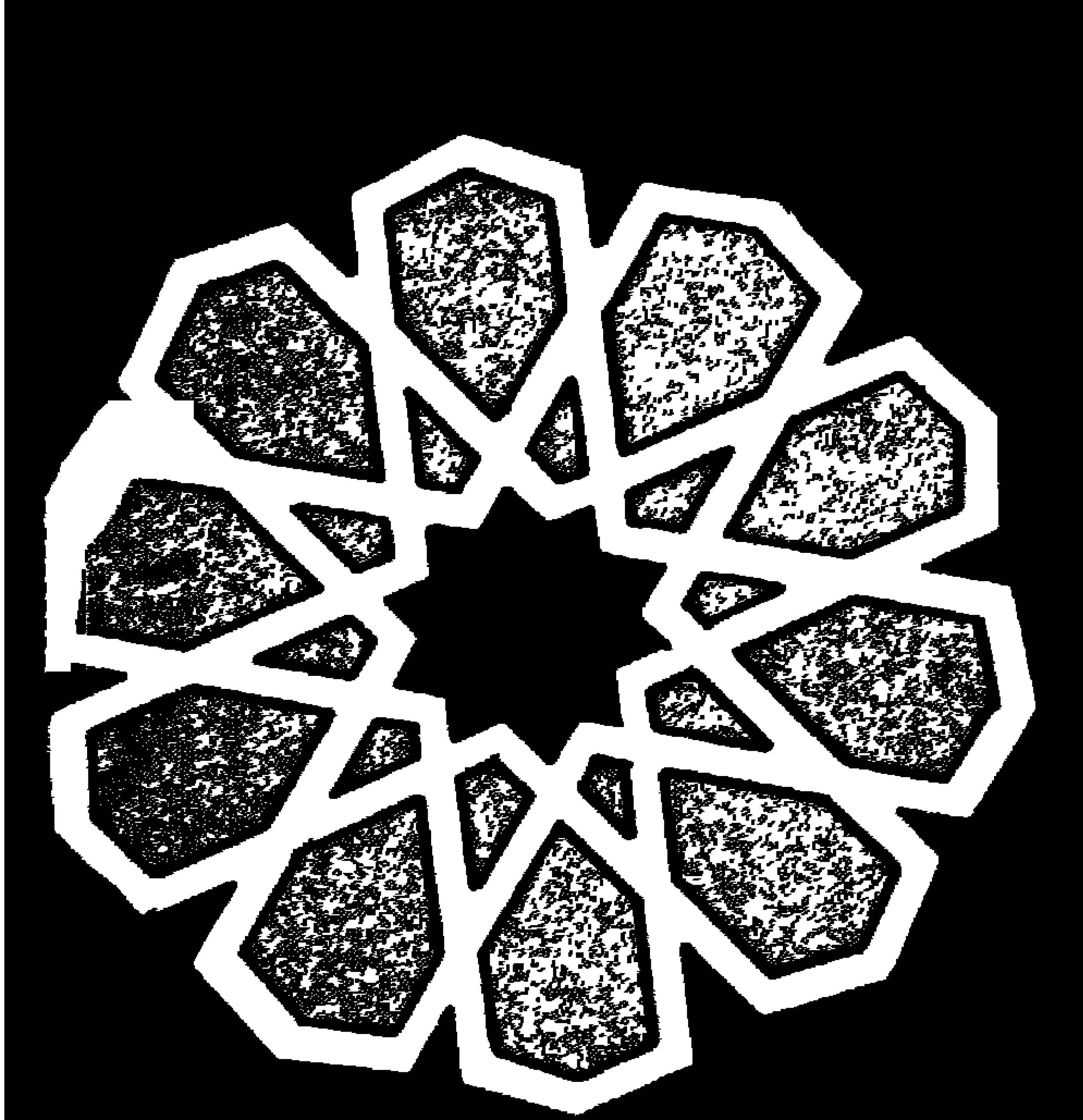


دكتور محمود محمد الحويرى

أسوان

فى العصور الوسطى





المقـــدمة

ترجع أهمية أسوان فى العصور الوسطى الى ما تمتعت به من موقع فريد فى آخر حدود مصر الجنوبية . اذ ترتب على وقوف حركة الفتح العربى سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) عندها ، أن غدت مركز الثقل فى مضمار العلاقات — العدائية والسلمية — بين مصر الاسلامية ومملكة النوبة المسيحية . وقد احتاجت دراسة موضوع « أسوان فى العصور الوسطى » الى معالجة خاصة ، لأنه من المفروض أن يتناول أسوان — بالدراسة — كوحدة متكاملة . وبعبارة أخرى ، فاننى ركزت فى هذه الرسالة على دراسة الأوضـــاع الســياسية والاقتصادية والثقافية لتلك المدينة ، بالاضافة الى تركيبها الاجتماعى . وقسمت هذه الدراسة الى مقدمة وأربعة فصول ثم الخاتمة .

اما فى المقدمة ، فقــد قمت فيهـــا بدراســـة الموقع الاستراتيجى الهم لأسوان فى العصور الوسطى ، وتفسير كلمة أسوان عبر التاريخ ، وجغرافيتها — التضاريس والمناخ — ، وتتبعت تطور النظام الادارى الاقليمى لها طوال العصور الوسطى .

وأما الفصل الأول ، وهو بعنوان « دور أسوان فى النشاط السياسى » ، فقد اشتمل على دراسة لدور قبيلة بنى الكنز فى أسوان ، فضلا عن دورها فى الجزء الشمالى من بلاد النوبة بعد أن أقصاها صلاح الدين الأيوبى عن أسوان . ثم كشفت عن أطماع هذه القبيلة ومحاولاتها استعادة نفوذها فى أسوان ، ونجاح هذه المحاولات فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة . كذلك عنيت فى هذا الفصل بابراز العوامل التى دفعت بنو الكنز للعودة الى أسوان .

وكان من المتوقع أن يقع الصـــدام بين مصر الاسلامية ومملكة النوبة المسيحية ، فتعرضت أسوان — بحكم موقعها — لاغارات تلك المملكة . واذا

كانت السلطة المركزية فى مصر قد نجحت فى صد اغارات النوبة ، الا أن ذلك النجاح كان مؤقتا ، تعود بعدها أسوان الى تلقى الضربات من جديد . واستمر الوضع على ذلك حتى اعتلى الحكم السلطان الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقى لدولة المماليك البحرية سنة ١٢٦٠ م، فجرد حملة الى بلاد النوبة استطاعت فتحها ، وضم الجزء الشمالى منها لمصر .

ولم تتعرض أسوان لغارات من جانب النوبة فحسب ، بل تعرضت ايضا لغارات شعوب البجة فى صحراء مصر الشرقية . وقد نجحت الحملات التى أرسلها ولاة مصر فى اخضاع تلك الشعوب . ومن العوامل الهامة التى ساهمت فى ابعاد خطر البجة عن اسوان ، تسرب القبائل العربية الى أوطانهم سعيا وراء المعادن النفيسة ، ثم اندماجهم فى الأهالى .

ونظرا لبعد أسوان وتطرفها عن العاصمة ، فقد كانت ملاذا للفارين من الظلم والطغيان ، كما انهم استخدموها معبرا الى بلاد النوبة والصحراء الشرقية . وفى عصر دولة المماليك البحرية غدت أسوان منفى للشخصيات المغضوب عليها .

ثم خصصت الفصل الثانى لدراسة الأهمية الاقتصادية لأسوان ، فعالجت فيه جميع أوجه النشاط الاقتصادى لأسوان . وفى هذا المجال يبرز — بصفة خاصة — النشاط التجارى لتلك المدينة ، اذ كانت — بحكم موقعها — أحد المنافذ الخارجية لتجارة مصر فى العصور الوسطى ، ومحطة لطرق القوافل ، مما جعلها سوقا هائلة للتجارة الصادرة والواردة . وقد تناولت فى هذا الفصل أنواع السلع التجارية التى كانت تجلب الى أسوان ، ومن أهمها سلعة الرقيق الأسود الذى اشتدت الحاجة اليه فى العالم الاسلامى . كما عالجت الأسباب التى أدت الى تدهور المكانة الاقتصادية لأسوان فى العصور الوسطى ، فمن أهمها ضعف سلاطين المماليك الجراكسة ، ومزاولتهم سياسة الاحتكار التجارى . كما أن من بينها أيضا توارث العربان — لا سيما

فى الصعيد الأعلى ــ التى تسببت فى قطــع طرق التجارة ، ونهب القوافل التجارية المــارة بها .

أما الفصل الثالث ، وهو بعنوان « الأهمية الثقافية والدينية لأسوان » ، فقد اشتمل على دراسة للحياة العلمية والدينية والأدبية فى أسوان . اذ نبغ من ابنائها نخبة ممتازة فى شتى فنون العلم التى كانت سائدة فى مصر العصور الوسطى . وأوضحت أن الحياة الأدبية فى أسوان تميزت بخصوبتها ، خاصة فى الشعر الذى تعرضت عند التحدث عنه لأشهر شعراء أسوان ، والتعرف بشعرهم . وعالجت فى هذا الفصل دور أسوان كأحد المعابر الرئيسية فى نشر الاسلام والثقافة العربية فى بلاد النوبة والسودان والصحراء الشرقية .

وفى الفصل الرابع والأخير وهو بعنوان « البناء الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى » كشفت عن العناصر العديدة التى تتابعت هجرتها الى أسوان . ومن أبرز تلك العناصر القبائل العربية بقسميها قحطان وعدنان . وقد ادى اختلاط الدماء العربية بشعوب البجة فى الصحراء الشرقية الى ظهور سلالات جديدة مثل العبابدة والبشارية . وفى أواخر العصور الوسطى احتوت أسوان عناصر سكانية جديدة كالأتراك والمماليك والمهاجرين من اهل الأندلس ممن شردهم المسيحيين . وقد اعتمدت فى كتابة هــذا الفصل على شواهد القبور التى اسفرت عنها جبانة أسوان ، اذ نقش على شاهد القبر اسم المتوفى والقبيلة التى ينتسب اليها وتاريخ الوفاة . وقد خرجت من ذلك بحقيقة واضحة فحواها ان القبائل العربية كانت تمثل قمة الهرم الاجتماعى فى أسوان ، بالاضافة الى أنها أورثت أسوان الشكل القبلى ، الأمر الذى لا زال موجودا حتى وقتنا الحالى ، ولمــا كنت من أبناء أسوان فقد شاهدت بنفسى سلالة العناصر السكانية التى كانت تقطن أسوان وقراها فى العصور الوسطى ، كما أخذت من أفواه الرواة صورة واضــحة عنها أبرزتها فى ثنايا هذا الفصــل .

التى اعتمدت عليها ، وارجو بذلك ان اكون قد وفقت فى القاء اضواء جديدة على تاريخ اسوان والدور الذى نهضت به طول العصور الوسطى .

هذا! وقد اختتمت البحث بدراسة خاصة عن اهم المصــادر والمراجع

ولا يسعنى فى هذه المناسبة سوى أن أتقدم بخالص شكرى وعظيم تقديرى لأستاذى العالم الجليل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الذى أمدنى بملاحظات وتوجيهات قيمة أنارت لى الطريق خلال اعداد هذه الرسالة ولن أنسى ما جبيت ما حبانى به من رعاية ، وما شملنى به من عناية ، علاوة على أن سيادته ذلل المصاعب الشخصية التى اعترضتنى .

كما أتوجه بشكرى الوافر للأستاذ الدكتور محمد صفى الدين أبو العز والأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف لاقتطاعهما جزءا ثمينا من وقتهما وتفضلهما بمناقشة هذه الرسالة .

وفى النهاية لا يفوتنى أن أتقدم بشكرى الوافر للأستاذ العالم عبد الرحمن عبد التواب مدير عام الآثار الاسلامية والقبطية سابقا ، الذى سمح لى بالاطلاع على مسودات الحفائر التى قام بها فى جبانة اسوان ، كان لها إثر كبير فى كتابة الفصل الرابع .

والله أرجو أن يوفقنا جميعا لما فيه خير أمتنا العربية .

القاهرة فى يناير ١٩٨٠ م

صفر ١٤٠٠ هـ .

المؤلف

المقـــدمة

تمتعت مصر منذ فجر التاريخ بخصائص جغرافية هامة ، فهى تنقسم من الناحية الطبيعية الى قسمين رئيسيين هما الوجه البحرى أو أسفل الأرض أو مصر السفلى أو الريف ، والوجه القبلى أو أعلى الأرض أو الصعيد(١) . والصعيد فى اللغة هو الأرض المرتفعة ، وكان العرب هم أول من أطلقوا على جنوب مصر اسم الصعيد(٢) . ويمتد الوجه القبلى على ضفاف النيل من جنوب القاهرة الى آخر حدود مصر الجنوبية المتمثلة فى أسوان . كما ينقسم الصعيد بدوره الى ثلاثة أقسام : القسم الأول الصعيد الأسفل ، ويشمل الآن محافظات الجيزة والفيوم وبنى سويف ، والقسم الثانى هو الصعيد الأوسط ، ويشمل محافظات المنيا واسيوط وسوهاج ، والقسم الثالث هو الصعيد الأعلى ، ويشمل محافظتى قنـــا وأسوان(٣) .

أما أسوان فتقع على خط عرض ٢٤ درجة شمالا ، وعلى خط طول ٣٢ درجة شرقا على الشاطىء الشرقى للنيل ، وهى تواجه جزيرة الفانتين (جزيرة أسوان الحـــالية) أسفل الشلال الأول ، وتبلغ مســـاحتها ثلاثة كيلو مترات مربعة ، كما أنها تبعد عن القاهرة بمسافة تبلغ حـــوالى ٨٧٩ كيلو متر(٤) . ولم يكن مكان مدينة أسوان فى العصور الوسطى هو مكانها الحالى ، بل كانت تشغل الجنوب الغربى من محلها الآن(٥) على ربوة عالية .

أما لماذا عرفت مدينة أسوان بذلك الأسم الذى تحمله ، وكيف اكتسبته وصار اسما شائعا لها فى العصور الوسطى والحديثة ، فان المقريزى حاول

---

(١) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الأول ص ٢٨ .
(٢) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ١٨٨ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ص ٤٣ (تعليق محمد رمزى) .
(٤) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أسوان .
(٥) على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٨ ص ٦٤ .

تفسير اسم أسوان على أساس لغوى ، فقال : « اسوان من قولهم اسى الرجل ياسى أسى ، اذا حزن . ورجل اسيان وأسوان ، أى حزين »(٦) . ولكننا نرى أن هذا التفسير الذى أتى به المقريزى لاسم أسوان غير معقول ، اذ الواقع انها اكتسبت اسمها من شهرتها التجارية بوصفها كانت مركزا هاما للتجارة بين مصر والسودان . ففى العصر الفرعونى أطلق عليها اسم « سونو » بمعنى السوق(٧) . أما الاغريق فقد عرفوها باسم « سيينى » Syéne (٨) وقد ذكرت سيينى مرتين باسم « سيينه » فى أوراق البردى التى اكتشفت فى جزيرة الفانتين وترجع الى عهد ارتاكزرزيس وداريوس الثانى (٤٦٤ — ٤٠٤ ق . م) (٩) . كما جاء ذكر اسوان فى الوثائق القبطية باسم « سوان » Souan (١٠) ، الى أن جاء العرب الى مصر فى القرن السابع الميلادى ، ونطقوا الاسم محرفا اسوان ، بضم الهمزة(١١) والشائع نطقها الآن بفتح الهمزة .

وترتفع اسوان حوالى ٨٥ مترا فوق سطح البحر ، وتنقسم من ناحية التضاريس الى ثلاثة أقسام : الجزء السهلى من المدينة وهو يمثل الجزء الذى يطل على النيل ، وهو ضيق الرقعة فى الجنوب ويتسع كلما اتجهنا شمالا ، والجزء المتوسط الارتفاع وهو ربوة عالية تمثل أسوان القديمة والتى اخذت تتسع غربا وشمالا ، وأخيرا المنطقة الصحراوية التى تمتد شرق أسوان . وقد أثر عامل التضاريس فى نمو المدينة ، فأخذت شكلا طوليا شريطيا فرضه

(٦) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ١٩٦ ، سعاد ماهر : محافظات الجمهورية فى العصر الاسلامى ، ص ٨١ .

(٧) سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٨١ .

(٨) وهيب كامل : استرابون فى مصر ، ص ١١٦ ، سعاد ماهر : محافظات الجمهورية ، ص ٨١ ، دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أسوان ،

Oxford Classical Dictionary, P. 870.

(٩) Ency. Brit, Art. Aswan.

(١٠) Amèlineau : La Geographie de l'Egypte à l'Epoque Copte, P. 467.

(١١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ١ ص ٢٤٨ ، الادفوى : الطالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد ، ص ٤٨ .

موقعها فى الوادى الضيق الذى كونه النيل(١٢) . ويتميز أجزاء السهلى ــ أو السهل الفيضى ــ بضيقه واختناقه عند أسوان ، اذ لا يزيد فى بعض اجزائه على ٢٨٠٠ مترا ، فى حين أنه يصل عند بنى سويف الى ١٧٢٠٠ مترا(١٣) . وبالرغم من أن محافظة أسوان تمتد من الجنوب الى الشمال فى مسافة تبلغ نحو ثلث طول وادى النيل ، الا انها تأتى فى المرتبة الأخيرة بين المحافظات المصرية من حيث مساحة سهلها الفيضى ، وذلك لاختناق ارضها وانحصارها بين حافات مرتفعة من الصخور الرملية(١٤) .

ونهر النيل عند أسوان يجرى فى وادى ضيق ، وينحصر بين حافتين مرتفعتين من الصخور الرملية النوبية ، اذ ان الوادى تحصره الهضبتين الصحراويتين ويكاد أن يختنق بحيث أنه لا يعدو أن يكون مجرد رقع ضيقة من الأراضى الزراعية التى تتناثر هنا وهناك على ضفتى النهر(١٥) . أما فى جنوب أسوان بحوالى سبعة كيلو مترات ، فان النهر يعترضه الجندل الأول (الشلال الأول) الذى يمثل العقبة الأخيرة التى تعترض النهر اثناء جريانه الى البحر المتوسط ، ويبلغ طوله من الجنوب الى الشمال ١٢ كيلومتر ، وتمتد منطقة الجندل الأول عند الطرف الجنوبى لجزيرة هيسا أكبر الجزر النارية التى تنتشر فى تلك المنطقة . والى الشمال من منطقة الجندل تظهر فى النهر بعض الجزر الناتئة الكبيرة الحجم تقسم مجراه الى قسمين أو أكثر ، واشهر هذه الجزر جزيرة اسوان(١٦) التى تقع فى وسط النيل تجاه مدينة اسوان . وقد تعودنا أن نسمى اندفاع النهر عند منطقة الجندل الأول بشلال اسوان الأول مع ما فى هذه التسمية من التجاوز ، الذى يتخطى اللغة العربية الى اللغات الأوربية ، فهى بالانجليزية تسمى Cataract بينما لا يوجد فى حقيقة الأمر مساقط للماء فى أى موضع جنوب اسوان ، وانما

(١٢) محافظة أسوان (كتيب اصدرته وزارة الارشاد القومى) .
(١٣) صفى الدين ابو العز : مرفولوجية الاراضى المصرية ، ص ٣ .
(١٤) المراجع السابق : ص ١٥٣ .
(١٥) صفى الدين ابو العز : مرفولوجية الاراضى المصرية ، ص ١٥٥ .
(١٦) صفى الدين ابو العز : مرفولوجية الاراضى المصرية ، ص ١٦٠ .

هو موضع من النهر يشتد فيه انحدار مياهه ويعترضه الصخور والجنادل ، لتصنع عقبة فى مجرى النهر لا اكثر(١٧) . وانحدار نهر النيل فى مجـراه من أسوان الى البحر المتوسط فى غاية الاعتدال ، ولو أن الانسان الذى سكن وادى النيل قدر له أن يتمنى حالة خاصة لانحدار النيل فى مصر لما تمنى خيراً منها ، فلا النهر سريع الانحدار جدا ، مما يؤدى الى اعاقة للملاحة ، ولا هو بطىء جدا ، مما يؤدى الى تكوين المستنقعات . وساعد اعتدال سريان النهر فى مجراه على ازدهار الحضارة على ضفتى النيل ، فضلا عن تحقيق الاتصال الآمن بين شمال الوادى وجنوبه(١٨) .

أما مناخ أسوان فانه يدخل ضمن الاقليم الصحراوى الذى يمتد من المنيا حتى أسوان ، وهذا الاقليم يمثل منطقة الجفاف التام التى لا ينزل فيها شىء من المطر الا فى القليل الشاذ النادر ، واذا سقط المطر فيه فانه يعد من الأعاجيب ، وفى أغلب الأوقات تمر السنوات دون أن تجود السماء بمطر ، فاذا هطل المطر جاء هطوله عنيفا ، ثم ينقطع فجأة ، ويصحو الجو ، ولا يتبقى سوى سيول تجرى فى الأودية التى تخترق صحراء مصر على جانبى وادى النيل(١٩) . والرياح التى تهب على أسوان هى الرياح الشمالية التى تجعل من أسوان خير نموذج لتأثير تلك الرياح ، فكلما ابتعدنا عن أسوان شـمالا أو جنوبا نقصت بالتدريج نسبة هبوب هذه الرياح ، وهى رياح تتسم بالجفاف لأنها تهب من أقليم معتدل الحرارة الى أقليم حـار فيكون لها تأثير ملطف ، بالاضافة الى انها تسهل الملاحة فى النيل من الشمال الى الجنوب(٢٠) . وفى أسوان تبلغ النهاية الكبرى للحرارة خلال شهر يناير ٢٣٫٧ درجة ، والنهاية الصغرى ٩٫٦ درجة بفرق قدره ١٤٫١ درجة ، أما فى شهر يوليو فان النهاية الكبرى للحرارة تبلغ حوالى ٤٢ درجة ، والنهاية الصـغرى ٢٥٫٦ درجة

---

(١٧) محمد عوض محمد : نهر النيل ، ص ١١٦ — ١١٧ .
(١٨) المرجع السابق ، ص ٢٤٣ ،
جمال الدناصورى : دراسات فى جغرافية مصر ، ص ١٨٦ .
(١٩) محمد عوض محمد : نهر النيل ، ص ٢٤٣ ، ٢٥١ ، .
جمال الدناصورى : دراسات فى جغرافية مصر ، ص ١٨٦ .

بفرق قدره ٢ر١٦ درجة ، ومعنى هذا أنه فى الشتاء تكون الحرارة معتدلة نهارا ، مما يجذب السياح الى أسوان ، فى حين انها ترتفع فى الصيف بالنهار الى درجة عالية جدا ، لولا جفاف الهواء ، وانخفاض نسبة الرطوبة فى الجو لكانت أكثر مما تتحمله طاقة البشر(٢١) .

ولم تكن أسوان فى العصور القديمة والوسطى تلك المدينة الصغيرة التى لا تتجاوز مساحتها ثلاثة كيلو مترات مربعة كما أسلفنا الذول ، بل كانت مدينة اقليمية تمثل قاعدة احد اقاليم مصر . وهى فى هذا قريبة الشبه من وضعها الحالى كمحافظة تمتد شمالا حتى قرية الشراونة (بالقرب من اسنا) . وسنتناول وصف الحدود الاقليمية لأسوان سواء الشمالى أو الجنوبى منها ، لنقف على مدى مساحة المنطقة التى شملتها أسوان فى العصور الوسطى .

ففى مواجهة أسوان توجد جزيرة الفنتين Elephantine التى اطلق العرب عليها اسم جزيرة أسوان ، وهى واقعة فى وسط النيل ، وكانت قاعدة القسم الاول من اقسام الوجه القبلى فى مصر الفرعونية ، وعاصمة البلاد فى عهد الاسرتين الخامسة والسادسة الفرعونيتين ، وسماها الفراعنة « آبو » Abou ، أما اليونان فسموها الفنتين بسبب انها كانت سوقا واسعا يباع فيه العاج وسن الفيل (٢٢) . وتبلغ مساحة تلك الجزيرة حوالى مائة وخمسين فدانا ، وتمتد حوالى ميل ونصف ، وأطول عرض لها حوالى اربعمائة مترا (٢٣) .

وتمثل منطقة الجندل الاول (الشلال الاول) احد الاقليمى الجنوبى لمدينة أسوان ، بمعنى أنها تعتبر حدا سياسيا فاصلا بين حدود مصر الاسلامية وحدود مملكة النوبة المسيحية عقب الفتح العربى لمصر . فأول بلد للنوبة

---

(٢٠) محمد عوض محمد : نهر النيل ، ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .
(٢١) المرجع السابق ، ص ٢٤٨ — ٢٥١ .
(٢٢) أحمد زكى : قاموس الجغرافيا القديمة ص ٢٠ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى القسم الثانى ج ٤ ص ١٩ .
(٢٣) محافظة أسوان .

فى تلك المنطقة قرية تعرف بالقصر ، على بعد خمسة أميال من أسوان (٢٤) .
أما آخر بلد للمسلمين على حدود مصر الجنوبية ، قرية تسمى بلاق ، تمتعت بمكانة عظيمة عند المسلمين ، وكانت أجل حصن لهم ، وسكنها كثير منهم ، وعندها تنتهى السفن المنحدرة من النوبة والسفن الآتية من أسوان (٢٥) .
وتقع بلاق جنوبى أسوان على الشاطىء الشرقى للنيل على بعد أربعة أميال منها ، ومكانها اليوم نجعا ابتكول ومحطة الشلال ، وبلاق من الكلمات المصرية القديمة التى تعنى الموردة أو المرســاة حيثترسو السفن ، كما يوجـد فى أيامنا بولاق الدكرورى وبولاق القاهرة ، فاسم كل منهما محرف عن بلاق (٢٦) .
ويواجه قرية بلاق جزيرة فيلة التى تقع فى وسط النيل والمعروفة حاليا باسم « أنس الوجود » .

اما عن الحد الأقليمى الشمالى لمدينة أسوان فى العصور الوسطى ، فان المصادر المعاصرة التى اتيح لنا الاطلاع عليها لم يرد بها اية اشارة قاطعة فى هذا الصدد . ومن الممكن ان نعين الحد الشمالى الاقليمى لتلك المدينـة استنادا الى ما جاء فى الطالع السعيد للأدفوى من أن بنبان قرية من قرى أسوان (٢٧) . وبنبان قرية من قرى مصر القديمة ، على الشاطىء الغربى للنيل تجاه قرية دراو فى البر الشرقى للنيل ، وتبعد عن أسوان بحوالى ٣٥ كيلو متر شمالا ، وهى بين ادفو واسوان ، غير أنها للأخيرة اقرب ، وكانت من توابع أسوان من الجهة المالية ، ثم فصلت فى تربيع عام ٩٣٣ هـ (٢٨) .

ولمـا كان موضوع بحثنا يتصدى لالقاء الضوء على الدور الذى لعبتـه اسوان فى العصور الوسطى وخاصة ابتداء من الفتح العربى لمصر عام ٢١ هـ

---

(٢٤) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ١٨٩ .
(٢٥) المقريزى : المرجع السابق ص ١٩٨ ، اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٣٤ ، ابو صالح الأرمنى : تاريخ الشيخ أبى صالح الارمنى ، ورقة ١٠١ أ . ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، ص ٦٤ ،
(٢٦) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ج ٤ ص ٢١٧ — ٢٢٠ .
(٢٧) ص ٣١١ .
(٢٨) على مبارك . الخطط التوفيقية ، ج ٦ ص ٨٤ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ج ٤ ص ٢٢١ .

(٦٤١ م) ، فان الامر يقتضى بنا أن نتحدث بايجاز شديد عن حوادث ذلك الفتح الذى تمخض عنه ضم مصر الى حورة الدولة العربية الاسلامية .
والمعروف ان مصر كانت تخضع للنفوذ السياسى والعسكرى للدولةالبيزنطية فى النصف الاول من القرن السابع الميلادى ، وكانت الاحوال فيها تهيىء لنجاح الفتح العربى ، فالمسيحية منتشرة فى أرجائها على نطاق واسع ، مما ادى الى ارتباط أهلها من أجل احياء قوميتهم المصرية التى اندثرت منذ سقوط الفراعنة، فقاموا بترجمة الانجيل الى اللغة القبطية ، وتكتل الشعب حول كنيسته التى صار لها كيان مستقل ، هذا الى أن الكنيسة المصرية أخذت بمذهب الطبيعة الواحدة ، وبذلك صار لها استقلال فى الرأى والعقيدة عن كنيسة الدولة الدولة البيزنطية (٢٩) ، مما أثار الامبراطورية البيزنطية ، فقامت بحركة اضطهاد واسعة النطاق ضد الكنيسة المصرية ، بلغ ذروته فى عهد الامبراطور هرقل . على أن المصريين لم يتخلوا عن عقيدتهم ، واستبسلوا فى الدفاع عنها رغم كل ارهاب وتعذيب (٣٠) . وكان ذلك فى الوقت الذى اتم العرب فتح الشام ، وأخذوا يوجهون أبصارهم نحو مصر . ولابد أن المصريين قد سمعوا أخبار فتح العرب للشام ، وتسامحهم مع أهل البلاد من المسيحيين . ولم يكن السبب الدينى هو الوحيد الذى مهد فتح العرب لمصر ، بل وجدت أسباب أخرى يسرت هذا الفتح . من بينها ضعف الدولة البيزنطية التى كانت تعانى الشيخوخة ، فضلا عن عوامل أخرى اجتماعية واقتصادية ، ساعدت كلها على تمهيد طريق النصر الذى حققه العرب فى مصر (٣١) ، فتم لهم فتح البلاد سنة ٦٤١ م (٢١ هـ) .

ولم يغفل عمرو بن العاص عن تأمين حدود مصر الجنوبية التى تهددها النوبة المسيحية ، فأرسل حملة الى النوبة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى عام ٢٠ (٦٤٠م) أو فى عام ٢١هـ (٦٤١م) ، غير انه استعصى عليه

---

(٢٩) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٨٠ .
(٣٠) ينظر : فتح العرب لمصر ، ص ٦ .
(٣١) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ، ص ٨١ .

غزوها ، وجدير بالذكر ان اخضاع الصعيد كله تم بغير قتال ، اذ لم يرد أى خبر فى المراجع المعاصرة عن قتال جرى على أرضه (٣٢) بين العرب وأهله .

ومهما يكن من أمر ، فان الفتح العربى لمصر ، أتى لها بعقيدة جديدة اعتنقتها غالبية اهلها ، وبدماء عربية سرت فى عروقهم ، وبلغة عربية أذابت الكيان المصرى القديم ، وأصهرت المصريين فى بوتقة العروبة . وبذلك صارت مصر من أدناها الى أقصاها قاعدة هامة لانتشار الاسلام ، وعلى رأس تلك القاعدة — من ناحية الجنوب — كانت مدينة اسوان التى غدت معبرا هاما لنشر الثقافة العربية فى افريقية . بل ان أسوان صارت على حدود مصر الجنوبية بمثابة خط الدفاع الامامى ضد غزوات مملكة النوبة المسيحية ، وأحد القواعد الهامة التى تمركز فيها العرب لتأمين البلاد وتسهيل التجارة كما سنرى فى الفصول القادمة .

وبحكم الموقع الحربى الهام الذى شغلته اسوان منذ الفتح العربى لمصر، فان العرب انصرفوا الى الاهتمام بها . ويدل على ذلك أنهم جاءوا باصطلاح ادارى جديد لأسوان ، فقد سموها ثغرا كما جاء فى أوراق البردى(٣٣) التى عثر عليها فى مصر ، كما اطلق عليها المؤرخون المسلمون اسم « ثغر » (٣٤) ، وأحياناً « ثغر أسوان المحروس » (٣٥) هذا الى أن اقامة العرب فى مصر لم تقتصر على الفسطاط التى أسسوها عقب الفتح ، بل أقاموا فى المناطق التى

---

(٣٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٥٤ ، بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣١٠ ، سيدة كاشف : مصر في عصر الولاة ، ص ١٧ .

(٣٣) Weit : L'Egypte Arabe de la conquete Arabe, P. 137.

(٣٤) جاء في المصباح المنير ص ١١٣ ان الثغر من البلاد هو الموضع الذى يخاف منه هجوم الأعداء ، فهو كالثلمة في الحائط يخاف هجوم السارق فيها . وقد أجمعت المصادر على وصف أسوان بالثغر ، نذكر منها على سبيل المثال

المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ١٠٨ ، ص ١٢٧ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة فيمحاسن مصر والقاهرة ص ١٠٢ ، مراكشى مجهول : الاستبصار في عجائب الامصار ص ٨٧ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦ .

(٣٥) قيل في الثغور (الثغر المحروس) تفاؤلا بوقوع الحراسة لها ، فكل ما كان محل خوف مما ينبغى حراسته والاحتفاظ به ، حسن وضعه بالحراسة (انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٦ ص ١٨٤) .

يخشى طرقها من الأعداء مثل أسـوان (٣٦) . فاهتموا بحفظ ثغر أسـوان وضبطه، واكثروا فيه « من الشجعان وذوى البصائر فى القتال وأهل الحمية والأنفة والدين المتين ، فبمثل هؤلاء تصان الثغور ، ثم يكثر لهم الدروع والخوذ والرماح والسيوف والقسى . . . وجميع آلات الحـرب والزيارات والمجانيق ويرتب الحراس على الأبراج والحفاظ للشرفات ليلا ونهارا ، ويحتاط فى فتح الابواب وفى غلقهـا فلا يكون فى وقت الغلس ، ولا يهمل أمر ظواهر البـلد وضواحيه من المطالع وأرصاد العيون من جهة العدو ، لئلا يهجم عليه ويطرق ثغرة وهو غافل . . . (٣٧) وسنرى فى دراستنا لاسوان فى العصور الوسطى أنه عندما كانت الحكومة المركزية فى مصر قوية ، فانها استطاعت دفـع الغزاة الذين طرقوا أبوابها من ناحية الجنوب ، أما فى حالة ضـعفها ، فان العدو كان يهاجم أسوان ، ويتسرب منها الى داخل البلاد .

ثم أن أسوان لم تكن أحد ثغور مصر الهامة فحسب ، بل كانت أيضـا رباطا هاما من أربطة المسلمين ، ففيه يرابط المسلمون للجهاد فى سـبيل الله ضد مملكة النوبة المسيحية عملا بقول الله تعالى : « وأعدوا لهم مـا استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكـم » (٣٨) ، وعملا بالحديثين الشريفين : « رباط يوم في سبيل الله خـير من الدنيـا وما عليها » و « كل ميت يختم على عمله الا الذى مات مرابطا فى سبيـل الله فانه ينمو عمله الى يوم القيامة » (٣٩) .

والجدير بالذكر ، أن اسوان لم تكن دار ملك (٤٠) أو سلطة لاحـد . وبعبارة أخرى فانها لم تتمتع باستقلال ذاتى يجعل منها دولة داخل الدولة ، وانما كانت طوال العصور الوسطى خاضعة للسلطة المركزية بالعاصمة . فاذا قامت فيها حركة استقلالية ، فان الحكومة المركزية كانت تعمل جاهدة

---

(٣٦) سيدة كاشف : مصر في مصر الولاة ص ٤٢ .
(٣٧) الحسن بن عبد الله : آثار الاول في ترتيب الدول ص ١٦٦ — ١٦٧
(٣٨) سورة الانفال : آية ٦٠ .
(٣٩) الحسن بن عبد الله آثار الأول ، ص ١٦٦ .

على احباط تلك الحركة . واسوان فى هذا تختلف ــ رغم بعدها ــ عن بعض مدن الشام التى قامت فيها دويلات انفصالية فى فترات من تاريخها فى العصور الوسطى . ويتبين لنا من تطور النظام الادارى الاقليمى لاسوان فى العصور الوسطى ، أنها لم تنشق على السلطة المركزية فى العاصمة ، ولم يقم فيها نفــوذ سياسى مستقل عن العاصمة .

والمعروف أن النظام الادارى لمصر فى الدولة البيزنطية كان مقسما الى خمسة اقسام كبرى هــى :

١ ــ الاسكندرية ويقيم فيها الحاكم البيزنطى .
٢ ــ شرقى الدلتــا ويحكمه دوق .
٣ ــ غربى الدلتــا ويحكمه دوق .
٤ ــ مصر الوسطى ويدخل فيها الفيوم ويحكمها دوق .
٥ ــ مصر العليــا ويحكمه دوق .

ولم تكن هناك وحــدة ادارية تربط بين تلك الأقســام ، وسبب ذلك أن سلطة الحاكم البيزنطى المقيم فى الاسكندرية ــ حاضرة مصر فى الدولــــة البيزنطية ــ كانت ضعيفة ، بحيث أدى الامر الى استقلال كل دوق بدوقيته على وجه التقريب ، فضلا عن قوة عسكرية تحت امرته خاضعة لنفوذه(٤١) .

اما عقب الفتح العربى فقد غدت مصر مقسمة اداريا الى مصر العليا والسفلى ، وهذان القسمان على أية حال ليسا حقيقة ادارية ، بل هــــو تقسيم جغرافى (٤٢) أوجبته ظروف مصر الطبيعية منذ القدم . وقسمت مصر الى سبعة اقاليم هى : الجفار ، والحوف ، والريف ، والاسكندرية ، ومقدونية

---

(٤٠) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ١٢٧ ؛
آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٢٢٣ .
(٤١) سيدة كاشف : مصر في عصر الولاة ص ١٣ .
(٤٢) Weit : L'Egypte Arabe de la conquète Arabe, P. 137.
(٤٣) المقدسى : أحسن التقاسيم في معرفة الممالك ص ١٩٣ .

والصعيد (٤٢) . ويقال كان يوجد بها ثمانون كـــورة ، والكورة بدورهـــا مقسمة الى قرى ، ولفظ كورة مشتق من الاسم اليونانى خورا . Chora التى عثر عليها فى أوراق البردى ، ولم تكن الكورة شيئا آخر سوى الاقاليم المعروفة فى العهد البيزنطى — التى بدأت فى القرن الخامس الميلادى — باسم بجارشى Pagarachie وعلى رأس « صاحب الكورة » وهو لفظ مشتق من اللفظ اليونانى بجارخـــوس Pagarachos (٤٤) . ومن المعروف أن العرب لم يبدلوا الانظمة الادارية التى وجدوها بمصر عنـــد الفتح ، اذ وجدوا بها نظما اداريـــة قامت منذ اقـــدم الازمنة ، فاقتضت مهارتهم السياسية الا يمسوا تلك النظم (٤٥) . ومع أن مصر كانت مقســـمة اداريا الى هذه الأقسام ، الا أنها خضعت جميعها لسلطة الوالى العليا مباشرة ، ولم يعط الولاة لعمال الأقاليم الفرصـــة للتمكين لأنفسهم وللاســـتقلال محليا ، فكان الحكم مركزيا الى أبعد حد ، وكانت كل كبيرة وصغيرة ترجع الى والى مصر ، فكما كان للخليفة صاحب بريد يخبره بأعمـــال الوالى ، كان للوالى صاحب بريد يخبره بأعمال عمال الأقاليم فى مصر (٤٦) . وكانت أسوان آخر كورة فى اقليم الصعيد الذى يتكون من عشرين كورة(٤٧) . وتكونت كورة أسوان بدورها من سبع قرى (٤٨) ، غير أن المصادر العربية لم تحدد لنا أسماء تلك القرى حتى يمكننا الوقوف على الحدود الاقليمية لأسوان ، فيما عدا ما ذكره شيخ الربوة (٤٩) — نقلا عن المسبحى المتوفى ٤٢٠ هـ — من أن ادفو كانت من بين تلك القرى . ولا نستطيع أن نأخذ بما أورده لنا شيخ الربوة ، فمن الملاحظ أن المؤرخين فى حديثهم عن النظـــام الادارى لمصر انهم نقلوا عن بعض دون

---

(٤٤) Wiet . Op. Cit., P. 137.
سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٢٨ — ٢٩ .

(٤٥) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٢٩ ، مصر في عصر الولاة ، ص ٢٥ .

(٤٦) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٢٩ — ص ٣٠ ، مصر في عصر الولاة ص ٢٥ .

(٤٧) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٧٩ .

(٤٨) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٧١ .

التثبت من صحة ذلك ، هذا بالاضافة الى أن ادفو كانت تعتبر مدينة قائمة بذاتها منذ أقـــدم العصور . وفى تلك الفترة التى أعقبت فتح مصر ، عين عبد الله بن سعد بن أبى سرح — فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب — واليا على مصر العليا ، ويبدو أنه اقام طويلا فى أسوان ، بدليل قول المقريزى . « لمـــا بعث عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد فتح مصر الى النوبة (نوبة مصر) سنة ٢٠ هـ وقيل سنة ٢١ هـ ، فى عشرين ألف ، فمكث بها زمانا فكتب اليه عمرو يأمره بالرجوع اليه (٥٠) » . ومما زاد من أهمية أسوان أن الخليفة العباسى كان يعين — أحيانا — من قبله واليا على أسوان ، لأن الصـــعيد الأعلى وخاصة أسوان ، كان مستقرا للقبائل العربية التى نزحت اليـــه فى القرون الاسلامية الأولى ، علاوة على أن أسوان كانت تمثل منطقة الحـــدود الجنوبية ، المهددة من جانب النوبيين (٥١) .

ويبدو أن وضع أسوان الادارى ظل كمـــا هو فى عصر الولاة والعصر الطولونى ، اذ أن التقسيم الادارى لمصر لم يطرأ عليه أى تغيير خلال هذين العصرين ، واذا كان أحمد بن طولون قـــد قلد أحمـــد بن دعيم الصعيد الأعلى (٥٢) ، فاننا لا نستطيع أن نجزم أن اقامته كانت فى أسوان .

واســـتمر الأمر على ذلك الى أن جاءت الدولة الفـــاطمية الى مصر ، فادخلت تعديلات جوهرية على النظام الادارى بها ، فقسمت مصر الى أربعـــة ولايات ، كان أعظمها ولاية قوص ، وواليها يحكم على جميع بلاد الصعيد (٥٣) . وصارت الكور التى تدخل فى تبعية ولاية قوص أو القوصية هى : أرمنت ، أسنا ، ابنود ، ادفـــو ، أملاك بنى يونس ، ابســـوج البحرى ، الدربى ،

---

(٥٠) المقريزى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، ص ٩٦ (دراســـة وتحقيق) .

(٥١) المرجع السابق ، ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٥٢) سيدة كاشف : أحمد بن طولون ، ص ١٦٦ — ١٦٨ .

(٥٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ١٩٣ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٨٩ .

أرض اليهودية ، ثغر أسوان (٥٤) . ولمـا كان لوالى اقليم قوص الحق فى تعيين العمال على المدن والنواحى والقرى الداخلة فى نطاق ولايته ، فان والى أسوان أصبح فى منزلة نائبه ، وصار والى قوص هو المسئول الأول عن استتباب الأمن والنظام فى أسوان ، وتنفيذ ما يصدره اليه الخليفة وأعوانه من تعليمات (٥٥) . وعلى أية حال ، فان أسوان بعد أن كانت كورة مستقلة فى الصعيد الأعلى ، غدت تابعة لولاية « القوصية » .

وبقى النظام الادارى الاقليمى لمصر فى عصر صلاح الدين الأيوبى مثلما كان عليه من قبل ، فصلاح الدين أهتم — فى المكان الأول — بتوحيد الجبهة الاسلامية فى مصر والشام ، ثم بالجهاد ضد الصليبيين ، بيد أنه فى عصر السلطان الكامل قسمت مصر الى قسمين اداريين ، بحيث يشتمل الأول على الوجه القبلى ، وتكون مصر — أى الفسطاط — عاصمة ادارية له ، ويشتمل القسم الثانى على الوجه البحرى ، وتكون القاهرة عاصمة ادارية له (٥٦) .

أما فى دولة المماليك البحرية ، فقد تطور النظام الادارى والاقليمى فى مصر تطورا كبيرا ، اذ بلغت النظم الادارية فى تلك الدولة درجة كبيرة من الدقة ، فالادارة الاقليمية فى أعمال الوجهين البحرى والقبلى — خارج القاهرة والاسكندرية — أشرف عليها مجموعة من الولاة ، وقسمت أعمال الوجه القبلى الى ثمانية اقسام لكل منها وال : وهى الجيزة والفيومية والأشمونية والأخميمية والأطفيحية والبهنساوية والأسيوطية والقوصية (٥٧) . وبقيت أسوان « حد المملكة من الجنوب » تابعة لعمل قوص (٥٨) ، مثلما كانت

---

(٥٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ١٠٨ .
(٥٥) جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر ، ص ١٤٤ .
(٥٦) حسنين ربيع : النظم المالية في مصر زمن الايوبيين ، ص ٨٧ — ٨٨ .
(٥٧) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٩٢ — ٣٩٧ ،
المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٧٣ ،
ابن الجيعان : التحفة السنية ، ص ٤ ،
الخالدى : المقصد الرفيع المنشأ الهادى لديوان الانشاء ، ورقة ٨٤ أ .
(٥٨) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ١٢٨ .

فى العصر الفاطمى . وباعتلاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون عرش سلطنة المماليك تغير وضع اسوان ، فقد استقلت عن قوص ، وصارت ولاية قائمة بذاتها (٥٩) . والأمر الذى يسترعى الانتباه فى وضع أسوان الجديد أن واليها كان يعين من قبل السلطان ، ولكنه فى نفس الوقت كان نائبا لوالى قوص ، واستمر الأمر على ذلك حتى عهد الظاهر برقوق ، فصـــار واليـــا مستقلا بنفسه ، لا حكم لوالى قوص عليـــه ، ورتبته أمير طبلخاناه (٦٠) . وفى دولة المماليك البحرية ، امتد نفوذ كاشف الوجه القبلى على جميع أعمال الصعيد وولاتها من الجيزة الى أسوان ، وقد جرى الاصطلاح على تسمية هذا الكاشف « والى الولاة » ، أما دولة المماليك الجراكسة ــ وفى عهد الظاهر برقوق بالذات ــ فقد استحدثت وظيفة « نائب الوجه القبلى » ، وهو فى ذلك مثل سابقه الكاشف ، له نفس النفوذ على جميـــع ولاة الوجه القبلى (٦١) ، من ضمنها والى أسوان . ولم يكن لنائب الوجه القبلى الحق فى عزل أو توليـــة الولاة ، فأمر العزل أو التولية من اختصاص السلطان (٦٢) .

لم يكن اهتمام دولة المماليك البحرية ، منصـــبا على النظـــام الادارى الاقليمى لأسوان فقط ، بل اهتمت ايضا بجعلها احد محطات البريد الهامة .

---

(٥٩) سعيد عاشور : العصر المملوكى في مصر والشام ص ٣٥٨ ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٤٣ .

(٦٠) ابن فضل الله العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٧٤ ؛
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٩٧ ، جـ ٤ ص ٢٦ ، ص ٦٦ ،
ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ص ٣٥ .

وأمير طبلخاناه يتلو امرة مائة في مراتب الجيش المملوكى ، وبعبارة اخـــرى تكون أمرة الطبلخاناه الرتبة الثانية من أرباب الوظائف في سلم النظام الاقطاعى المملوكى . وسميت أمرة طبلخاناه بذلك الاسم لأن من حق صاحبها أن يدق بالطبل على بابه كل مساء . وعـــدة أمرة الطبلخاناه أربعين فارسا ، ومعنى ذلك أن الاقطاع الذى يحوزه صاحب هذه الرتبة يكفى لشراء اربعين مملوكا . ولم يقتصر امرة الطبلخاناه على هذا العدد الرسمى ، فمنهم من وصل عدد مماليكه الى ٦٠ و ٧٠ و ٨٠ . انظر (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٥ ، ص ٦٦ ، ابراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٣٠) .

(٦١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ص ٢٤ ــ ٢٥ ،
ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٩ ، ٣١٠ . ،
سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٥٩ .

(٦٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٢ ص ٢٨٠ .

وليس من شك فى أن نظام البريد فى خدمة النظام الادارى ، وأداة مساعدة لاستقراره . ومن المعروف أن دولة المماليك البحرية ازدهرت بفضل دورها فى تجارة العصور الوسطى . واحتلت أسوان مكانة مرموقة فى ذلك الدور . هذا الى أن فتح النوبة عام ٦٧١ هـ (١٢٧٢ — ١٢٧٣ م) علـــى يد الظـــاهر بيبرس ، مـــد سلطته جنوبى اسوان ، الأمر الذى دفعه للقيام بتنظيم شبكة ضخمة من خطوط بريد الخيل فى انحاء امبراطوريته ، ليكون على علم بكل ما يجرى فيها من صغيرة وكبيرة فى اقصر وقت . ولسنا هنـــا بسبيل سرد جميع محطات البريد البرى (الخيل) التى ربطت الظاهر بيبرس بامبراطوريته الواسعة ، فذلك يخرج بنا عن اطار هذه الدراسة ، بل سنقتصر على طريق بريد الخيل الذى يصل بين قلعة الجبل الى قوص محاذيا للنيل ومارا بالجيزة الى برنشت ، ثم الى منية ابن خصيب ، ثم الي الأشمونين ثم الى ديروط ، ثم الى المنهى ، ثم الى منفلوط ، ثم الى أسيوط ، ثم الى طما ثم الى المراغة ، ثم الى بلسبورة (بلصفورة) ثم الى جرجا ، ثم الى البلينة ، ثم الى هو ، ثم الى الكوم الأحمر، ثم الى خان دندرا ، ثم الى قوص (٦٣) . ومن قوص يبتدىء طريق الى أسوان ، ثم منها الى بلاد النوبة ، ويركب البريد فى ذلك الطريق الهجين (٦٤) الذى يناسب المظاهر التضاريسية لتلك المنطقة . ويبـــدو أن الخزينة العامة لدولة المماليك البحرية ، كانت تدفع سنويا مبلغ عشرة آلاف دينار لتنفيذ الترميمات التى يتطلبهـــا ذلك الطريق البرى ، كما أهتم الظاهر بيبرس بأن يكون السـفـــر آمنا ســـهلا ، فأقام فى ذلك الطريق خفراء لحفظ المسافرين (٦٥) .

ولم تكن أسوان محطة للبريد البرى فى العصور الوسطى فقط ، بل كانت أيضا احد المحطات الهامة للبريد الجوى الذى استخدم فيه الحمام الزاجل .

---

(٦٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٤ ص ٣٧٢ — ص ٣٧٤ ،
العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٨٧ — ١٨٨ .
(٦٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٤ ص ٣٧٤ ،
تاريخ البريد في مصر (مصلحة البريد) ص ٣٤ .
(٦٥) نظير حسان سعداوى : نظام البريد في الدولة الاسلامية ، ص ١٢٤ — ١٢٦ .

وقد سبق لنور الدين محمود ــ الذى وحد بين مصر والشام ــ أن نظم عام ٥٦٥ هـ (١١٤٦ م) خطوطا للبريد الجوى بين القاهرة والاسكندرية ، وبين القاهرة ودمياط، وبين القاهرة والوجه القبلى « قوص واسوان وعيذاب»(٦٦) . وهى نفس الخطوط التى انتظم فيها البريد البرى بواسطة الجياد (٦٧) . واذا كان خط البريد الجوى من القاهرة الى أسوان يعتبر من الخطوط الثانوية التى انشأها نور الدين محمود ، لأن مقر حكمه كان الشام ، واذا كان من الثابت أيضا أن المغول دمروا كثيرا من أبراج ومحطات الحمام الزاجل عندما أوغلوا فى بلاد الشـــام أوائل عصر المماليك ، فان السلطان الظـــاهر بيبرس أعاد اصلاحها ، وجعل مركزها قلعة الجبل ، واهتم بها اهتماما لا يقل عن اهتمامه بالبريد البرى ، وقد أتاح له ذلك الاشراف على أجزاء دولته الواســـعة ، ومراقبة موظفيه فى الأقاليم البعيدة (٦٨) مثل اسوان .

ومهما كان الأمر ، فان مدينة اسوان شهدت نشاطا بارزا فى الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى احاطت بمصر فى العصور الوسطى . كما ساهمت فى الحياة العلمية والدينية التى سادت مصر فى ذلك الوقت . ويرجع السبب فى ذلك الى موقعها الجغرافى الفريد على آخر حـــدود مصر الجنوبية المتاخمة لمملكة النوبة المسيحية ، فضلا عن أنها كانت أحد المحطات الهامة لقوافل الحج والتجارة الآتية من عيذاب على ساحل البحر الأحمر . وسنحاول معالجة ذلك النشاط بالبحث والدراسة فى الفصول القادمة .

---

(٦٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ص ٢٦٩ ، العمرى ص ١٩٦ .
(٦٧) نظير حسان سعداوى : نظام البريد ، ص ١٣٩ ــ ص ١٤٠ ، تاريخ البريد فى مصر (مصلحة البريد) ص ٤١ ــ ص ٤٢ .
(٦٨) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ١٤٠ ــ ص ١٤١ .

الفصل الأول

دور أسوان فى النشاط السياسى

(أ) بنو الكنز فى أسوان : حماية الحدود الجنوبية لمصر ــ هجرة القبائل العربية الى أسوان ــ نزوح ربيعة الى مناجم الذهب بالعلاقى ــ نشوب النزاع فى ربيعة ــ اقامة فرع من ربيعة فى اسوان ــ ظهور ربيعة فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى ــ منح زعيم ربيعة لقب كنز الدولة ــ ارتباك أحوال الدولة الفاطمية فى عهد المستنصر بالله ــ خروج بنى الكنز عن الطاعة ــ محاربة بدر الجمالى لبنى الكنز ــ قيام الدولة الأيوبية ــ ثورة كنز الدولة على صلاح الدين ــ هزيمة بنى الكنز وهجرتهم الى النوبة ــ اختلاط بنى الكنز بالنوبيين ــ اعتلاء كنز الدولة المسلم عرش النوبة ــ اغارات بنى الكنز على أسوان فى عهد المماليك الجراكسة ــ خروج أسوان عن يد السلطنة ــ سقوط أسوان فى أيدى بنى الكنز .

(ب) غارات النوبيين على أسوان : ممالك النوبة المسيحية ــ الحملات التى أرسلها عمرو بن العاص لغزو النوبة ــ حملة ابن أبى سرح ــ معاهدة البقط ــ اغارة النوبيين على أسوان فى عهد الأخشيديين ــ عدم تعرض النوبيين لأسوان فى العهد الفاطمى ــ غزوة تورانشاه للنوبة ــ اغارة ملك النوبة على اسوان وعيذاب ــ فتح النوبة فى عهد الظاهر بيبرس ــ توقف اغارة النوبة المسيحية على اسوان ــ سقوط مملكة النوبة المسيحية فى النصف الأول من القرن ١٤ م .

(جـ) اغارات البجا على أسوان : مواطن البجا ــ شعوب البجا ــ اغارة البجا على حدود مصر فى عام ١٠٧ هـ ــ اتفاقية عبيد الله ابن الحبحاب مع البجا ــ اغارة البجا على أسوان عام ٢٣٢ هـ ــ حملة القمى ــ توقف اغارات البجا على أسوان .

(د) دور أسوان فى الحركات المضادة للسلطة المركزية : ثورة ابن الصوفى ــ ثورة العمرى ــ قضاء أحمد بن طولون على العمرى ــ اسوان معبر للفارين من الضغط السياسي ــ أسوان منفى للمغضوب عليهم من عظماء الدولة ــ ثورات العربان بالوجه القبلى وأثرها على أسوان ــ زحف قبيلة هوارة على اسوان ــ خراب أسوان بسبب فساد العربان وخاصة بنى الكنز .

(أ) بنو الكنز فى اسوان :

احس العرب بعد ان فتحوا مصر بضرورة حماية حدودها الجنوبية ، خشية أن تقوم مملكة النوبة المسيحية بمشروع تحالف مع الدولة البيزنطية لاسترداد مصر ، فضلا عن اهمية أسوان لقربها من معادن الذهب والزمرد . فاتخذوا من اسوان قاعدة حربية هامة يعسكر فيها الجند للرباط فى سبيل الله . ونتيجة لذلك استقر العرب فى اسوان — منذ الفتح العربى لمصر — فى اعداد هائلة . ومن الأدلة التى تثبت استقرار العرب فى أسوان ، شــواهد القبور التى عثر عليها فى جبانة أسوان (١). ، فمعظمها تحمل أسماء القبائل العربية التى اتخذت أسوان سكنا ومعاشا لهــا . ولا يخفى علينا أن بيئة اسوان وظروفها الطبيعية قريبة الشبه من البيئة العربية التى اتت منها تلك القبائل ، مما جعلها ترتاح الى الاقامة بها .

وتوالت هجرة القبائل العربية لأسوان فى القرنين الأول والثانى للهجرة، فالمسعودى الذى زار مصر سنة ٣٣٢ هـ يقول : « ومدينة أسوان يسكنها كثير من العــرب من قحطان ونزار بن معد بن ربيعــة ومضر وخلق من قريش ، ولكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره » (٢) .

ومن السمات البارزة فى هجرة القبائل العربية الى مصر فى القرن الثالث الهجرى ، انها وفدت فى جموع كثيرة ، ولم تستقر فى مكان واحد من مصر ، بل انتشرت فى أنحائها ، فمنها من استقر فى الوجه البحرى ، ومنها من أخذ طريقه الى الصعيد الأعلى (٣) . ومن المرجح أن ولاة أسوان وضعوا سياسة لضمان الاشراف على تلك المنطقة الحيوية التى تجاور مملكة النوبة المسيحية ، وأيضا لضمان الاشراف على المعادن ، وقوام تلك السياسة تشجيع القبائل

---

(١) سعاد ماهر : محافظات الجمهورية، ص ٨٤٠ .
(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٣ ص ٢٤ .
(٣) المقريزى : البيان والاعراب ، ص ١٠٥ .

العربية التى كانت تنزل بادية العراق ونجد وشرقى شبه الجزيرة العربية على النزوح الى الصعيد الاعلى ، حتى يجدوا لهم أنصارا فى تلك المنطقة (٤) .

ومن القبائل العربية التى تهمنا فى نطاق هذه الدراسة ، قبيلة ربيعة التى انحدر منها بنو الكنز . وتنتسب هذه القبيلة الى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وكان مقرها نجد وتهامة فى الجزيرة العربية ، الى أن نشبت الحرب بين بنى ربيعة ، واقتتلوا قتالا شديدا كان فيه الهلاك والفناء ، فتفرقت ربيعة وارتحلت بطونها الى أماكن مختلفة ، منها البحرين ، وهجر ، وظواهر بلاد نجد ، والحجاز ، واليمامة (٥) .

أما عن ربيعة التى نزلت اليمامة ، فقدمت الى مصر فى أعداد كثيرة أواخر خلافة المتوكل على الله العباسى عام ٢٤٠هـ (٨٥٩م) تقريبا ، وانتشرت فى أرجاء مصر ، فنزلت طائفة منها بأعالى الصعيد ، وخاصة اسوان وشمال النوبة (٦) . ويبدو أن مناجم الذهب والزمرد بالعلاقى ، أغرت قبيلة ربيعة — ومعها جهينة — بدخول أرض البجة بعيدا عن جامعى الضرائب وتعسفهم على ضفاف النيل ، فانتقلت اليها فى شكل هجرات واسعة عام ٨٦٩ م وبفضل تحالفها مع البجة فرضت نفوذها بزعامة اسحاق بن بشر على منطقة العلاقى ، كما يبدو لنا ايضا أن القبائل العربية كانت فى نزاع وتنافر من اجل فرض السيادة على تلك المنطقة ، ونلمس ذلك فى النزاع الذى نشب بين بنى بشر وبين بنى يوسف (طائفة اخرى من ربيعة) انتهى بهزيمة الأخيرين فاضطروا اثر ذلك للعودة الى بلاد الحجاز عن طريق عيذاب . غير أن النزاع ما لبث أن قام بين بنى بشر انفسهم كان من نتيجته مقتل اسحق (٧) .

---

(٤) المقريزى : البيان والاعراب ، ص ١٠٦ .

(٥) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣١ ،
عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، جـ٢ ص ٤٢٤ .

(٦) المقريزى : البيان والاعراب ، ص ٤٤ ،
MacMichael : A Hist. of the Arabs in the Sudan, Vol. 1., P. 148.

(٧) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٦ ، البيان والاعراب ص ٤٤ — ٤٥ ،
MacMichall : Op. Cit, Vol. 1. P. 148.

ولا نستطيع التكهن بطبيعة ذلك النزاع الذى نشب فى بنى بشر وأدى الى مقتل اسحق الا أنه صورة من صور النزاع القبلى الذى اتصفت به حياة القبائل العربية . ومن العجيب أن فرع ربيعة فى العلاقى لم يتفق على اختيار زعيم له من تلك المنطقة خلفا لاسحق ، وربما يرجع سبب هذا الى خلو المنطقة من شخصية مناسبة تصلح لتولى الزعامة . وعلى أية حال ، فان الأمر انتهى باستدعاء أبى عبد الله محمد بن على المعروف بأبى يزيد بن اسحق — وهو ابن عم المقتول — من مقره فى بلبيس لتولى زعامة فرع ربيعة فى بلاد البجة (٨) .

ويبدو أن أبا يزيد بن اسحق لم تعجبه الاقامة فى منطقة العلاقى الجافة القاحلة ، وآثر اختيار مقره على ضفاف النيل عند أسوان فى مكان كان معروفا بساقية شعبان (٩) . ويبدو أن أسوان — التى تتفوق حضاريا — حازت اعجابه عندما وقف بها فى طريقه الى العلاقى لتولى الزعامة . ومثلما فرضت ربيعة سيطرتها على منطقة العلاقى ، فانها مارست نوعا من السيادة الأرستقراطية على القبائل العربية المقيمة فى أسوان (١٠) .

وقد ظل أبو عبد الله محمد بن على المعروف بأبى يزيد بن أسحق — الذى يرجع نسبه الى مسروق بن معدى كرب — رئيسا على فرع ربيعة بأسوان حتى مات ، فخلفه ولده أبو المكارم هبة الله بن أبى عبد الله محمد بن على الذى عرف بالأهوج المطاع (١١) .

واتاحت ظروف الدولة الفاطمية فى ذلك الوقت الفرصة لظهور أبى المكارم هبة الله على مسرح الأحداث السياسية . فالدولة الفاطمية التى قامت فى مصر عام ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) ، وسلخت مصر من الخلافة العباسية ببغداد ، تلك الدولة ظلت قوية الى ما يقرب من مائتى عام شهدت مصر فيها

---

(٨) المقريزى : البيان والاعراب ، ص ٤٥ .

(٩) نفس المرجع والمكان .

(١٠) MacMichael : Op. Cit., Vol. I., P. 149.

(١١) المقريزى : البيان والاعراب ، ص ٤٥ .

فترة غنية بالازدهار (١٢) غير أنها فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى تعرضت لمحنة قاسية زعزعت أركانها ، وكادت أن تطيح بها (١٣) . وكان ذلك عندما خرج أبو ركوة على الخليفة الفاطمى .

اما أبو ركوة هذا فقد ذكر المؤرخون أنه من سلالة بنى أمية خلفاء الأندلس من ولد هشام بن المغيرة بن عبد الرحمن الناصر واسمه الوليد ، وكان يدعو لعمه هشام بن الحكم المستنصر الأموى بالأندلس ، وتبعه عديد من الناس وعظم شأنه ، وزحف على راس جيش كبير الى برقة ، وتمكن من الاستيلاء عليها بعد أن هزم جيوش الحاكم (١٤) ثم تلى ذلك بقطع الدعوة الفاطمية من الخطبة ، ولعن الحاكم بأمر الله ، وانزعج الحاكم لتطور الحوادث على ذلك النحو ، فأرسل اليه جيشا آخر نال الهزيمة الساحقة على يده (١٥) .

ثم تطلع أبو ركوة الى امتلاك مصر ، فسار بجموعه الجرارة نحو الصعيد ، وعندئذ احس الحاكم بفداحة الخطر الذى يهدد ملكه ، فسير للقاءه جيشا ضخما فى ربيع الأول عام ٣٩٦ هـ (١٠٠٦ م) . وكان أن حلت الهزيمة بجيش الحاكم فى كوم شريك على مقربة من الاسكندرية ، وبلغ أبو ركوة صحراء الهرم ، وهناك هزم الجيش الذى أرسله الحاكم لصده . ثم ارتد أبو ركوة تجاه صحراء الفيوم ، فتبعه الجيش الفاطمى بعد أن عززه الحاكم بأمر الله ، واستؤنف القتال بين الفريقين بمنتهى العنف ، وكانت المعركة الفاصلة يوم ٣ ذى الحجة عام ٣٩٦ هـ (سبتمبر ١٠٠٦ م) ، فهزم أبو ركوة ، وتفرقت جموعه ، وارتد الثائر جنوبا والجيش الفاطمى يتعقبه حتى حدود

---

(١٢) MacMichael : Op. Cit. Vol. I., P. 172.

(١٣) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٨٦ .

(١٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٣٨٧ هـ ،
حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٤٩ ،
محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٨٨ .

(١٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ص ٣٣٧ ،
محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ١٨٩ — ١٩٠ .

النوبة (١٦) . ويبدو أن قائد الجيش الفاطمى الذى طارد أبا ركوة للقبض عليه توقف فى أسوان ، واستعان بأبى المكارم هبة الله زعيم ربيعة لتعقب الثائر فى بلاد النوبة والقبض عليه . وذكر ابن الأثير (١٧) « فلما بلغ (أبو ركوة) الى حصن يعرف بحصن الجبل للنوبة (١٨) أظهــر أنه رسول من الحاكم الى ملكهم ، فقال له صـــاحب الحصن : الملك عليل ولابد من استخراج أمره فى مسيرك اليه ، وبلغ الفضل (قائد الجيش الفــاطمى) الخبر فأرســـل الى صاحب القلعة بالخبر على حقيقته ، فوكل به من يحفظه وأرسل الى الملك بالحال ... فأمر بأن يسلم الى نائب الحاكم ، فتسلمه رسول الفضل وسار به ... وحمله الى مصر » . وما جاء فى العبر لابن خلدون (١٩) يكاد يطابق نفس الأسلوب والمعنى . ويؤيد ما وصلنا اليه قول المقريزى (٢٠) : « وهو (أبو المكارم هبة الله) الذى ظفر بأبى ركوة الخارج على الحـــاكم بأمر الله وقبض عليه ... » ويعنى هذا أن أبا المكارم هو الذى طارد أبا ركوة فى بلاد النوبة ، كما أنه كان حلقة الوصل فى المفاوضات التى دارت بين صـــاحب الجبل وقائد الجيش الفاطمى . علاوة على أنه تسلم الثائر من صاحب حصن الجبل ، وأتى به حيا الى أسوان . وأخيرا نقل الثائر الى القاهرة ، « وطيف به ، وألبس طرطورا ، وجعل خلفه قرد يصفعه كان معلما بذلك ، ثم حمل

---

(١٦) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٥٨ — ٥٩ . ويرى ابن خلدون أن أبا ركوة هذا ليس من سلالة بنى أمية . وقد أخذ بهذا الرأى محمد عبد الله عنان الذى صـــور أبا ركوة مغامرا طموحا نسب نفسه الى بنى أمية بالاندلس . أنظر : (الحاكم بأمر الله ، ص ١٨٦ — ١٨٧) .

(١٧) الكامل : حوادث عام ٣٨٧ هـ .

(١٨) كانت منطقة المريس يحكمها موظف من قبل ملك النوبة يعرف بصاحب المريس . كما يعرف بصاحب الجبل لأن منطقة نفوذه تقع بالقرب من أراضى المسلمين ، ويعتبر الجزء الشمالى من منطقة المريس — بين الشلال الأول والثانى — منطقة مفتوحة للمسلمين ، أما الى الجنوب من الشلال الثانى (وادى حلفا) فانها منطقة مغلقة في وجه المسلمين . وتنحصر مسئولية حاكم الجبل في عدم السماح لأى شخص بالمرور الا اذا كان لديه ترخيصا بذلك . وقد استمرت سياسة العزل جنوب الشلال الثانى تنفذ بحزم وشدة . أنظر :
Trimingham : Islam in the Sudan, PP. 64-65.

(١٩) ج٤ ص ٥٨ — ص ٥٩ .

(٢٠) البيان والاعراب : ص ٤٥ .

الى ظاهر القاهرة ليقتل ويصلب ، فتوق قبل وصوله ، فقطع رأسه وصلب » (٢١) .

وكوفىء أبو المكارم هبة الله زعيم ربيعة فى أسوان على جهوده فى القاء القبض على الثائر ابى ركوة ، فأضفى عليه الحاكم بأمر الله لقب «كنز الدولة» تكريما له ، ويعد أبو المكارم هذا أول من لقب بذلك اللقب الذى صار علما لمن خلفه من بعده ، بل عرفت قبيلة ربيعة بعد ذلك ببنى الكنز(٢٢) . والجدير بالذكر هنا أن اسم الكنز — وجمعه الكنوز — ليس اسما مستحدثا فى العصور الوسطى ، بل طالما جاء ذكره فى تاريخ مصر القديم ، وأطلق على النوبيين ، ويبدو أن ربيعة اكتسبت اسم الكنز — فضلا عن اسمها — نتيجة تصاهرها مع أهالى النوبة(٢٣) .

على أنه لم يترتب على منح الحاكم بأمر الله لقب « كنز الدولة » لزعيم ربيعة فى أسوان اضفاء أى نفوذ سياسى أو سلطة ما لتلك القبيلة فى أسوان . وما ذهب اليه بعض الباحثين من أن الدولة الفاطمية اعترفت بامارة ربيعة فى أسوان(٢٤) ، بالاضافة الى انها شجعتها على الاستقلال الفعلى(٢٥) ، يوحى الينا أن تلك القبيلة فرضت سيطرتها المباشرة على اسوان بمنأى عن السلطة المركزية ف‍فى مصر . والواقع أن أسوان خضعت خضوعا تاما للدولة الفاطمية ، ولا يزيد لقب « كنز الدولة » عن كونه لقبا فخريا منح لأبى المكارم لما أظهره من ولاء للخليفة الفاطمى .

وعلى أية حال ، فان بنى الكنز أعطونا صورة أخرى لنشاطهم فى اسوان فى أواخر العصر الفاطمى الأول (٣٥٨ — ٤٦٥ هـ) ، تغاير ما سبق فى عصر

---

(٢١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٣٨٧ هـ .

(٢٢) المقريزى : البيان والاعراب ، ص ٤٦ .

(٢٣) MacMichael : The Coming of the Arabs to the Sudan, P. 46.

(٢٤) مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ، ص ١٣٤ ، ص ٢٢٣ ، البجة والعرب فى العصور الوسطى ص ٤٠ .

(٢٥) عطيه القوصى : بنو الكنز ، رسالة ماجستير لم تطبع ص ٥٤ وما بعدها .

الحاكم بأمر الله . وستتضح رؤية تلك الصورة ، بعد أن نتناول ــ بايجاز شديد ــ أحوال مصر الداخلية فى أواخر العصر الفاطمى الأول ، وخاصة فى عهد المستنصر بالله .

فالمعروف أن أحوال مصر الداخلية اعتراها الفوضى والارتباك فى أواخر العصر الفاطمى الأول ، بسبب التنازع بين الطوائف الموجودة . ذلك أن المعز لدين الله اعتمد منذ أن وطد ملكه فى مصر على المغاربة ، حتى اذا ما ولى العزيز بالله استخدم الأتراك والديلم ، أما فى عهد الحاكم بأمر الله فقد ظهر عنصر السودان فى الجيش ، وازداد عدده فى خلافة المستنصر بالله حتى بلغ عدد السودانيين فى الجيش خمسين ألف ، وقد أدى تعدد العناصر فى الجيش الفاطمى الى قيام التنافس والتطاحن بين طوائف الجند ، بدلالة ما حدث فى عهد المستنصر بالله حين دب خلاف بين طائفتى الأتراك والسودانيين مما ترك أسوأ الأثر فى أحوال مصر الداخلية(٢٦) . وأججت أم الخليفة المستنصر بالله ــ التى تحكمت فى الدولة فى ذلك الوقت ــ نيران الفتنة بين الأتراك والسودانيين ، بسبب تحيزها للأخيرين ، واعتمادها عليهم ، فقامت الحرب بين الأتراك والسودانيين ، وتمكن الأتراك من هزيمة السودانيين وابعادهم الى جهة الصعيد الأعلى بعد حروب استمرت من عام ٤٤٧ هـ حتى عام ٤٥٩ هـ ، ويروى أن عددهم ببلاد الصعيد بلغ خمسة عشر الفا ، وأنهم أضروا بالأهالى ضررا بالغا ، الى أن انتهى الأمر باستبداد الأتراك بالسلطة فى البلاد(٢٧) .

ومن العوامل التى أدت أيضا الى سوء أحوال مصر الداخلية المجاعة التى استمرت بمصر عدة سنوات ، فتسببت فى شل الحركة الاقتصادية تماما ، وأهلكت الزرع والضرع ، ولبشاعة تلك المجاعة وقسوتها فانها عرفت فى المصادر المعاصرة بالشدة العظمى(٢٨) .

---

(٢٦) جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ١٠١ ــ ص ١٠٢ .

(٢٧) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ٣٣٤ ــ ص ٣٣٥ .

(٢٨) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٢٤ ــ ٢٧ .

وانتهز العربان بالصعيد فرصة سوء الأحوال الاقتصادية ، وانهيار نفوذ الخليفة فى البلاد ، فرفعوا راية العصيان والتمرد على السلطة المركزية، وقطعوا الطرق ، وظلموا الأهالى ، وعاثوا فى الصعيد فسادا ونهبا(٢٩) . ومن الطبيعى أن قبيلة بنى الكنز كانت من بين العناصر التى استغلت ضعف الخلافة الفاطمية ، فخرجت عن الطاعة ، واستفحل أمرها (٣٠) فى أسوان التى تبعد عن القاهرة بمسافة طويلة .

ولما اشتدت الفوضى بالبلاد ، وعجز الخليفة عن ايقافها ، بعث الى بدر الجمالى والى عكا يطلب منه المجىء لاصلاح ما فسد من أمور مصر ، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من عساكر بلاد الشام ليستعيض بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر ، فأجابه المستنصر الى طلبه (٣١) .

وكان أن اتخذ بدر الجمالى بعد أن أتى الى مصر مقرا له بحارة برجوان بالقاهرة ، وصمم منذ اللحظة الأولى على اعادة الأمور الى نصابها ، وارجاع نفوذ الخليفة فى مصر ، وعندما فرغ من اعادة الأمن والهدوء الى العاصمة بدأ يوجه عنايته الى بقية الأقاليم ، فاتجه أولا الى الوجه البحرى ، حيث قضى على المفسدين فيه (٣٢) .

وبعد أن انتهى من الوجه البحرى ، سار بقواته الى الوجه القبلى عام ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) . وكانت جماعة كثيرة من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة قد تجمعت بقرية طوخ (٣٣) ، فطوقهم بغتة بالليل ، وأعمل فيهم السيف دون

---

(٢٩) أبو المحاسن : حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور — جـ ٣ ص ٤٥٨ .

(٣٠) Lane-Poole : A Hist. of Egypt in the Middle Ages., P. 29.

(٣١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ٣٨١ ،

جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر ، ص ١٠٧ .

(٣٢) جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر ، ص ١٠٨ — ص ١٠٩ .

(٣٣) على الضفة الغربية للنيل تجاه مركز قوص محافظة قنا .

رحمة أو شفقة ، فغرق من فر منهم فى النيل ، ولم ينج منهم الا أعـــداد قليلة (٢٤) .

وعقب تلك المعركة التى انتصر فيها بدر الجمالى ، واصل سيره على رأس قواته الى أسوان لاخضاع بنى الكنز ، وكسر شوكتهم ، فالتقى بكنز الدولة محمد واتباعه الكثيرين فى معركة بالغة العنف ، انتهت بالهزيمة الساحقة لبنى الكنز ومقتل كنز الدولة ، وبنى بالمكان الذى دارت فيه المعركة مسجدا سماه مسجد النصر تخليدا لتلك المعركة التى كتب له فيها النصر (٢٥) .

ويبدو أن ذلك الجامع الذى بناه بدر الجمالى فى مكان المعركة هو أحد المساجد الثلاثة التى يسميها أهالى أسوان بمآذن بلال ، ويرجع تاريخ تلك المساجد الى نهاية القرن الخامس الهجرى . فالمئذنة الأولى أو الشمالية تقع فى « قرية الباب » أو « المشهد البحرى » جنوب الشلال الأول فى مواجهة جزيرة فيلة (أنس الوجود) ، ويرجع تاريخ بناءها الى عام ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م) اى فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٣٦) . اما المئذنة الجنوبية فانها بنيت على تل فى قرية « بلال » أو « المشهد القبلى » جنوب قرية الباب ، وهى تشبه المئذنة الأولى فى شكلها ومواد البناء التى صنعت منها ، علاوة على أنها تشبه مئذنة جامع الجيوشى الذى انشىء عام ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م)(٣٧) . اما المئذنة الثالثة والأخيرة بنيت فى نفس المنطقـــة التى بنيت فيها المئذنتين

---

(٢٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٢٤ — ص ٢٥ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ص ٦٤ .

(٢٥) المقريزى ، جـ ٣ ورقة ٢٥٢ ب ،
ابن حجر : رفع الاصر عن قضاة مصر ص ١٢٢ (مطبوع) ،
ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٢٥ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٦٤ .
ويرى ساويرس بن المقفع أن كنز الدولة لما ثار بأسوان هرب الى بلاد النوبة بمجرد أن سمع بتحرك بدر الجمالى الى الصعيد ، فأرسل بدر الجمالى الى ملك النوبة « سلمون » رسولا ليسلمه كنز الدولة . فأجابه الملك الى طلبه ، ووصل به الرسول الى مصر ، فقتل وصلب عند باب الحديد فيما بين القاهرة ومصر .
(انظر : سير الآباء البطاركة ، جـ ٣ ورقة ٨٦ أ — ٨٧ أ) .

(٣٦) Hassan El-Hawary : Trois Minarets Fatimides à la Frontière Nubienne, PP. 141-145.

(٣٧) Ibid P., 148-150.

السابقتين ، وقد اختفى الجامع تماما ، ولم يبق من المئذنة سوى أسفلها(٣٨). وعلى اية حال ، فمع اننا لا نستطيع تحديد المسجد الذى بناه بدر الجمالى من بين المساجد الثلاثة التى سبق أن ذكرناها ، الا أن تلك الآثار قد افادتنا فى تحديد مكان المعركة التى قتل فيها كنز الدولة محمد .

وقد أسفرت تلك المعركة عن خسائر فادحة فى الأرواح بالنسبة لبنى الكنز ، وليس أدل على ذلك من قول المقريزى(٣٩) . قتل (بدر الجمالى) من مصر خلائق لا يحصيها الا خالقها ، منها أنه قتل من أهل البحيرة نحو العشرين ألف انسان ، الى غير ذلك من أهل دمياط والاسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد وأسوان وأهل القاهرة ومصر . . . » .

وهكذا عاد الأمن والسكينة الى أسوان بعد أن عاث فيها بنو الكنز فسادا ، ونشروا فيها الفوضى والاضطراب ، الأمر الذى كاد أن يشكل خطرا جسيما على مدينة أسوان بوصفها مركزا هاما للتجارة من ناحية ، وأحد طريق الحجيج الى الحجاز — عبر الصحراء الشرقية — من ناحية أخرى .

ولم يحاول بنو الكنز أن يرفعوا رءوسهم مرة أخرى حتى نهاية العصر الفاطمى ، بالرغم من حالة الضعف التى هوت اليها تلك الدولة . فالوزراء استبدوا بالنفوذ ، وصار الخلفاء الأواخر لعبة فى ايديهم . واستفحلت الأمور فى مصر لدرجة أن التسابق والصراع بين الوزراء جعل بعضهم يلجأ الى التحالف مع الصليبيين . وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ كل من نور الدين والصليبيين فى الشام يتطلع للفوز بمصر . فأرسل نور الدين حملاته الثلاث المشهورة سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) ، سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) ، سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) بقيادة اسد الدين شيركوه رافقه فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب . واستطاعت تلك الحملات أن تفتح مصر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) .

---

(٣٨) Ibid P., 153.

(٣٩) الخطط ، جـ ١ ص ٣٨١ .

وفى خلال تلك الأحداث ظهرت شخصية طموحة فذة هى شخصية صلاح الدين الأيوبى ، الذى تمكن بعد وفاة عمه شيركوه فى جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ (مارس سنة ١١٦٩ م) من الاستيلاء على مقاليد الأمور فى مصر ، ثم توحيد مصر والشام فى جبهة واحدة ضد الصليبيين .

وكانت أولى المشاكل التى واجهت صلاح الدين فى مصر هى ثورة السودان — وعددهم يزيد على الخمسين الف — فتآمروا عام ٥٦٤ هـ (١١٦٩م) للاطاحة به ، واتفقوا على مكاتبة الصليبيين ، ولكن عين صلاح الدين الساهرة استطاعت كشف تلك المؤامرة ، فدار بينه وبينهم قتال عنيف فى شوارع القاهرة أدى الى هزيمتهم (٤٠) ، فهرب من نجا من القتل الى أقاصى الصعيد وخاصة أسوان (٤١) .

ويبدو إن السودانيين الذين فروا الى أقاصى الصعيد قد تجاوزوا أسوان، واحتشدوا فى بلاد النوبة ليوحدوا صفوفهم تمهيدا لاعادة الحكم الفاطمى . ونلمس ذلك بصورة واضحة عندما خرجوا لحصار أسوان عام ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) ، فأرسل كنز الدولة الى صلاح الدين يعلمه بحصار أسوان ، ولم يتوان صلاح الدين ، فجهز جيشا كثيفا بقيادة الشجاع البعلبكى سار الى أسوان لملاقاة السودانيين ، غير أن الأخيرين كانوا قد غادروها قبل وصولهم ، « فتبعهم ومعه كنز الدولة ، وواقعهم وقتل منهم كثيرا ، وعاد الى القاهرة (٤٢) » .

ولا ندرى ما هى الأسباب التى دفعت كنز الدولة للتعاون مع الأيوبيين ضد السودان ، ربما كان سبب ذلك أن بنى الكنز أملوا كسب ود الأيوبيين

---

(٤٠) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٥٦٤ هـ ،
المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ص ١ — ص ٢ ،
ابراهيم الحنبلى : شفاء القلوب ، ورقة ١٩ أ .
(٤١) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة جـ ٣ ورقة ١٣٠ أ .
(٤٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٠ ،
أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ ١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

بصفتهم مؤسسى دولة جديدة يحققون من ورائها منافع لهم فى أسوان . ونرجح ايضا أن بنى الكنز أحسوا بعدم مقدرتهم على مواجهة الفلول العديدة من السودان وقت حصارها لاسوان ، اذ من المحتمل أن النوبيين شاركوهم الحصار(٤٣) ، فآثروا الميل الى الأيوبيين ليتمكنوا من دفع ذلك الخطر . وكان فى استطاعة بنى الكنز التعاون منذ البداية مع الجند السودان ضد صلاح الدين ، غير أنهم — كما يبدو — خشوا أن ينقلب السودان عليهم ، فيطيحوا بنفوذهم فى أسوان . ونخرج من ذلك الى أن بنى الكنز درسوا قوى الصراع الموجودة فى مصر فى ذلك الوقت ، فتبين لهم أن كفة صلاح الدين هى الراجحة ، ومن ثم دفعتهم المصلحة الى التعاون مع صلاح الدين .

ومما يؤيد الراى الذى وصلنا اليه ، أن كنز الدولة تبددت أحلامه عندما اقطع صلاح الدين اسوان لأحد أمرائه ، وهو اخو الأمير ابى الهيجاء السمين ، الأمر الذى ادى الى تمرد كنز الدولة ، وثورته على صلاح الدين الأيوبى عام ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) (٤٤) وظهر هذا التمرد عندما قام كنز الدولة باغتيال أخى أبى الهيجاء السمين الذى آل اليه اقطاع أسوان . وتبدو لنا خطورة ذلك التصرف اذا علمنا أن أبا الهيجاء من اكبر الأمراء الصلاحية فى ذلك الوقت (٤٥) . ثم تلى ذلك اتصال كنز الدولة ببقايا الشيعة والجند الفاطميين الذين نفاهم صلاح الدين الى أقاصى الصعيد ، بسبب التخوف من

---

(٤٣) L'Egypte Arabe de la conquéte Arabe, P. 310.

(٤٤) ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ص ٢٨٩ .

ونود أن نذكر هنا ، عندما قدم نجم الدين أيوب الى مصر عام ٥٦٥ هـ أقطعه ابنه صلاح الدين اقطاعا اشتمل على الاسكندرية والبحيرة ، وجعل لأخيه تورانشاه اقطاعا آخرا اشتمل على « قوص واسوان وعيذاب » ، وكانت عبرة اقطاع قوص وحده ١٠٠ الف دينار . أنظر (المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٦ ، حسنين محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ص ٢٧) .

ولكن يبدو أن صلاح الدين اعاد توزيع اقطاع تورانشاه على أمرائه ، لأننا نعرف أن تورانشاه توجه الى اليمن لفتحها عام ٥٦٩ هـ . ومن الجائز أن صلاح الدين منح أخو الأمير أبى الهيجاء اقطاعا اشتمل على أسوان .

(٤٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٥٧٠ هـ .

تحركهم لاعادة الدولة الفاطمية (٤٦) . ونستطيع التأكيد بأن كنز الدولة اتصل ببقايا الشيعة والجند الفاطميين ، وحرضهم على اعلان الثورة ضد صلاح الدين اذ روى ابن شداد — أحد المعاصرين لصلاح الدين والمقربين اليه — أن كنز الدولة جمع حوله فى أسوان بعض العناصر الفاطمية والجند السودان وغيرهم، وصور « لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة مصرية (فاطمية) » ، وبعد أن جمعهم تحت لواءه زحف بهم الى قوص (٤٧) .

ويبدو أن ثورة كنز الدولة والعناصر الفاطمية ، كانت أخطـر أزمة واجهت صلاح الدين الأيوبى فى مصر . فقد جرد لتلك الثورة « عساكرا عظيما شاكين فى السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم » ووضع أخاه العادل سيف الدين أبى بكر الأيوبى على رأس الجيش ، فتقابل العادل مع كنز الدولة فى قوص ، ودارت بينهما معركة عنيفة، انتهت بمقتل كنز الدولة ، والقضاء على معظم أتباعه فى ٧ صفر عام ٥٧٠ هـ (سبتمبر سنة ١١٧٤ م) ثم عاد العادل الى القاهرة (٤٨) . ويقال أن ثمانين ألف من أتباع كنز الدولة قد قتلوا فى هـذه المعركة(٤٩) . وكان نتيجة اخماد تلك الثورة أن « أفنت بلاد أسوان والصعيد » (٥٠) .

وعلى أثر الضربة القوية التى كالها الأيوبيون لبنى الكنز غادرت الغالبية العظمى منهم أسوان الى شمال النوبة ، وتركزت فى منطقة المريس . وتلك

---

(٤٦) أتفق جماعة من الشيعة الفاطميين بمصر ، من بينهم الشاعر عمارة اليمنى وداعى الدعاة وحاشية القصر على المخامرة ضـد صـلاح الدين استدعاء الصليبيين ، ولما كشفت المؤامرة أمر صلاح الدين بصلبهم جميعا ، ثم أمر بترحيل الشيعة والجند الفاطميين الى أقاصى الصعيد . أنظر : (ابن الأثير : الكامل حوادث عام ٥٦٩ ، ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٣ — ص ٥٤) .

(٤٧) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٤٧ ،
أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ٢٣٥ .

(٤٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٧ ،
المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٥٧ — ص ٥٨ ،
ابراهيم الحنبلى : شفاء القلوب ، ورقة ٢٢ ب ،
ابن أبيك : كنز الدرر ، ورقة ٤٤ .

(٤٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٦ ص ١٦٥ .

(٥٠) ابن خلدون : العـبر ، جـ ٥ ص ٢٨٩ .

الأغلبية هي التى اختلطت بالنوبيين ، واندمجت معهم بمرور الوقت . وتأثرت اللغة العربية لبنى الكنز من جراء ذلك ، فلم تعد سليمة كما كانت من قبل ، وان كانوا قد تعلموا اللهجة النوبية المحلية التى عرفت فيما بعد باللهجة الكنزية تمييزا لها عن لهجة الفديجا ، واستفاد بنو الكنز من نظام الارث السائد عند النوبيين ، الذي يمنح ابن البنت أو ابن الأخت حق الارث دون ولد الصلب (٥١) . أما فيما يتعلق بالأقلية الضئيلة التى لم تغادر أسوان ، فانها تبعثرت فى قرى أسوان ونواحيها ، وأصبح لا نفوذ لها على القبائل العربية الأخرى . وتلك الأقلية هى التى احتفظت بدمائها نقية بعيدة عن النوبيين وما زالت موجودة بمحافظة أسوان حتى وقتنا الحاضر .

وفى منطقة المريس جنح بنو الكنز الى السلم فترة طويلة . فلم تذكرهم المصادر المعاصرة الا بعد انقضاء قرن وربع قرن من الزمان . ففى عهد السلطان المنصور قلاوون ، أرسلت حملتين ضد مملكة النوبة المسيحية عندما خرج ملوكها عن طاعة السلطان . فسارت الحملة الأولى فى ٦ ذى الحجة عام ٦٨٥ هـ (يناير ١٢٨٧ م) بقيادة الأمير علم الدين سنجر المسرورى المعروف بالخياط متولى القاهرة ، وكتب السلطان الى الأمير عز الدين أيدمر السيفى متولى قوص يأمره أن يشترك فى تلك الحملة بمن عنده من المماليك السلطانية المركزين بالأعمال القوصية ، واجناد مركز قوص ، والعربان القاطنين فى هذه الأقاليم وهم : أولاد ابى بكر ، وأولاد عمر ، وأولاد شريف ، وأولاد شيبان ، وأولاد الكنز وبنى هلال ، وغيرهم (٥٢) . أما الحملة الثانية التى جاءتنا بأخبار بنى الكنز ، فقد وجهها المنصور قلاوون عام ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) لحسم الأمور بالنوبة ، وتقدم تلك الحملة جريس نائب ملك النوبة (صاحب الجبل) ومعه أولاد الكنز « ليؤمن أهل البلاد ويجهز الاقامات » ، وما أن

---

(٥١) المرجع السابق : ص ٤٢٩ ،
المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ١٩٣ .
(٥٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٧٣٦ — ص ٧٣٧ .

وصلت الحملة الى جزائرميكائيل متجهـــة الى دنقلة ، حتى انفصل عنهـــا جريس لأن منطقة نفوذه تقف عند تلك الجزيرة (٥٣) .

وقـــد استفاد بنو الكنز من السياسة التى انتهجها الســـلطان الناصر محمد بن قلاوون فى تعيين ملك مسلم على النوبة بدلا من ملك مسيحى ، فمن شأن تلك السياسة انتشار الاسلام فى مملكة دنقلة المسيحية ، وازدياد العنصر العربى فيها (٥٤) . فعندما علم كرنبس بعزم السلطان على تعيين ملك مسلم على النوبة رشح ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز لذلك المنصب ، ولكن السلطان رفض تعيين كنز الدولة (٥٥) الذى ينحدر من أصل عربى صميم ، فضلا عن أن له أتباعا كثيرين من العرب المقيمين فى بلاد النوبة . وعين السلطان سنة ٧١٦ هـ (١٣١٦ م) عبد الله برشمبو — وهو نوبى سبق أسره فى احدى الحملات التى كان يوجهها سلاطين المماليك — ملكا على النوبة بعد أسر كرنبس وأخيه أبرام ونقلهما الى القاهرة ، غير أن كنز الدولة رأى أنه صاحب الحق فى تولى عرش مملكة النوبة طبقا لمـــا هو متبع فى نظام الوراثة عنـــد النوبيين ، فحـــارب الملك الذى عينه السلطان ، واستطاع قتله واغتصاب عرش النوبة ، ولم يتهاون السلطان ؛ فأسرع بارسال ابرام لتولى مقاليد الحكم فى النوبة والقبض على ابن أخيه كنز الدولة ، وما ان وصل ابرام حتى قبض على مناوئه كنز الدولة ؛ ولكن وفاته المفاجئة اعادت كنز الدولة الى عرش النوبة عام ١٣١٧ م (٥٦) .

ولم يتوان السلطان الناصر ازاء تحدى كنز الدولة له . فأسرع بارسال حملة الى النوبة عـــام ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) بصحبتها كرنبس لتولى عرش

---

(٥٣) النويرى : نهاية الارب ، جـ ٢٩ ورقة ١١ — ورقة ١٢ ،
المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٧٤٩ — ص ٧٥٠ ،
سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٨٣ — ص ٨٨ .
(٥٤) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٩٤ .
(٥٥) النويرى : نهاية الارب ، جـ ٣ ورقة ٩٥ — ورقة ٩٦ ،
ابن بهادر : فتوح النصر ، جـ ٢ ورقة ٢٣٦ .
(٥٦) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ص ١٦١ — ص ١٦٢ ،
ابن حجر : عقد الجمان ، حوادث عام ٧١٦ هـ .

النوبة ، ولم تكد تصل الى دنقلة حتى أسرع كنز الدولة بالهروب ، فاعطى كرنبس العرش ، وبعد ان ادت الحملة مهمتها قفلت راجعة الى مصر ، وكان تلك العودة كانت بمثابة اشارة لظهور كنز الدولة الذى أسرع بطرد خاله الى أسوان ، ونصب نفسه فى الحال ملكا على النوبة للمرة الثانية (٥٧) .

على أن استيلاء بنى الكنز على عرش النوبة زاد من قوتهم فى تلك البلاد ، وخاصة اذا علمنا أن لهم أشياعا كثيرين يتمثلون فى القبائل العربية التى تسربت الى بلاد النوبة من قبل ، واضحوا قوة مناوئة لسلطنة المماليك الجراكسة ، فشملت الفوضى والاضطرابات تلك البلاد التى عدت مصدر متاعب لمصر . واتجهت أنظار بنى الكنز الى أسوان التى كان لهم فيهم من قبل نفوذ واسع ، اذ ان اقفار بلاد النوبة وجدبها لا يغرى على البقاء فيها ، بعكس أسوان التى تموج بتجارة الشرق ووسط افريقية .

ومهما يكن الأمر ، فان بنى الكنز دأبوا على مهاجمة أسوان والاغارة عليها بهدف استعادة نفوذهم القديم بها . فاقتحموا ثغر أسوان عام ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، وسيطروا على عيذاب فى الصحراء الشرقية ، ولما اشتد استهتارهم وعبثهم فى أسوان ، وجه السلطان شعبان حملة بقيادة اقتمر عبد الغنى لوضع حد لذلك ، واستطاع اقتمر بفضل الحيلة أن يقبض على بعض امراء الكنز ، واخذهم معه الى القاهرة بعد أن نودى فى أسوان « بالأمان والانصاف من أولاد الكنز (٥٨) » . ويبدو أن السلطان شعبان تنبه الى ضعف قبضة السلطنة على أسوان ، فعزم على احكام السيطرة عليها ، فكان أول ما فعله حرصه على اختيار احد الولاة يستطيع مواجهة بنى الكنز . فاختار لها واليا اسمه الحسام عرف بالدم الأسود ، وسلمه أولاد الكنز المسجونين . وسار الدم الأسود الى أسوان فى ذى القعدة عام ٧٦٧ هـ لتولى منصبه ، وفى طريقه توقف فى قوص وسمر أولاد الكنز جميعا ، ومضى بهم

---

(٥٧) ابن حجر : عقد الجمان ، حوادث عام ٧٢٣ هـ ،
ابن بهادر : فتوح النصر ، ورقة ٢٥٠ ،
MacMicheal : A Hist. of the Arabs in the Sudan, Vol. I. p. 187.

(٥٨) المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ص ١٠٩ — ص ١١٢ .

مسمرين من قوص الى أسوان حيث وسطهم بها (٥٩) . وقد مثل الدم الأسود ذلك انذارا لبنى الكنز بسوء العاقبة اذا هم حاولوا نشر الفوضى بأسوان ، غير أن النتيجة لم تكن كما توقع . فقد ثاروا وغضبوا من جراء ذلك الفعل ، وأتوا الى أسوان فى جمع حاشد ، حيث دارت بينهم وبين الدم الأسود معركة دامية عنيفة ، أنتهت بانتصارهم على الدم الأسود والفتك به ، ثم مالوا على أسوان ، فخربوها واشعلوا فيها النار ، وقتلوا جمعا من اهلها ، ونهبوا ما بها ، وأسروا نساءها ، « وفعلوا كما فعلت الفرنج بالاسكندرية » (٦٠) وهكذا فشل السلطان شعبان فى قمع بنى الكنز الذين ردوا على تحديه باجراء اشد عنفا وقسوة ، فقتلوا واليه ، واعقبوا ذلك باقامة مذبحة فى أسوان .

ومن المسلم به أن النفوذ الفعلى للولاة فى أسوان فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر للميلاد) صار لا يتعدى حدود أسوارها ، فبنو الكنز ضيقوا عليها الخناق من جميع الجهات فيما عدا الجهة الشمالية . وقد حاول المماليك بعد ذلك اعادة نفوذهم على اسوان وأبعاد بنى الكنز عن مشارفها ، وأحرزوا نجاحا ضئيلا الى حدما . وليس أدل على ذلك من الطريقة التى اتبعها « قرط » والى أسوان فى دفع بنى الكنز عن مشارف المدينة ومداخلها . فبدلا من أن يقف مكتوف الأيدى فى انتظار هجوم مفاجىء من قبل بنى الكنز

---

(٥٩) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ١٢٣ .

(٦٠) نفس المرجع والمكان . أما جملة المقريزى التى تقول : « وفعلوا كما فعلت الفرنج بالاسكندرية » فهو يقصد بذلك الحملة الجريئة التى قام بها بطرس الأول لوزجنان ملك قبرص ضد مدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥ م . فقد انتهز ذلك الملك فرصة ضعف دولة المماليك في عهد السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون ، وغياب نائب الاسكندرية ، فانزل قواته على شاطىء المدينة ، واحتلها في ١٠ أكتوبر . وتدفقت قواته في شوارع المدينة ، فأخذت تحرق المساجد ، وتخرب الخانات ، وتدمر المنازل ، وتعتدى على النساء والأطفال والشيوخ ، وتنهب كل ما وصلت اليه من بضائع وأموال . وقضى الصليبيون في المدينة حوالى ثلاثة أيام كانت من أسود الأيام في تاريخها . ولم يغادروها الا بعد أن شعروا بقرب جيوش المماليك التى غادرت القاهرة لانقاذ المدينة .

أنظر : (سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ١٢٩ — ١٣٣) .

كما هى عادة الولاة من قبله فى دولة المماليك الجراكسة ، فانه أول وال كسر تلك القاعدة ، اذ بادر بالاغارة على بنى الكنز عام ٧٨٠ هـ (١٣٧٩ م) ، واستطاع القبض على أحد عشر زعيما من زعمائهم ، فقتلهم وبعث برءوسهم الى القاهرة ، حيث علقت على باب زويلة ، ولم يكتف بذلك ، بل أرسل مائتين من بنى الكنز حيث بيعوا فى أسواق الرقيق (٦١) . ويبدو أن ذلك العمل الجرىء الذى قام به قرط أدهش معاصريه . فقد علق المقريزى (٦٢) على ذلك قائلا : « ولم يعهد هذا من قبل » . كما عاب ابن حجر (٦٣) (ت ٨٥٢ هـ) الأسلوب الذى مارسه قرط مع بنى الكنز ، والذى كان من جراء جزاء عنفه وقسوته أن صاروا مصدرا للشر والشغب ، وآل الأمر فيما بعد الى ان خربت أسوان بأيديهم ، وجلا عنها أهلها ، واستولى بقاياهم عليها .

ولم يتهاون قرط فى ضبط الأمور بأسوان ، فضلا عن أن عينه لم تغفل عن رقابة تصرفات بنى الكنز ورصد تحركاتهم ، فاستطاع أن يضبط كتبا أرسلت من غلام الله مشد الشربخاناه ، يستعين فيها ببنى الكنز ، يحرضهم على المجىء الى القاهرة بهدف الاطاحة بالسلطان برقوق (٦٤) . كما ضبط أيضا عدة سيوف بعث بها غلام الله الى أولاد الكنز ، كتب عليها اسم غلام الله ، فأحضرها قرط الى القاهرة ، وعرضها على السلطان . فأمر باعتقاله (٦٥) . ومن المستبعد ان يكون فى استطاعة بنى الكنز الاشتراك فى مؤامرة ضد السلطان برقوق لانشغالهم بالاستيلاء على أسوان من ناحية ، وعدم قدرتهم على مواجهة المماليك بعيدا عن أقاصى الوجه القبلى من ناحية أخرى .

ويبدوا أن قرط دوخ بنى الكنز وكسر شوكتهم ، خلال مدة ولايته على أسوان . فقد جاءت الأخبار ان قرط أتى الى القاهرة فى ١١ محرم عام ٧٨١هـ (ابريل ١٣٧٩ م) ، واحضر برفقته رجلين من أولاد الكنز ، فسمرهما ، وطيف بهما القاهرة ومصر للتشهير بهما ، ثم أخيرا وسطا ، وقد استنكر

---

(٦١) ابن حجر : انباء الغمر ، جـ ١ ص ١٧٥ ، عقد الجمان ، حوادث عام ٧٨٠ هـ .
(٦٢) السلوك ، جـ ٣ ص ٣٣٦ .
(٦٣) انباء الغمر ، جـ ١ ص ١٧٦ .
(٦٤) ابن حجر : انباء الغمر ، جـ ١ ص ١٧٦ .
(٦٥) المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ص ٣٥٢ .

المقريزى (٦٦) – مثلما استنكر ابن حجر من قبل – أفعال قرط مع أولاد بنى الكنز فى منطقة أسوان ، ولام عليه شدة تعسفه معهم ، وكان من رأيه أن سلطنة المماليك كان الأفضل لها أن تتبع سياسة اكثر حكمة مع أولاد الكنز ، بدلا من سياسة التنكيل والارهاب والتشهير التى أدت فى النهاية الى ضعف نفوذ الدولة فى اسوان ، وخروج بنى الكنز عن الطاعة مع كثرة فسادهم ، حتى خرجت أسوان من أيدى الدولة ، وتلى ذلك خرابها .

ولم يعد بوسع دولة المماليك الجراكسة أن تضع حدا لهجمات بنى الكنز على مدينة أسوان بعد أن عزل قرط عن ولايتها . ذلك أن نفوذ تلك الدولة على أسوان كان يستمر لفترة مؤقتة ، يعاود بعدها بنو الكنز هجومهم على أسوان ، واقتحامها . ففى رجب عام ٧٨٧ هـ (أغسطس ١٣٨٥ م) عاد بنو الكنز للاغارة على اسوان ، فتمكنوا منها ، وقتلوا من وجدوه بها الا القليل ، ثم نهبوها ، ولم يستطع الوالى ردعهم ، ففر بجلده الى قوص(٦٧) تاركا أسوان نهبا للفوضى والخراب .

ومن العوامل التى أدت الى تراخى قبضة المماليك الجراكسة فى السيطرة على اسوان ، ومهدت لسقوطها فى أيدى بنى الكنز ، ثورات العربان بالوجه القبلى وخاصة فى أقصاه . فمن المعروف أن العربان كانوا شوكة فى حلق المماليك الجراكسة بعد أن تضاعف شأنهم ، وقوى بأسهم ، ولم يعد الجراكسة بقادرين على قمع ثورات العربان كما فعل أسلافهم العظام من دولة المماليك البحرية . وكان أن تحالفت القبائل العربية الموجودة بالصعيد الأعلى للقيام بعمل عدائى مشترك ضد المماليك الجراكسة . من ذلك تحالف قبيلة هوراة مع قبيلة بنى الكنز ، واتفاقهما على مهاجمة أسوان . ففى عام ٧٩٨ هـ (١٣٩٥ م) توجه نوروز الحافظى الى الصعيد لقتال هوارة ، وتمكن

---

(٦٦) المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ص ٣٥٢ .
(٦٧) المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ص ٥٣٤ ،
ابن حجر : أنباء الغمر ، جـ ١ ص ٣٠٢ ،
ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ص ١١٩ .

من القبض على زعيم تلك القبيلة على بن غريب وأهله ، واربعة وثلاثين فردا من أكابر عربانه ، فأمر السلطان برقوق بسجنهم ، الأمر الذى اغضب انصاره ، فوثبوا على نائب الوجه القبلى وقتلوه ، ثم احتشدوا فى جموع غفيرة وزحفوا على أسوان، واتفقوا مع بنى الكنز على اقتحام اسوان، فأطبقوا عليها بغتة من الشمال والجنوب ، فلم يستطع واليها الصمود أمام القوتين ، فأسرع بالهروب الى ملك النوبة ناصر ، وبعد أن نهبت هوارة وبنو الكنز أسوان غادروها ، وعند ذلك جرد برقوق حملة الى أسوان لمحاربة العربان ودفع فسادهم ، الا أنها لم تظفر بفرد منهم (٦٨) .

وهكذا ظلت أسوان فى نهاية القرن الثامن الهجرى ، كالكرة يتلقفها سلاطين المماليك تارة ، ويتلقفها بنو الكنز تارة أخرى . وقد أدت تلك المحاورة بين القوتين الى سرعة تدهور أسوان ، وبعبارة أخرى لم يعد بوسع سلطنة المماليك الجراكسة الاحتفاظ بأسوان الا لأمد محدود ، تعود بعدها — كما ذكرنا — نهبا لعبث بنى الكنز .

ومن جراء كثرة الحروب التى دارت بين بنى الكنز وولاة أسوان فى نهاية القرن الثامن الهجرى ، لم يستطع المقريزى أن يحدد لنا — بدقة — التاريخ الذى وضع فيه بنو الكنز يدهم بصفة نهائية على أسوان . ذلك انه روى أن بنى الكنز استولوا على أسوان من بعد عام ٧٩٠ هـ (٦٩) . والمقريزى على حق فى ذلك ، فان الأخبار وردت أن أولاد الكنز قتلوا والى أسوان الصارم ابراهيم الشهابى فى ٢ محرم سنة ٨٠١ هـ (سبتمبر ١٣٩٨ م) ، وعين السلطان بدلا منه الأمير زين الدين مقبل أحد المماليك السلطانية (٧٠) . ويلوح لنا من ذلك أن بنى الكنز قد دخلوا أسوان ، واستعادوا نفوذهم فيها

---

(٦٨) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٨٦٠ — ص ٨٦١ ، ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ١، ص ٥١٢ — ص ٥١٣ .

(٦٩) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ١٩٧ .

(٧٠) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٩١٦ .

على الرغم من ابدال وال بآخر . وتلى ذلك المحن التى حلت بالبلاد عـــام ٨٠٦ هـ (١٤٠٤ م) فى عهد السلطان فرج ، فشمل الخراب اقليم الصعيد بأسره ، « وارتفعت يد السلطنة عن ثغر أسوان ، ولم يبق للسلطان فيه وال » (٧١) .

وعلى أية حال ، فان الهجمات العديدة التى وجهها بنـــو الكنز الى أسوان دون ما شفقة أو رحمة ، مكنتهم من العـــودة الى أســـوان حلمهم القديم . ولكنهم — للأسف — عادوا اليها بعـــد أن كانوا أحـــد الأسباب الرئيسية فى خرابها وانهيارها ، وجلاء معظم اهلها عنها . فلم تعد أسوان فى بداية القرن التاسع الهجرى ، كما كانت من قبل « ثغرا من اعظم ثغـــور المسلمين » (٧٢) .

وجدير بالذكر ، أن الحروب التى خاضها بنو الكنز مع سلطنة المماليك الجراكسة ، بهدف السيطرة على أسوان واستعادة نفوذهم فيها ، قـــد استنفدت قواهم واجهدتهم . ولم يعد ذلك النفوذ يتمثل كما كان قبل العصر الأيوبى فى فرض نوع من السيادة الاستقراطية على القبائل العربية الموجودة فى منطقة اسوان . وليس ادل على ذلك من أن قبيلة هـــوارة زحفت الى اسوان فى المحرم عام ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) ، واشتبكت فى حروب مع أولاد الكنز انتهت بهزيمتهم ، وقتل كثيرين من اهلها ، وسبى نساءها وأطفالها ، وبعد أن قامت هوارة بهدم سور المدينة سارت بسببها تاركة أسوان خرابا يبابا ، واستمر الوضع بأسوان على ذلك (٧٣) ، الى أن جاء السلطان سليم الأول مصر ، وفتحها عام ١٥١٧ م .

---

(٧١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ١٩٧ — ص ١٩٨ .
(٧٢) المقريزى : السلوك ، حوادث عام ٨١٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حوادث عـــام ٨٠٦ هـ (طبعة كاليفورنيا) .
(٧٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ١٩٨ .

(ب) غارات النوبيين على أســوان :

سبق أن ذكرنا ان حدود مصر الجنوبية كانت — عند الفتح العربى لمصر — تنتهى عند أسوان وما يليها جنوبا لبضعة أميال ، وأن ما يقع جنوبى ذلك كان يدخل فى نطاق نفوذ مملكة النوبة المسيحية . والواقــع أن تلك الحدود كانت سياسية أكثر منها طبيعية .

ومن المعروف ان المسيحية تسربت من مصر الى النوبة ببطء ، قبــل أن يعترف الامبراطور قنسطنطين (٣٠٦ — ٣٣٧ م) بالمسيحية . ففى الوقت الذى وصلت أولى البعثات التبشيرية الى الجنوب ، اذا بمنطقة الشــلال تموج بالديانة المسيحية ، وليس معنى هذا أن الوثنية اندثرت تمامـــا مــن النوبة ، وانما ظلت قائمة حتى أمر الامبراطور جستنيان باغلاق معبد ايزيس حوالى عام ٥٣٥ م (٧٤) .

والمشاهد أن تطور المسيحية فى شمال النوبة فى القرنين الســادس والسابع الميلاديين أمر يحوطه الغموض ، فكل ما نعلمه أن منتصف القرن السادس شهد بناء كنيستى سانت فيكتور ومريم المباركة The Blessed Mary فى أســوان ، وليس لدينا أية وسيلة نتعرف بهــا كيف تحــولت المعــابد النوبية الوثنية الى كنائس ، كما لا يمكننا تحديد التواريخ التى بنيت فيهــا الكنائس الأولى بالنوبة ، باستثناء كنيسة مريم التى يبدو أنها بنيت فى أبريم فى أواخر القرن السادس أو السنوات الأولى من القرن السابع للميلاد (٧٥) .

وعلى أية حال ، فان المسيحية سادت النوبة السفلى حوالى منتصف القرن السابع الميلادى ، بدليل أننا لم نعثر على قبور وثنية متأخرة عن ذلك ، ومن العوامل التى أدت الى انتشار المسيحية فى النوبة ، هجرة المسيحين اليها من الشمال من جهة ، واعادة التنظيم السياسى لممالك النوبة من جهة

---

(٧٤) Kir wan : Studies in the Later History of Nubia, p. 96

(٧٥) Ibid, p. 97-99.

أخرى(٧٦) . وبعد استقرار المسيحية فى بلاد النوبة نجد ثلاث ممالك هى(٧٧) :

١ ـــ النوبـــة : ويطلق عليها أحيانا المريس ، وكان حدها من أسوان الى كروسكو ، وعاصمتها فرس .

٢ ـــ المقـــرة : وهى تلى النوبة جنوبا ، وقد تسمى مملكة دنقلة ، وعاصمتها دنقلة . وكانت بلدة أبو حمد تقريبا حدها الجنوبى الذى يفصـــل بينها وبين مملكة علوة .

٣ ـــ علـــوة : وهى التى تلى المقرة جنوبا ، ويطلق عليها أيضـــا مملكة سوبا باسم العاصمة ، وكانت عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق .

وفيما بين عامى ٥٨٠ و ٦٥٢ م ، صارت مملكة النوبة ومملكة المقرة التى تحدها جنوبا ، مندمجتين فى مملكة واحدة ، عاصمتها دنقلة(٧٨) .

وعرفت المنطقة المتاخمة لحدود مصر الجنوبية باسم المريس (٧٩) . وتبدأ تلك المنطقة عند قرية القصر التى سبق ذكرها كحد شمالى لمملكة النوبة المسيحية (٨٠) وينتهى حدها الجنوبى عند قرية المقس الأعلى فى الشـــلال الثانى ، ولايستطيع أحد عبور تلك القرية الا بعد تفتيش واعطاءه تصريحا بالمرور ، حتى « ولو كان ملك الملوك ، ومن جار وخالف قتل » (٨١) .

ولم تكن العلاقة بين مصر الاسلامية ومملكة النوبة المسيحية سليمة على طول الخط ، بل تخللتها حروب ومناوشات ، وتمثلت تلك الحروب والمناوشات فى شكل هجمات وغارات على حـــدود مصر الجنوبية . ومن البديهى أن

---

(٧٦) Ibid, p. 104.

(٧٧) المقريزى : البيان والاعراب ، ص ٢٥ م

(٧٨) Kirwan : Studies in the Later Hist. of Nubia, p. 105.

(٧٩) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ص ١٨ .

(٨٠) أنظر المقدمة .

(٨١) أبو صالح الأرمنى : تاريخه ورقة ٩٥ أ ـــ ٩٥ ب .

أسوان بحكم موقعها الجغرافى فى نهاية الحد الجنوبى لمصر ، كانت تمثل خط الدفاع الذى حاول النوبيون اختراقه كلما تأزمت العلاقة بينهم وبين مصر .

وفى دراستنا لاغارات مملكة النوبة المسيحية على اسوان ، لن نتناول أحداث العلاقة بين مصر والنوبة فى العصور الوسطى تفصيليا ، لأن هـــذا يخرج بنا عن اطار دراستنا ، ولكننا سنمس تلك العلاقة مسا خفيفا عنـــدما تكون أسوان محورها ومدارها .

والجدير بالذكر أن المعلومات التى وصلتنا من المؤرخين العـــرب عن أول صدام حدث بين المسلمين والنوبيين مضطربة الى حــدما . فعندما تم فتح العرب لمصر ، بعث عمرو بن العاص نافع بن عبد القيس الفهرى على رأس فرقة من الخيالة بهدف غزو النوبة ، ويبدو ان تلك الغزوة لم تحمــل معها فكرة الفتح التام ، لأن الفرقة رجعت من حيث أتت بعد أن حلت بهـــا الهزيمة على أيدى النوبيين (٨٢) . واعقب ذلك أن أرسل عمرو حملة اخرى بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح لغزو النوبة عام ٢٠/٢١ هـ ، الا أن غزوها استعصى عليه أيضا (٨٣) . وازاء ذلك النجاح الذى حققه النوبيون فى صد غزوات المسلمين عن أراضيهم ، فانهم بادروا بشن اغارات متقطعة على أسوان لقربها منهم (٨٤) ، الحقت بها الضرر . واستمر النوبيون يشنون الاغارات المتقطعة على اسوان بضع سنوات ، حتى اختير عثمان بن عفان خليفة للمسلمين (٨٥) فعين عبـــد الله بن أبى سرح واليا على مصر بدلا من عمرو بن العاص . ويبدو أن ابن أبى سرح كان عازما على وضع حد لاغارات النوبيين على اسوان . فسار على رأس حملة مجهزة الى بـــلاد النوبة ، وأوغل بجنده جنوبا حتى وصل الى دنقلة عاصمة البـــلاد ، مفرض عليها

---

(٨٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٧ — ص ٢٢٨ ،
Trimingham : Islam in the Sudan, p. 60

(٨٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ١٩٦ .
Trimingham : Op. Cit., p. 60.

(٨٤)

(٨٥) بتلـــر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٧٥ .

حصارا عنيفا ، واشتد القتال ، الأمر الذى أجبر ملك النوبة على طلب أيقاف القتال ، وانتهت الحملة بمعاهدة عقدت بين مصر والنوبة عام ٣١هـ عرفت « بالبقط » (٨٦) . وقد جاء بند في تلك المعاهدة فحواه الا يقوم المسلمون بغزو النوبة ، ولا يغزو اهل النوبة المسلمين ، اى انها معاهدة أمن وسلام بين الطرفين (٨٧) . وبعبارة أخرى يمكننا أن نفسر تلك المعاهدة بأنها معاهدة حسن جوار يحقق للمسلمين الاطمئنان على سلامة حدودهم من ناحية الجنوب (٨٨) .

وهنا يثار تساؤل ، هل تمسك ملوك النوبة بحرفية معاهدة البقط ، ونفذوا بندها الذى تضمن عدم الاعتداء علي حدود مصر الجنوبية ؟ الواقع انهم نقضوا تلك المعاهدة ، وامتنعوا احيانا عن الالتزام بما جاء بها من شروط(٨٦) . غير أنهم كانوا يختارون الوقت المناسب لنقضها . فما أن يشعروا بضعف الحكومة المركزية فى مصر ، حتى يبادروا الى اغتنام الفرصة ، ويسددوا ضرباتهم الى اسوان بوصفها آخر حدود مصر الجنوبية . ونلمس ذلك عندما احس النوبيون باضطراب الأحوال فى أواخر عهد الدولة الأخشيدية . فأغار ملك النوبة على أسوان عام ٣٤٤ هـ (٩٥٦ م) ، وقتل جمعا من المسلمين

---

(٨٦) البقط كما أورد المقريزى هو ما يقبض من سبى النوبة في كل عام ، ويحمل الى مصر ضريبة عليهم ، وان كانت هذه الكلمة عربية ؟ فهى أما من قولهم بقط أى نبذ من مرعي ، فيكون معناها نبذة من المال ، والبقط من سقط الثمر . وكان البقط يؤخذ من النوبة في قرية على بعد خمسة أميال جنوبى اسوان كل عام (الخطط ج ١ ص ٢٩٨ – ص ١٩٩)

ويجتهد الباحثون في أصل لفظ البقط ، فمنهم من يرجعها الى أصل لاتينى Pactum أى الاتفاق بين طرفين متساويين ، ومنهم من يرجع الكلمة الى اصل مصرى قديم وهو باك ومعناه الضريبة التى تدفع عينا ؛

ومعاهدة البقط تقضى ان يدفع ملك النوبة الى مصر ٣٦٠ رأسا من الرقيق كل عام ، ويدفع للوالى بمصر أربعين رأسا ، ووالى اسوان الذى يتولى تسليم الرقيق عشرين رأسا ورسول الوالى الذى يحضر الى اسوان خمسة ، وفي نظير ذلك يمد المسلمون بالنوبة بألف اردب من الغلال وحبوبا أخرى كالعدس والاقمشة . (أنظر : المسعودى مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢١ – ص ٢٢) ، Ency. of Islam. Art Bakt.

(٨٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٣٥٢ .

(٨٨) مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ص ١١٥ .

بها ، فخرج اليه محمد بن عبد الله الخازن ـ من قبل أونوجور بن الأخشيد ـ على رأس حملة برية وبحرية ، التقت بالنوبيين فى معركة على أرض أسوان ، وتمكنت من هزيمتهم ، وأرسل الخازن بعض أسرى النوبيين الى مصر حيث ضربت أعناقهم ، ولم يكتف بذلك ، بل طارد فلولهم فى بلاد النوبة حتى وصل ابريم ، ثم عاد الى مصر فى منتصف جمادى الأولى عام ٣٤٥ هـ (٩٥٧ م) ومعه مائة وخمسون أسيرا وعدد من رءوس القتلى (٩٠) . وبعد وفاة انوجور فى ٧ ذى القعدة عام ٣٤٧ هـ (يناير سنة ٩٥٩ م) ، أقام كافور أخاه على ابن الأخشيد أبا الحسن واليا على مصر فى ١٣ ذى القعدة من نفس العام ، وان كانت السلطة الحقيقية ظلت فى أيدى كافور . واذا القينا نظرة على أحوال مصر الداخلية والخارجية الفيناها قد زادت سوءا على سوء ، فبلاد الشام قد نكبت بغزو القرامطة ، فضلا عن وقوع الزلازل بمصر ، وتزايد الغلاء بها (٩١) ولم يتهاون النوبيون فى اغتنام الفرصة ، فعاودوا الاغارة على أسوان للمرة الثانية عام ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) واستطاعوا اقتحامها ، وقتل وسبى الكثير من أهلها ، ونهب قراها ، وليت الأمر وقف عند ذلك الحد ، بل استطاع ملك النوبة ان يزحف بقواته حتى وصل الى أخميم (٩٢) . وكان فى زحفه يقتل الأبرياء ، وينهب الأهالى ، ويحرق المدن والقرى والنواحى ، الأمر الذى أدى الى انتشار الفوضى فى أقليم الصعيد (٩٣) . واذا كان من واجب الدولة الأخشيدية أن ترد عدوان النوبة ، الا أن المصادر لم تفسر لنا الاجراء الذى اتخذته . ومن المحتمل أن الدولة الأخشيدية وقفت فى وجه

---

(٨٩) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ص ٢٨٤ .

(٩٠) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٧ ، مكى شبيكة : السودان عبر القرون ص ٣٢ ، سيدة كاشف : مصر في عصر الأخشيديين ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

(٩١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ٣٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .

(٩٢) أخميم احد مراكز محافظة سوهاج ، على الضفة الشرقية (النجوم الزاهرة جـ ٥ تعليق محمد رمزى) .

(٩٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ٣٢٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٢٦ .

ملك النوبة عند أخميم ، وأبطلت زحفه شمالا ، فاضطر للتقهقر جنوباً وراء حدود مصر .

ولما كان النوبيون قد أغاروا مرتين على أسوان ابان الدولة الأخشيدية ، الا أنهم لم يتعرضوا لها طوال العصر الفاطمى . ومن المشاهد ان الدولة الفاطمية حققت صلة من حسن الجوار والمسالمة بينها وبين النوبة المسيحية (٩٤) . ومما يلفت النظر أن تلك الدولة بالرغم مما أصابها من ضعف وذبول فى أواخر عهدها ، فان المصادر التى أطلعنا عليها لم ترد فيها اشارة صريحة لمحاولة النوبيين الاغارة على أسوان . ربما يرجع السبب فى ذلك الى أن مدينة أسوان كانت محصنة جداً فى عهد الفاطميين ، بحيث لا يستطيع احد أن يقصدها من النوبة فضلا عن تواجد جيش دائم بها للمحافظة عليها (٩٥) . وربما يرجع السبب أيضا الى قبيلة ربيعة — التى عرفت بقبيلة الكنز — التى استقرت فى أسوان فى القرن التاسع الميلادى ، وانتعش نفوذها فى القرن العاشر ، اد بفضلها ازدادت قوة العرب فى أسوان . ويبدو ان الصلة بين بنى الكنز فى أسوان وملك النوبة المسيحى ، كان يسودها حسن التفاهم . ويدل على ذلك أن كنز الدولة هو الذى استطاع القبض على الثائر أبى ركوة عندما توغل فى بلاد النوبة ، فضلا عن أن ملك النوبة قد غادر عاصمة ملكه ، وتوجه الى أسوان عام ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) لزيارة بعض كنائسها (٩٦) .

والواقع أن النوبة فى نهاية القرن العاشر الميلادى شهدت تغيرا ملحوظا ، فالاسلام غدا منتشرا فى منطقة المريس ، واضحى العرب الذين هاجروا الى تلك المنطقة مستقلين من الناحية العملية ، ومن السمات المميزة أيضا لنهاية ذلك القرن ازدياد الهجرات العربية الى جنوب مصر وشمال

---

(٩٤) مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ص ١٤٣ .
(٩٥) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٧١ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٧ .
(٩٦) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٢٦ .

النوبة . فقد صارت أسوان ومنطقة المريس محط ترحال الهجرات العربية الآتية من مصر بعيدا عن السلطة الحاكمة فيها (٩٧) . وقد افادت تلك القبائل فى تعزيز قوة الدفاع الموجودة فى اسوان .

وقد فكر صلاح الدين الأيوبى فى تأمين الحدود الجنوبية لمصر حتى يمكنه التفرغ للجهاد ضد الصليبيين . فبادر بارسال حملتين الى أسوان : الأولى بقيادة الشجاع البعلبكى لفك الحصار الذى فرضه الجند السودان على أسوان عام ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) ، ومن المحتمل أن النوبيين شـــاركوا السودانيين فى ذلك الحصار ، فقد جاء ذكرهم فى المصادر « العبيد من بلاد النوبة » ، وقبل أن يصل الشجاع الى أسوان أسرع السودانيون والنوبيون بفك الحصار بعد أن أتلفوا أرضها ، فسار الشجاع فى اثرهم ، ودارت بينه وبينهم حرب « قتل فيها من الفريقين عالم عظيم » ، أى لم يكن غالب ولا مغلوب ، ثم رجع الشجاع الى القاهرة ، وأخبر صلاح الدين « بفعال العبيد وتمكنهم من بلاد الصعيد » (٩٨) . ويبدو أن صلاح الدين اهتم بالتقرير الذى وضعه الشجاع أمامه عن السودانيين فى النوبة ، فقد أدرك أنهم سيكونون مصدر متاعب جمة له اذا لم يقض عليهم . فأسرع بارسال أخيه شمس الدولة تورانشاه على رأس جيش كبير الى بلاد النوبة عام ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ، ثم أصدر أوامره بشحن « مراكب كثيرة فى البحر بالرجال والميره » تعزيزا للجيش البرى ، وتمكن تورانشاه من التوغل فى بلاد النوبة الى أن وصل أبريم ، فحاصر قلعتها ثلاثة أيام ، وغنم جميع ما كان بداخلها من مال وتموين ، وخلص جماعة من الأسرى (٩٩) يبدو أنهم كانوا من أهالى اسوان اسرهم الجنـــد السودان ابان فرضهم الحصـــار عليها . ومهما قيل من أن حملة

---

(٩٧) MacMichael : The Coming of the Arabs to the Sudan., p. 53.

(٩٨) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٠٨ ،
Wiet : Precis de l'Histoire L'Egypte, Vol. 2. p. 219.

(٩٩) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٠٦ ،
Wie : Op. Cit p. 219.

تورانشاه الى النوبة كانت تستهدف البحث عن مأوى لصلاح الدين وأسرته فى حالة دخول نور الدين محمود مصر وخلفه صلاح الدين ، فان الحقيقة التى لا يتمكن للباحث اغفالها أن حملة تورانشاه كان من بين أهدافها حماية حدود مصر الجنوبية من غارات النوبيين .

ومنذ حملة تورانشاه على النوبة حتى زوال الدولة الأيوبية ، لم تتعرض اسوان لأى اعتداء من جانب النوبيين ، الى أن قامت دولة المماليك البحرية فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، فأخذت الهجمات على اسوان فى عهد السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) تأخذ طابعا عنيفا مغايرا لما قبله . واذا كان عصر المماليك البحرية قد شهد حلقة من أنشط حلقات الحروب الصليبية ، فان ذلك الطابع زاد من مظاهر العداء بين مصر الاسلامية ومملكة النوبة المسيحية ، اذ انتهز داود ملك النوبة فرصة انشغال السلطان الظاهر بيبرس بحروبه فى أرمينيا الصغرى عام ١٢٧٢ (١٠٠) ، واغار على ثغر عيذاب ، فنهب متاجره ، وقتل عددا من اهله بما فيهم القاضى والوالى ثم تلى ذلك بالاغارة على أسوان ، فنهبها وخرب سواقيها ، وأسر عددا من أهلها ، وازاء ذلك توجه والى قوص على رأس جيش لمحاربة النوبيين ، فتمكن من صدهم عن اسوان ، وأخذ يطاردهم الى أن وصل بالقرب من دنقلة ، فقتل واسر وعاد الى ولايته (١٠١) .

وقد ادرك الظاهر بيبرس هذا الخطر الصليبى الكامن فى الجنوب ، وادرك احتمال طعن النوبيين لمصر من الخلف أثناء انشغالها بتصفية الجيوب الصليبية من الشام (١٠٢) . لذلك ثار بيبرس على اعتداء النوبة على اسوان وعيذاب ، ذلك الاعتداء الذى هدد دولته فى أعظم موارد ثروتها وقوتها وهى

---

(١٠٠) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١١٨ ، ص ١١٩ .

(١٠١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٠٢ ، السلوك : ج ١ ص ٦٠٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور حوادث عام ٦٧٤ هـ .

(١٠٢) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

التجارة ، فأسوان وعيذاب كانتا من أهم الثغور المصرية فى ذلك الوقت ، اذ تأتى عن طريقهما بضائع الشرق ووسط أفريقية (١٠٣) وبات بيبرس يترقب الفرصة ، الى أن أتيحت له أواخر عام ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) عندما فر الى مصر شكندة ملك النوبة المخلوع ، يشكو الى بيبرس ما فعله به ابن أخيه داود الذى لم يكتف باقصائه عن العرش ، بل اســاء اليه دون أن يحترم أواصر القربى (١٠٤) لذلك أسرع بيبرس بتجهيز حملة ضخمة بالغ فى الاهتمام بها ، فزودها بخيرة المقاتلين ، فضلا عن فرق الزراقين ورماة النفط ورجال الحراريق ، والزردخاناه ، وفى يناير ١٢٧٦ م تحركت الحملة قاصدة النوبة وصحبتها شــكندة ، فأغارت على قلعة الدو (الدر) ثم واصلت السير الى جزائر ميكائيل عند شلال وادى حلفا ، فأجبرت الملك داود على الفرار بعد أن وقع معظم رجاله قتلى وأسرى ، وعين المماليك شكندة ملكا على النوبة بدلا من داود والبس التاج (١٠٥) .

وانتهت تلك الحملة الناجحة ، بعقد اتفاقية جديدة تنظم العلاقات بين مصر والنوبة . وكان من أهم شروطها تنفيذ اتفاقية البقط القديمة ، وأن تكون بلاد العلى وبلاد الجبل (الجزء الشمالى من بلاد النوبة) ملكا للسلطان الظاهر بيبرس لقربها من أسوان ، كما تم اطلاق سراح الأسرى من أهل عيذاب وأسوان الذين سخرهم النوبيون فى بناء كنيسة (١٠٦) .

ولم تتحرك الحملة عائدة من بلاد النوبة الا بعــد ان أخذت المواثيق والعهود على شكندة بطاعة بيبرس . وقــد أورد النويرى (١٠٧) نص اليمين

---

(١٠٣) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١١٩ .

(١٠٤) النويــرى : نهاية الارب ص ٢٨ ورقــة ١٠٨ ، مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٣٩٨ .

(١٠٥) النويــرى : نهاية الارب جـ ٨ ورقــة ١٠٨ ، مفضــل بن أبى الفضــائل النهج السديد ص ٣٩٨ — ص ٤٠٠ .

(١٠٦) النويــرى : نهاية الارب جـ ٢٨ ورقــة ١٠٩ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص٢٠١ ، ص ٦٢١ ، ابن بهادر : فتوح النصر جـ ١ ورقة ١٣٠ .

(١٠٧) نهاية الارب : جـ ٢٨ ورقــة ١٠٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٢٩٠ .

التى حلف عليها ملك النوبة الجديد بدنقلة ، وقــد جاء فيه : « والله والله والله ، وحــق الثالوث المقدس ، والانجيــل الطاهر ، والسيدة الطاهرة العذراء ... اننى اخلصت نيتى وطويتى من وقتى هــذا وساعتى هــذه للسلطان الملك الظاهر بيبرس ركن الدنيا والدين ، وانى ابذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ... » . وقــد حرص بيبرس على اشرافه على بلاد النوبة ، اذ عندما نظم طرق البريد انشأ طريقا هاما يبدأ من قوص ثم يتفرع الى شعبتين : احداهما الى أسوان ثم النوبة . والثانية الى عيذاب على ساحل البحر الأحمر (١٠٨) .

ومن المحتمل أن الظاهر بيبرس لم يطمئن الى ملك النوبة الجــديد شكندة ، فكلف أحد الباطنية الفدائية بالتوجه الى النوبة سرا ، ومراقبة تصرفات شكندة خشية أن يغدر بالعهد الذى قطعه لبيبرس ، ويفعل بأسوان وعيذاب مثلما فعل داود من قبل ، وكان للباطنى هذا زميل رافقه فى بعض سفرياته الى النوبة ، فانقض ذلك الزميل على شكندة وقتله (١٠٩) .

وعلى أية حال فان حملة السلطان الظاهر بيبرس على النوبة حققت ما لم تستطع حملة اخرى ان تحققه فى تلك البلاد منــذ الفتح العربى لمصر . فقد بسطت نفوذ مصر السياسى على بلاد النوبة التى لم تعد تشكل خطرا على حدود مصر الجنوبية الممثلة فى اسوان . واذا كانت العلاقة بين مصر والنوبة لم تقف عند ذلك الحد فانها أخذت شكلا جديدا . فقد توقفت اغارات النوبيين على مصر ، وصارت سلطنة المماليك بعد بيبرس تتدخل فى شئون النوبة الداخلية . وانتهى الأمر فى عصر الناصر محمد بن قلاوون بسقوط ممالك النوبة المسيحية فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، واعتلاء عرشها ملك مسلم هو كنز الدولة . وقــد مر بنا من قبل الدور الذى

---

(١٠٨) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١٢٣ ، العصر المماليكى ص ٨١ .

(١٠٩) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ١٥٤ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٨٢ .

لعبه بنو الكنز بعد ان غادروا اسوان ـ فى عهد صلاح الدين الأيوبى ـ الى بلاد النوبة (١١٠) .

(هـ) اغارات البجة على اسوان :

لم تكن مواطن البجة القديمة تشغل نفس المساحة التى تحتلها فى الوقت الحاضر ، فهى تمتد من البحر الأحمر شرقا الى نهر عطبرة ثم النيل الاكبر غربا ، ومن المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية فى الجنوب الى نهاية محافظة أسوان شمالا (١١١) . وتتميز مناطق البجة بتنوع تضاريسها تنوعا بينا ، اذ توجد بها السلاسل الجبلية الممتدة من الجنوب الى الشمال موازية وتكاد ان تلتصق بالبحر الأحمر ، وتنحدر الى الشرق تاركة بينها وبين البحر شريطا ساحليا ضيقا يزداد اتساعا فى الأجزاء الداخلة فى حدود مصر ، ويلى الجبال ناحية الغرب انحدار فجائى تتخلله بعض الأودية مثل العلاقى ورافده تبقية ، أما المناخ فيغلب عليه قلة المطر ، وتسوده الطبيعة الصحراوية فى الشمال (١١٢) .

وكلمة البجة محرفة من كلمة المجا المشتقة من كلمة الماجوى ، وهى تعنى فى الفرعونية الحارس أو المحارب ، وقد أطلق المصريون القدماء على القبائل الحامية (البجة) التى تعيش بين النيل والبحر الأحمر اسم المازوى أو الماجوى (١١٣) . والبجة شعوب عريقة فى القدم ، فقد اثبت سليجمان ان البجة وقدماء المصريين ـ مرحلة ما قبل التاريخ ـ ينحدرون من سلالة واحدة أو سلالات متقاربة ، ودلل على ذلك بمقارنة الجماجم ، فوجد تشابها تاما بين سحنة المصريين القدماء وسحنة البجا الذين يعيشون فى أوطانهم الحاليه ،

(١١٠) أنظر ص ٣٧ ـ ص ٤٠ .
(١١١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ص ٢٤٦ .
(١١٢) نفس المرجع : ص ٢٤٦ ـ ٢٤٩ .
(١١٣) سعاد ماهر : محافظات الجمهورية ص ١٧٩ ، دائرة المعارف الاسلامية ، مادة البجة .

فالشعبان اذا ينتميان الى أصل واحد ، وان كانت طبيعة البيئة قد سلكت بالمصريين طريقا ، وسلكت بالبجة طريقا آخر (١١٤) .

واذا كانت الحدود الشمالية لبلاد البجة تتاخم الحدود الجنوبية لمصر فى العصور الوسطى ، الا أن تلك الحدود لم تكن حدودا سياسية فاصلة بين البلدين . وبمعنى آخر فهى حدود متداخلة متذبذبة . وقد تعرضت المناطق الشمالية من بلاد البجة للمؤثرات الدينية الوافدة من مصر . كما ظل البجة متمسكين بعبادة ايزيس التى اقتبسوها عن المصريين القدماء ، واستمروا حتى القرن السادس الميلادى يقاومون كل محاولة تثنيهم عن وثنيتهم ، ولم يكن بد من أن تنتصر الديانة المسيحية فى نهاية الأمر ، فأخذت تنتشر فى القرن السادس بين شعوب البجة عن طريق بلاد النوبة ، فضلا من الشرق عن طريق الموانىء التى يجتمع فيها التجار والعمال الوافدين من مصر مع البجة ، ونستطيع القول أن جميع البجة الذين اتصلوا بمصر اتصالات مباشرة أو غير مباشرة مع مصر والنوبة والحبشة ، قد اعتنقوا الديانة المسيحية تدريجيا ؛ أما الذين عاشوا فى جهات منعزلة فبقوا على وثنيتهم (١١٥) .

والمشاهد أن ولاة الأمور فى مصر — عقب الفتح العربى لها مباشرة — لم يهتموا بارسال حملات الى مواطن البجة ، لتأمين حدود مصر الجنوبية الشرقية مثلما فعلوا مع النوبة . وربما يرجع السبب فى ذلك الى عدم وجود صلة عدائية مبكرة بين المسلمين والبجة فى السنوات الأولى التى تلت فتح مصر ، فضلا عن انشغالهم بتأمين حدود مصر الجنوبية عند أسوان من غزوات مملكة النوبة المسيحية .

ومما يؤيد ذلك ، أن العرب عندما شاهدوا البجة لأول مرة بعد عشرة

---

(١١٤) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ص ٢٥٦ .

(١١٥) محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانة وقبائله ص ٣٤ .

سنوات من فتح مصر لم يكترثوا بهم ، ولم يتعرضوا لهم . من ذلك ما رواه ابن عبد الحكم ((١١٦)) أن القائد عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد غزوه للنوبة عام ٣١ هـ (٦٥٢ م) هم بالرجوع الى مصر ، وفى طريق عودته شاهد حشدا من البجة على شاطىء النيل ، فسأل عنهم ، ولما أخبر بمكانهم هان عليه أمرهم وتركهم وشأنهم .

وأول اغارة شنها البجة على حدود مصر الجنوبية عند أسوان ، حدثت عام ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) ، ومن المحتمل أن المسلمين صدوا تلك الاغارة ، بدلالة الاتفاقية التى عقدها عبيد الله بن الحبحاب السلولى مع البجة ، بمقتضاها يدفع البجة ثلاثمائة جمل صغير ، وأن يجتازوا الريف تجارا غير مقيمين ، والا يقتلوا مسلما أو ذميا ، والا يؤوا عبيد المسلمين ، ويظل وكيلهم فى الريف رهينة عند المسلمين (١١٧) ، ولا ندرى ما هى الأسباب التى حرضت البجة ودفعتهم على الاغارة على أسوان . ويخيل الينا أن تلك الاغارة كان هدفها السلب والنهب . غير أننا نرجح أن السبب يرجع الى اختلاف فى المعاملات التجارية بين البجة وبعض أهالى أسوان ، أدى فى النهاية الى أن يقوم البجة بالاغارة على أسوان . فمن المعروف أن البجة فى المناطق الشمالية المتاخمة لحدود مصر ، يتجهون بتجاراتهم الى أسوان لقربها منهم ، ولا تزال فروعهم من العبابدة والبشارية تتجه بتجارتها إلى تلك المدينة . وعلى اية حال ، فان تلك الاتفاقية ضمنت للمسلمين تأمين حدودهم الجنوبية المطلة على الصحراء الشرقية ، وفى الوقت نفسه تركت العلاقات التجارية حرة كما كانت من قبل (١١٨) .

بيد أنه لم يكد يمضى ما يزيد قليلا على قرن من الزمان على الاتفاقية التى عقدها عبيد الله بن الحبحاب مع البجة ، حتى عادوا الى شن الاغارات

---

(١١٦) فتوح مصر والمغرب ص ٢٥٥ .
(١١٧) نفس المرجع والمكان ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ١٩٤ .
(١١٨) مكى شبيكة : السودان عبر القرون ص ٢٦ .

على أسوان ، وعندما كثر ايذاؤهم للمسلمين رفع والى أسوان الخبر الى الخليفة العباسى المـــأمون عام ٢٣٢ هـ (٨٤١ م) ، فجرد اليهم حملة بقيادة عبد الله بن الجهم ، اشتبكت معهم فى عدة معارك انتهت بهزيمتهم ، وعقـــد ابن الجهم اتفاقية بينه وبين كنون عبد العظيم ملك البجة ، ولأهميتها نذكر منها الشروط الآتية (١١٩) :

١ ــ تعتبر بلاد البجة من حـــد أســـوان الى ما بين دهلك (مصوع) وباضع (جزيرة الريح) ملكا للخليفة ، وأن يكون كنون بن عبد العزيز رئيسهم هو وأهل بلده عبيدا لأمير المؤمنين .

٢ ــ أن يؤدى ملك البجة خراجا سنويا قدره مائة من الابل أو ثلاثمائة دينار لبيت المـــال .

٣ ــ أن يحترم البجة الاســـلام ، والا يعينوا أحـــدا على المسلمين ، والا يقتلوا مسلما أو ذميا حرا أو عبدا فى أرض البجة أو فى مصر أو النوبة .

٤ ــ على البجة تأمين حيـــاة المسلمين المجتازين لبلادهم للتجـــارة أو الاقامة .

٥ ــ اذا دخل البجة صعيد مصر مجتازين أو تجارا لايحملون سلاحا ، ولا يدخلون المدائن والقرى .

٦ ــ ألا يهدم البجة المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة (صنجة) وهجر .

٧ ــ أن يقدم كنون بن عبد العزيز ملك البجة كل التسهيلات لدخول عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة .

ومما يلفت النظر أن اتفاقية عبد الله بن الجهم مع البجة تختلف اختلافا

---

(١١٩) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٩٤ ــ ١٩٥ ، مكى شبيكة : السودان عبر القرون ، ص ٢٦ ــ ٢٧ .

واضحا عن اتفاقية البقط التى كتبها عبد الله بن سعد بن أبى سرح لملك النوبة. فالأولى ورد بها أن بلاد البجة من حد أسوان الى مصوع تابعة للدولة الاسلامية بدليل فرض الخراج ، كما أنها نصت على أن يلتزم ملك البجة بتقديم كافة التسهيلات للمسلمين المارين ببلاد البجة للتجارة أو المقيمين بها مع عدم التعرض لهم ، فضلا عن حفظ المساجد القائمة فعلا فى بلاد البجة وجمع صدقات من أسلم من البجة (١٢٠) . وبعبارة أخرى ، فان اتفاقية ابن الجهم مع البجة فرض فيها غالب شروطه على مغلوب والغالب هنا ابن الجهم . أما اتفاقية البقط ، فقد عامل فيها عبد الله بن سعد ملك النوبة معاملة الند للند ، أى لم يكن هناك غالب ولا مغلوب .

ويفهم من اتفاقية ابن الجهم مع البجة ، ان الاسلام شق طريقه الى بلاد البجة قبل بداية القرن الثالث الهجرى ، بدليل الشروط الواردة بها بمعاملة المسلمين معاملة طيبة ، واحترام عقيدتهم ، وعدم هدم المساجد التى ابتناها المسلمون بصنجة (١٢١) وهجر (الواقعة على نهر العطبرة) . والسؤال الذى يثار الآن : كيف تسرب الاسلام الى بلاد البجة ؟ الواقع أن جماعات من القبائل العربية التى جاءت مصر مع الفتح العربى وبعده ، نزحت الى جنوب مصر وتركزت فى أسوان ، ومن أسوان تدفق بعضها الى الصحراء الشرقية حيث استوطنت بلاد البجة . وليس من شك أن اندفاع تلك القبائل العربية من أسوان — ذات البيئة الحضارية — الى بلاد البجة المجدبة ، كان بفعل اغراء مناجم الذهب والزمرد فى العلاقى . ومن البديهى أنها سمعت عن تلك الثروات ابان تركزها فى أسوان التى تقع على مقربة من العلاقى ، فالمقريزى يقول عن معدن الذهب بالعلاقى : « واقرب العمارة اليه مدينة أسوان » (١٢٢) .

---

(١٢٠) مصطفى مسعد : البجة والعرب فى العصور الوسطى ص ٢٥ — ص ٢٦ .

(١٢١) يقول مونريت دى فيار ان صنجة هذه هى سنكات التى تقع حاليا على خط السكة الحديد بين بورسودان والعطبرة ، وكانت فيما مضى محطة لها اهميتها على مفترق طرق القوافل فى مختلف المناطق (الشاطر بصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل ، ص ٣٢) .

(١٢٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٦ .

ومن تلك القبائل ، قبيلة بلى التى وفدت الى مصر فى عهد عمر بن الخطاب ، فهى تعد من أكبر القبائل التى هاجرت اليها ، واستقرت فى الصحراء الممتدة بين النيل والبحر الأحمر ، أى فى شمال شرقى مناطق البجة(١٢٣) . وكذلك قبيلة جهينة التى جاءت مصر مع الفتح العربى ، انتشرت ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وهى المناطق التى يشغلها البجة (١٢٤) . كذلك عبر فريق من هوازن البحر الأحمر فى القرن السابع الميلادى عرفوا فيما بعد بالحلانقة ، اقاموا فى بلاد البجة ، ثم رحلوا لاقليم تاكة (كسلا) (١٢٥) .

وعنما سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ ، زحف العباسيون على مصر للقضاء على فلول بنى أمية ، الا ان الأخيرين هربوا الى بلاد البجة ، ولقوا مقاومة عنيفة من الأهالى هناك ، فتفرقوا يريدون ساحل البحر ، فضل بعضهم فى الطريق ، ومن الجائز أن البعض الآخر استقر فى ميناء الباضع (١٢٦). وقد دلت الكشوف الأثرية على وجود شواهد اسلامية وعلى مسجد فى صنجة (سنكات) توحى أنها طريق الفارين من بنى أمية (١٢٧) .

هذا بالاضافة الى أن تغيير الحكام فى مصر حين أصبحوا من غير العرب على عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢ م) ، دفع بعض القبائل العربية للهجرة الى بلاد البجة ، ولم يكن التغيير قاصرا على حكام مصر فحسب ، بل تأثر به عمال الأقاليم فى أرجائها أيضا ، بمعنى أنهم بعد أن كانوا من العرب صاروا من الأتراك . ويقول المقريزى(١٢٨) عن ولاة أسوان ابان عهد الخليفة المأمون العباسى : « وكان ولاة أسوان من العراق » . وازاء ذلك ، فلابد أن

---

(١٢٣)
(١٢٤) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب جـ ١ ص ١٠٥ .
(١٢٥) مكى شبيكة : السودان عبر القرون ص ٢٧ .
(١٢٦) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .
(١٢٧) مكى شبيكة : السودان ، ص ٢٧ .
(١٢٨) الخطط ، جـ ١ ص ١٩٤ .

القبائل العربية التى كانت موجودة فى أســوان رحل بعضها الى بلاد البجة فرارا من اضطهاد الولاة الأتراك .

وهكذا استمر تدفق القبائل العربية الى بلاد البجة منذ الفتح العربى لمصر حتى بداية القرن الثالث الهجرى . وليس من شــك أن تلك القبائل ، كان لها الفضل الأول فى اعتناق بعض قبائل البجة الاسلام .

ولم يداوم البجة على احترام الاتفاقية التى عقدها معهم عبد الله بن الجهم الا لأمد قصير ، اذ أنهم رفضوا أن يقاسمهم المسلمون كميات الذهب التى تستخرج من المناجم ، وامتنعوا عن اداء الضريبة التى سبق أن قررت عليهم . وقتلوا عددا من المسلمين العاملين فى مناجم الزمرد ، فهرب المسلمون خوفا على حياتهم ، ولم يكتف البجة بذلك ، بل شنوا الاغارات على حــدود مصر الجنوبية ووصلت اغاراتهم الى ادفو ثم اسنا(١٢٩) . ولمــا ازداد خطر البجة ، كتب عامل البريد على مصر الى الخليفة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ — ٨٦١ م) يخبره بما فعله البجة فى أقاصى الصعيد ، فبعث الخليفة قائده محمد بن عبد الله المعروف بالقمى لمحاربتهم ، كما أمر واليــه على مصر عنبسة بن اسحاق أن يمد له يد العون بالرجال والعتاد ، وسار القمى على رأس جيش ضخم ، فى الوقت الذى شحنت فيــه سبعة مراكب بالمؤن اللازمة لتموين الجيش قاصدة ميناء عيذاب (١٣٠) . وبعد أن وصل القمى الى أسوان ، انحدر جنوبا بشرق فوصل الى العلاقى حيث معادن الذهب ، وهناك انضم اليه المسلمون الذين كانوا يعملون فى المعادن ، فضلا عن كثير من المتطوعين ، فبلغ جيشه عشرين ألف مقاتل ، ثم واصل سيره لمواجهــة البجة فى حصونهم وقلاعهم بعيدا عن أرض المعــدن (١٣١) . وكانت خطــة (على بابا) ملك البجة أن يتجنب مواجهة القمى فى معركة فاصلة ، بل يعمل

---

(١٢٩) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٢٤١ هـ .
(١٣٠) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .
(١٣١) نفس المرجع ص ٣٧٨ .

على المراوغة بهدف اطالة مدة الحرب الى ان تنفذ مؤن المسلمين ، ويهلكهم الجوع والعطش فى تلك الفيافى الشاسعة ، ولكن القمى فوت عليه غرضه ، اذ ظلت المؤن تتوالى بالمراكب الى ميناء عيذاب ، وعند ذلك رأى على بابا أن لا مفر من مواجهة القمى ، فالتقيا فى معركة عنيفة دامية انجلت عن هزيمة البجة (١٣٢) . وعقب ذلك طلب على بابا الأمان من القمى ، فأجابه الأخير الى طلبـه بشرط أن يدفع الخراج المتأخر عليـه لمدة أربع سـنوات ، ولا يمنع المسلمين من العمل فى أرض المعدن ، فضلا عن أن يقوم بزيارة الى الخليفة فى بغداد ليطأ بساطه (١٣٣) ، تأكيدا للولاء والطاعة .

وعلى أثر ذلك ، فتح الباب على مصراعيه لدخول القبائل العربية بلاد البجة ، سعيا وراء بريق الذهب والأحجار الكريمة . وابتداء من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، نزحت جماعات من قبيلتى ربيعة وجهينة الى بلاد البجة ، واستقرت هناك ، وتمكنت ربيعة من فرض نفوذها على القبائل العربية الموجودة هناك بفضل تحالفها مع البجة ، واختلاطها بهم (١٣٤) .

وغدت بلاد البجة مأوى للمغامرين وطلاب الثروات ، بعـد أن سمعوا بكثرة الذهب بها ، فوفد اليهـا ابو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمرى عام ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) ، وبرفقته جماعات من ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب ، « فكثرت العمارة بهم ، حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة اليهم من أسوان ستين ألف راحلة ، غير العـير التى تحمل من القلزم الى عيذاب » (١٣٥) ويدل هـذا العـدد الضـخم من الرواحل على كثرة القبائل العربية التى نزحت الى أسوان . فلما قتل العمرى بسبب التنافس الشديد بين القبائل العربية ، تغلبت ربيعة على بلاد البجة وتمكنت من طرد من خالفها من

---

(١٣٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٢٤١ هـ ، الطبرى : تاريخ الأمم ص ٣٧٩ .
(١٣٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٢ .
(١٣٤) المقريزى : البيان والاعراب ص ٢٢١ .
(١٣٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٥ .

العرب ، ثم تصاهرت الى رؤساء البجة ، الأمر الذى ادى الى كف ضرر البجة عن المسلمين (١٣٦) .

ومنذ ذلك الوقت لم نعد نسمع فى المراجع المعاصرة عن أية غارة شنها البجة على حدود مصر الجنوبية ، وخاصة أسوان .

(د) دور أسوان فى الحركات المضادة للسلطة المركزية :

شهد الصعيد الأعلى وخاصة أقصاه ، نشاطا بارزا للحركات السياسية المناوئة للسلطة المركزية فى مصر زمن العصور الوسطى ، وتميزت أسوان بحكم موقعها فى آخر الحدود الجنوبية لمصر ، فضلا عن بعدها عن العاصمة ، تميزت بأنها كانت أحيانا مسرحا لتلك الأحداث . اذ لجأ اليها كثير من المغامرين أصحاب الشخصيات الطموحة القوية ، ينشدون تحقيق مطامعهم . ولم يكن القضاء على تلك الشخصيات سهلا ، بل كلف المال والرجال والجهد .

ولعل من اهم الثورات التى اشتعلت فى مصر العليا ، ثورة ابن الصوفى العلوى ، واسمه ابراهيم بن محمد بن يحيى من سلالة على بن أبى طالب ، خرج على أحمد بن طولون عام ٢٥٣ هـ (٨٦٧ م) فى أقصى الصعيد ، واستطاع الاستيلاء على اسنا فى ذى الحجة سنة ٢٥٥ هـ (أكتوبر ٨٦٨ م) ، فنهبها وقتل جمعا من اهلها ، ولما استفحل خطره . جرد اليه أحمد ابن طولون جيشا بقيادة (ازداد) تغلب عليه ابن الصوفى ، ومثل بقائده اشنع تمثيل (١٣٧) . ولم يتوان أحمد بن طولون ، فبادر بارسال جيش آخر بقيادة بهم بن الحسين ، التقى بابن الصوفى فى أخميم فى ربيع الأول عام ٢٥٦هـ (يناير — فبراير ٨٧٠ م) ، واستطاع بهم التغلب على ابن الصوفى ، فاضطر الى الفرار تاركا رجالة وجميع ما كان معه ، ومضى الى الواحات فى الصحراء

---

(١٣٦) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٨ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(١٣٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢١٢ — ٢١٣ .

الليبية حيث بقى بها ما يقرب من أربع سنوات (١٣٨) استطاع خلالها أن يجمع حوله أنصارا جددا . وظهر من جـديد بعـد أن استرد قوته ، وخرج الى الأشمونين (مركز ملوى بمحافظة المنيا) ، وازاء ذلك بعث اليه أحمـد بن طولون جيشا بقيادة أبى الغيث ، الا أن الأخير وجد ابن الصوفى قد يمم شطره صوب أسوان للقاء أبى عبد الرحمن العمرى (١٣٩) الذى زاد نفوذه فى منطقة اسوان وشمال النوبة ، ورأى فيه منافسا خطيرا له . وفى جنوب أسوان (شمال النوبة) التقى ابن الصوفى بالعمرى فى معركة عنيفة ، انتهت بهزيمة الأول هزيمة ساحقة ارتد على أثرها الى أسوان ، وهنالك عاث فسادا ، وقطع ثلاثمائة الف نخلة ، وما أن سمع أحمد بن طولون بذلك ، حتى أرسل مددا لبهم بن الحسين ، غير أن الصوفى غادر أسوان أثر خلاف بينه وبين أنصاره ، ودخل بلاد البجة الى أن وصل ميناء عيذاب على البحر الأحمر ، ومنها الى مكة (١٤٠) .

أما ثورة العمرى التى اقترنت بثورة ابن الصوفى ، فانها كانت أشـد عنفا منها ، اذ انها عرضت دولة أحمد بن طولون لخطر شديد . والعمرى هذا من سلالة عمر بن الخطاب ، واسمه عبد الله بن عبد الحميد بن عبد العزيز ، وكنيته ابو عبد الرحمن العمرى ، ولد بالمدينة المنورة ونشأ بها ، وأتى الى مصر وسمع من شيوخها ، ثم غادرها الى القيروان حيث أمضى شطرا من حياته ، ثم عاد اليها عام ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) بعد أن غدا عالمـا فقيها ، وابان وجوده بمصر، تناهى الى سمعه خبر المعدن ببلاد البجة ، فاستهواه وسار الى أسوان سـعيا وراءه ، وفى أسـوان استطاع أن يجمع حوله لفيفا من الانصار ، فضلا عن العبيد التى اشتراها لتعمل فى استخراج المعادن ، وتلى

---

(١٣٨) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢١٣ ،
Zaki Hassan : Les Tulunides, pp. 55-56.

(١٣٩) الكندى : الولاة والقضاة، ص ٢١٤ ، ابن الأثير : الكامل حوادث عام ٢٥٩ هـ .

(١٤٠) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢١٤ ،
Zaki Hassan : Op. Cit., p. 56.

ذلك أن نزل على حى من مضر بأرض المعدن (١٤١) . غير أنه فارق مضر على أثر نزاع شب بينهما وبين ربيعة ، ومضى لمعـــدن الشنكة ، الذى يظن أنه بالقرب من أم نباردى أو وادى هرقليب (١٤٢) . وعند ذلك المعدن لم يجـــد العمرى ماء ، فورد النيل ، ولكن النوبيين اعترضوه ، الأمر الذى دفعه الى محاربتهم عند شنقير (بين أبى حمد) ، فتغلب عليهم ، وسبى منهم الكثير « وكثر السبى عنـــد أصحابه ، حتى أن احـــدهم كان يحلق رأسه ، فيعطى المزين رأسا » (١٤٣) . وعلا شأن العمرى ، وازداد نفوذه ، وتضخمت ثروته بدليل أن القوافل العديدة أخذت تغدو اليه من تجار أســـوان محملة بالمواد التموينية (١٤٤) . ولم يلبث العمرى أن دخل فى حروب طويلة مع النوبيين أدت الى هزيمته ، فأثرت تلك الهزيمة على موقفه من حلفائه العرب ، فقد حدث خلاف بين الشاميين — وهم من سعد العشيرة من أنصار العمرى — وبين قيس عيلان ، فاتهم الشاميون العمرى ظلما أنه انحاز لقيس (١٤٥) . وانتهى ملك النوبة فرصة ذلك الخلاف ، فراسل الشاميين يدعوهم اليـــه ويمنيهم فاستجابوا له ، واتجهوا اليه ، فأقطعهم دون الجنادل الأولى من منطقـــة المريس من ناحية يقال لها ديدان (لعلها أدندان) وأدوى (على مقربة من بلدة بلانة) وما يليها (١٤٦) . وخاف العمرى من تحالف الشاميين مع ملك النوبة ، وسار الى معدن آخر ، وأرسل للشاميين يدعوهم للصلح ، فأقبلوا اليه ، ولكنه انقض عليهم غدرا ، وقتل منهم الف وخمسمائة ، أما من بقى حى فقطع أيديهم وأرجلهم وتركهم حتى ماتوا ! واحتل منطقـــة من المريس أثار ملك النوبة ، فسار اليه على راس جيش ضخم تمكن من هزيمة العمرى ، فى

---

(١٤١) المقريزى : المقفى ص ٤ — ص ٥ ،
Wiet : Precis de l' Histoire d' Egypte, Vol. 2. p. 158.

(١٤٢) المقريزى : المقفى ص ٥ ، يوسف فضل حسن : المعـــالم الرئيسية في الهجرة العربية الى السودان ص ١١٦ .

(١٤٣) المقريزى : المقفى ص ٦ — ص ٧ .

(١٤٤) المقريزى : المقفى — ص ٧ — ص ٨ .

(١٤٥) المقريزى : المقفى ص ٨ — ص ١٣ ، يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية الهجرة العربية ص ١١٦ .

(١٤٦) المقريزى : المقفى ص ١٣ .

كان من العمرى الا أن فر من أمامه ، واتجه شمالا حتى قرب من أســوان ، وعسكر على مقربة من قرية يقال لها (أرطلما) على مرحلة من أسوأن(١٤٧) .

وقلق ابن طولون من جراء استفحال نشاط العمرى فى أســوان وبلاد النوبة والبجة ، وخشى أن يطمع العمرى فى مصر ، فجرد اليه جيشــا بقيادة شعبة بن حركام البابكى . ولما وصل الجيش الى أسوان أراد قائده أن يستغل فرصة انشغال العمرى مع النوبيين فينقض عليه ، ولكن العمرى احتج اليــه بأنه غير ثائر ، وقال له أن ما يعلمه ابن طولون عنه لا أساس له من الصحة ، وانما هى مجرد شكوك ، وأضاف أنه لم يؤذ مسلم قط ، وانما خرج لمحاربة أعداء الاسلام وطلب العمرى الى القائد أن يتمهل ريثما يكتب الى ابن طولون شارحا له هدفه وحقيقة أمره ، فان قبل عذره وتركه حرا كان بها ، والا فعليه بتنفيذ أوامره بالقتال ، ولكن قائد الجيش لم يلتفت الى كلام العمرى ، ودار بينهما قتال مرير ، وعند ذلك اضطر العمرى الى القتال فى جبهتين : فى الشمال ضد الطولونيين ، وفى الجنوب ضد النوبيين ، ومع أن الجيش الطولونى كان أكثر عددا ، الا ان العمرى أوقع به هزيمة شنيعة (١٤٨) .

وعقب الانتصار الذى حققه العمرى على جيش ابن طولون فى أسوان ، تحرك شمالا الى أدفو ، ومنها شرقا الى أرض المعدن عام ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) ، وهنالك بسط سيطرته على قبائل جهينة وربيعة وسعد العشيرة ، فعظم نفوذه من جديد ، واتسعت سلطته حتى قيل أن ستين ألف جمل كانت تعمل فى حمل المؤن من أسوان لحلفائه فى بلاد البجة ، بخــلاف العير التى تجىء من ميناء عيذاب (١٤٩) .

---

(١٤٧) المرجع السابق ص ١٤ .

(١٤٨) المقريــزى : المقفى ص ١٤ — ص ١٥ ، ســيدة كاشف : أحمــد بن طولون ص ٧٤ — ص ٧٥ .

(١٤٩) المقريزى : المقفى ص ١٦ ، يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية فى الهجــرة العربية ص ١١٦ .

وفكر احمد بن طولون فى الانتقام من العمرى ، ولكنه آثر السلامة بعد أن كتب له العمرى «أنه فى مائة ألف أو يزيدون»، ومن حسن حظ ابن طولون أن الحلف الذى كونه العمرى فى بلاد البجة لم يدم طويلا ، فقد شب نزاع بين القبائل العربية (١٥٠) ، وسببه أن ابراهيم المخزومى — اخو العمرى من أمه — قتلته جماعة من البجة ، فغضب العمرى ، وكتب الى حليفتهم ربيعة يسألها الانصاف من البجة أو التخلية بينه وبينهم ، ولكنهم ردوه فى الحالتين ، وتبع ذلك أن تخلت قبائل مضر وبنى هلال وبنى تميم عن العمرى ، فلم يبق معه الا القليل من الأنصار ، واستطاع العمرى مع جماعة من اتباعه أن يتغلب عليهم فى موضعين يقال لهما ميزح وبكيا ، غير أنه لم يعش طويلا اذ قتله غلامان من مضر غيلة ، وحملت رأسه الى ابن طولون (١٥١) .

وهكذا انتهت حياة ذلك الثائر المغامر ، الذى هدد دولة أحمد بن طولون، وكاد أن يزعزع أركانها . ومن الانصاف لذلك الرجل أن نذكر انه أدى دورا ناجحا فى منطقة الحدود المضطربة بين مصر والنوبة من ناحية ، وبين مصر وبلاد البجة من ناحية أخرى . فبفضل ذلك الدور ، حقق فى كثير من الأحيان ، ما لم تستطع أن تحققه الحملات العسكرية التى كانت ترسلها السلطة المركزية فى مصر لصد غارات النوبة والبجة .

وبعد موت العمرى ، احتشدت جماعات عديدة من ربيعة وجهينة خاصة حول أسوان ، وتنازعت تلك الجماعات على الاستئثار بالنفوذ ، وامتلاك معادن الذهب بالعلاقى ، غير أن الغلبة فى النهاية كانت لفريق من ربيعة استمال البجة وتزوج من بناتهم (١٥٢) .

وبالاضافة الى ذلك ، كانت أسوان معبرا للفارين من الضغط السياسى ،

---

(١٥٠) المقريزى : المقفى ، ص ١٦ — ص ١٧ .
(١٥١) نفس المرجع : ص ١٧ — ١٨ ، يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية في الهجرة العربية ص ١١٧ .
(١٥٢) مكى شبيكة : السودان عبر القرون ص ٣١ .

الذين اتخذوا من أسوان نقطة انطلاق الى بلاد البجة أو السودان ، بعيدا عن السلطة المركزية فى مصر .

فعندما سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ (٧٤٠ م) تتبع العباسيون بنى عمومتهم الأمويين ، وتمكنوا من قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية بعد أن تعقبوه فى مصر ، الا أن ابنيه ومن معهما من أهلهما ومواليهما وأنصارهما من العرب ، ساروا الى أسوان فرارا من الاضطهاد ، ومن أسوان دخلوا بلاد النوبة ثم انحرفوا شرقا الى بلاد البجة (١٥٣) . على أن ما أورده لنا الكندى فى كتابه الولاة والقضاء (١٥٤) ، من أن أهل أسوان لبسوا السواد شعار العباسيين بدعوة من يحيى بن مسلم بن الأشج مولى بن زهرة لا نظن أنه صحيحا . فيحيى بن مسلم على الرغم أنه من الموالى الساخطين على الدولة الأموية التى كانت تضع الموالى فى مرتبة أقل من العرب ، فضلا عن أن الدولة العباسية قامت بالدرجة الأولى على أكتاف الموالى ، الا أن تلك الدعوة لم تلق نجاحا بينهم ، اذ كان فى استطاعتهم القبض على ولدى مروان بن محمد وأنصارهما ، بدلا من تيسير الفرار لهم عبر أسوان . كما أن نفوذ الدولة الأموية فى مصر لم ينته بمقتل مروان بن محمد فقد استطاع أحد الأمويين اسمه دحية بن مصعب ، أن يخرج على الدولة العباسية ، ويستولى على جميع أنحاء الصعيد ، ويقاوم الولاة العباسيين حتى تم القضاء عليه عام ١٦٠ هـ (٧٨٦ م) (١٥٥) .

وعندما هزم الثائر أبى ركوة فى صحراء الفيوم عام ٣٠٦ هـ (١٠٠٦ م) أمام جيوش الحاكم بأمر الله الفاطمى ، سار الى أسوان ، ثم انطلق منها الى بلاد النوبة ، ولكن الحاكم بأمر الله استطاع القبض عليه بفضل أبى المكارم

---

(١٥٣) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٢٨٥ — ص ٢٨٦ .
(١٥٤) ص٩٤ .
(١٥٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .

هبة الله — زعيم ربيعة بأسوان — ، ولهذا منحه لقب كنز الــدولة تكريما له (١٥٦) .

وكذلك اتخذ بهرام الأرمنى النصرانى من أسوان ملجأ أمينا له ، فبعد أن سلك مع المسلمين مسلكا عدائيا — ابان وزارته فى عهد الدولة الفاطمية — وبنى الكنائس والأديرة ، استنجد الأمراء برضوان بن الولخشى والى الغربية ، فهزم بهرام عام ٥٣١ هـ ، ورحل الى أسوان حيث اتخذ له مقاما فى الموضع الحصين المعروف بالأديرة البيض (١٥٧) .

وقد مر بنا من قبل ، كيف أن الدولة الأيوبية اثر قيامها ، واجهت أخطر مؤامرة للاطاحة بها عام ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) وهى مؤامرة السودانيين ، وبعد أن تمكن صلاح الدين من القضاء عليها ، فرت الفلول السودانية الى أسوان تنشد المأوى ، ومن أسوان دخلت بلاد النوبة (١٥٨) .

أما فى عصر المماليك ، فان أسوان أصبحت خير ملجأ أمين يأوى اليــه الفارون من وجه العدالة ، والأمثلة على ذلك كثيرة فى المصادر العربيــة التى تناولت عصر المماليك البحرية والجراكسة (١٢٥٠ — ١٥١٧ م) . ففى عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) هرب بيبرس الجاشنكير خشية أن يقع فى قبضة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، واتخذ من أسوان وجهة له ، ولكنه ما أن وصــل أطفيح حتى قبض عليه وأحضر الى القاهرة (١٥٩) . وفى عام ٨٨٢ هـ (١٤٧٧ م) استطاع يونس بن اسماعيل الهوارى أمير هوارة الهروب الى أسوان ، ومنها الى بلاد النوبة (١٦٠) . وفى عام ٨٩٢ هـ (١٤٨٦م) هرب جانم الأجرود الاينالى

---

(١٥٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٣٨٧ هـ .
(١٥٧) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٧٩ .
(١٥٨) أنظر : ص ٣٧ — ص ٤٠ .
(١٥٩) ابن حجر : عقد الجمان حوادث عــام ٥٧٦ هـ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٥ .
(١٦٠) ابن اياس : بدائع الزهور حوادث عام ٨٨٢ هـ .

كاشف منفلوط الى بلاد النوبة عبر أسوان ، وكان السلطان قد أمر بالقبض عليه ، ففر خوفا على حياته (١٦١) .

ولبعد الشقة بين أسوان والقاهرة ، فانها صارت منفى لكبار رجالات مصر والمغضوب عليهم فى دولة المماليك البحرية ، وأوائل دولة المماليك الجراكسة . وقد أتخذ سلاطين المماليك من أسوان منفى ، ليسهل عليهم مراقبة أحوال المنفيين ، ورصد تحركاتهم. كذلك من المعروف فى دولة المماليك ، أن أول عمل كان يقوم به كل سلطان عقب توليه العرش هو التخلص من مناوئيه بقتلهم أو سجنهم أو نفيهم . وكان النفى فى الغالب الى الكرك أو الحجاز أو قوص أو أسوان . ففى عام ٧٢٢ هـ تغير السلطان الناصر محمد بن قلاوون على الصاحب كريم الدين بن السديد ناظر الخواص الشريفة ــ وهو أول من باشر هذه الوظيفة ــ ، فقبض عليه وصادره ، ونفاه الى الشوبك ، ثم الى القدس ، ثم عاد فنفاه الى أسوان ، ولم يطق الصاحب كريم الدين صبرا فى أسوان ، فانتحر بأن ربط عمامته فى رقبته ، ثم وقف على قفص ، ودفعه برجليه فمات عام ٧٢٤ هـ (١٣٢٣ م) (١٦٢) . وفى عام ٧٤٢ هـ (١٣٤١ م) توجه جركتمر بن بهادر الى أسوان للاحتفاظ على المنصور أبى بكر وأخوته (١٦٣) . وفى نفس العام أيضا ، توجه الأمير طوغان الى الكرك لاحضار أحمد بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، متحفظا عليه ، لينفى الى أسوان (١٦٤) . وفى عام ٧٦٠ هـ (١٣٥٨ م) تخلص السلطان المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى بن بكتمر المؤمنى ــ الذى ولى الاسكندرية ثم حلب ــ ، فأخرجه منفيا الى أسوان (١٦٥) . وفى آخر ربيع الاول عام ٧٦٨ هـ (نوفمبر

---

(١٦١) المرجع السابق حوادث عام ٨٩٢ هـ .

(١٦٢) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٦ ص ٦٣ ، ابن شاكر . فوات الوفيات ج ٢ ص ٨ ــ ص ١٤ ، ابن حجر : عقد الجمان ، حوادث عام ٧٢٤ .

(١٦٣) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ٥٧٣ .

(١٦٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٣ .

(١٦٥) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٦٦ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢١ .

١٣٦٦ م) تنكر الأمير يلبغا الخاصكى القائم بدولة السلطان الأشرف شعبان ابن حسين على الأمير الطواشى الأشرف سابق الدين مثقال الانوكى مقـدم المماليك فضربه ستمائة عصا ، ثم نفاه الى أسوان (١٦٦) . وفى صـفر عام ٧٦٩ هـ (أكتوبر ١٣٦٧ م) أغرق السلطان فى النيل جماعة من المماليك الدين اتفقوا على قتله ، فسمر البعض من أعيانهم ووسطهم ، ونفى الباقى الى الشام وأسوان (١٦٧) .

وفى أواخر دولة المماليك الجراكسة ، لم تعد أسوان منفى للمغضوب عليهم من قبل السلطنة . ويرجع السبب فى ذلك الى كثرة ثورات العربان ، التى أدت الى خروج الصعيد بأكمله عن قبضة السلاطين . واذا كانت المصادر المعاصرة قد صمتت عن ذكر نفى أى شخصية من شخصيات تلك الدولة الى أسوان ، فان الاسكندرية صارت المعتقل الوحيد فى مصر للمغضوب عليهـم من عظماء الدولة (١٦٨) .

أما العربان فى الوجـه القبلى ، فان قبائلهـم سببت المتاعب للحـكام والمحكومين سواء ، فارتبط تاريخهم طول عصر المماليك (١٢٥٠ — ١٥١٧ م) بالثورات وحوادث النهب والاعتداء على الآمنين من أهل القرى والمدن ، حتى أن المراجع لا تشير غالبا اليهم الا تحت عنوان (فسـاد العـربان) (١٦٩) . وبالرغم من الهزائم المتكررة التى حلت بالعربان فى دولة المماليك البحرية ، الا انها لم تفت فى عضدهم ، فكانوا فى كل مرة تحل بهم الهزيمة يعـودوا الى العصيان والتمرد من جديد (١٧٠) .

وازدادت شوكة العربان بالصعيد فى دولة المماليك الجراكسة . ذلك

---

(١٦٦) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ٣٩٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٦٣ .
(١٦٧) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٥٤ .
(١٦٨) المقريزى : السلوك أماكن متفرقة ، ابن حجر : عقد الجمان أماكن متفرقة .
(١٦٩) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣١٤ .
(١٧٠) المرجع السابق : ص ٣١٤ — ص ٣١٥ .

أن تلك الدولة ، لم يعد فى وسعها دفع ثوراتهم وفتنهم كما كان الحال فى دولة المماليك البحرية . وتأثرت مدن الصـــعيد بتلك الثورات ، فتعرضت للنهب والسلب والقتل ، فضلا عن قطع الطرق المؤدية اليها .

وكانت أسوان من المدن التى لم تسلم من اغارات العربان وعبثهم . ففى أواخر القرن الثامن الهجرى دأب العربان على شن الاغارات على اسوان من ناحية الشمال ، فى الوقت الذى كان فيه بنو الكنز يوجهون ضرباتهم اليها من الجنوب بغية استعادة نفوذهم فيها . ولم تتحمل أسوان الضغط عليها مـــن الجانبين ، الأمر الذى أدى فى النهاية الى وقوعها فريسة فى أيدى العربان .

ونستطيع القول أن السلطان الظاهر برقوق ، قد ســـاهم بطريق غير مباشر فى اشتداد خطر العربان بالوجه القبلى . ففى عام ٨٧٢ هـ (١٣٨٠ م) نقل برقوق قبيلة هوارة من بلاد البحيرة بالوجه البحرى الى الصعيد الأعلى ، وأقطعهم ناحية جرجا ، فعمروها (١٧١) . غير أن تلك القبيلة وسعت نفوذها فى الوجه القبلى فانتشرت فى أرجائها « انتشار الجراد » ، وبسطت يدها من الأعمال البهنساوية حتى نهاية الوجه القبلى عند أسوان وما بعدها بقليل ، وأذعنت لتلك القبيلة سائر العربان بالوجه القبلى قاطبة ، وانحازوا اليها ، وصاروا طوع يدها (١٧٢) . وكانت الامرة فى قبيلة الهوارة ــ زمن القلقشندى (ت ٨٢١ هـ) ــ فى بيتين ، البيت الاول : بنو عمر ، ومنازلهم بجرجا ومنشأة أخميم ، وأمرهم نافذ من الأشمونين الى أســـوان ، والبيت الثانى : أولاد غريب ، ومنازلهم دهروط (ديروط) وما حولها ، وبيدهم بلاد البهنسا (١٧٣) .

ويبدو أن فرعى قبيلة هوارة كانا منقسمين على أنفسهما ، ففرع بنى عمر كانت له الامارة والسيادة على فرع أولاد غريب ، فضلا عن أن الفرع الأول كان مواليا للسلطنة . والدليل على ذلك أن جماعة من هوارة تنتمى الى

---

(١٧١) المقريزى : البيان والاعراب ص ٥٨ .

(١٧٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٩ .

(١٧٣) نفس المرجع والصفحة .

فرع أولاد غريب تحالفت مع عرب الأحامدة(١٧٤) وبنى الـكنز للاغارة على ثغر أسوان عام ٧٩٨ هـ (١٣٩٦ م) فأطبقوا عليه بغتة ، وغادروا الثغر بعد أن نهبوه (١٧٥) . وازاء ذلك ، أصدر السلطان أمره الى نائب الوجه القبلى بالتوجه الى ثغر أسوان للقبض على عربان الأحامدة وهوارة التى تنتمى لفرع على بن غريب ، وتلى ذلك أن طلب السلطان من أمير عربان هوارة ـ الموالى له ـ عمر بن عبد العزيز السير مع نائب الوجه القبلى ومساندته ، واتجـه الجميع الى أسوان ، ثم أوغلوا فى بلاد النوبة ، غير أنهم لم يقفوا للعربان على أثر ، فرجعوا من حيث أتوا (١٧٦) .

وتكررت اغارة قبيلة هوارة على أسوان ، فزحفت على أسـوان عام ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) ، وهناك حاربت أولاد الكنز وأوقعت الهزيمة بهم ، ولم تكتف هوارة بذلك ، بل سبت النساء والأطفال ، ومضت بسببيها بعد أن تركت أسوان خرابا بلقعا (١٧٧) .

ومن الواضح أن دولة المماليك الجراكسة قـد أمحى نفوذها من أسوان ابتداء من القرن التاسع الهجرى ، اذ غدت فى أيدى العربان عرضة لحوادث النهب والسلب . وقد عملت تلك الحوادث على قطع الطرق المؤدية اليها ، شأنها فى ذلك شأن الصعيد الأعلى الذى صار أهله غير آمنين على حياتهم وأموالهم . وبسبب ضعف تلك الدولة ، أخذت قبيلة هوارة تشن اغاراتها على جنوب مصر ، ولم تجد من يمنعها من حـرق القرى ونهبها ، وأدى ذلك فى النهاية الى خراب الصعيد ، ودثور أكثر بلاده(١٧٨) .

---

(١٧٤) عرب الأحامدة من آل ملى سكان دامة وما فوقها الى جهة ينبع بالحجاز ، ثم انتقلوا الى الصعيد الأعلى ، فنزلوا فيه واتخـذه وطنا . (انظر ابن حجر : أنباء الغمر ، حوادث عام ٨١٨ هـ) .

(١٧٥) ابن الفرات : تاريخه جـ ٢ ص ٤٤٠ .

(١٧٦) المرجع السابق : ص ٤٤٠ ـ ص ٤٤١ .

(١٧٧) المقريزى : السلوك حوادث عام ٨٢٥ هـ .

(١٧٨) المقريزى : السلوك ، حوادث عام ٨٢٥ هـ .

وليت الأمر كان قاصرا على قبيلة هوارة وحدها ، فما فعلته تلك القبيلة من فساد فى أسوان تطرفت فيه قبيلة بنى الكنز . ومن الملاحظ أواخر دولة المماليك الجراكسة ، أن دور السلاطين صار لا يتعدى ارسال حملات تأديبية خاطفة الى بنى الكنز بأسوان من حين لآخر ، ثم العودة من حيث اتت بخفى حنين . من ذلك أن السلطان أرسل عام ٨٤٨ هـ (١٤٤٤ م) أيتمش بن أزوباى المؤيدى استادار الصحبة ومعه خمسين مملوكا من المماليك السلطانية الى أسوان لمحاربة بنى الكنز ، « فضعف ايتمش بمن معه عن قتالهم » (١٧٩) . وازاء ذلك الفشل الذى أحاط بتلك الحملة ، أرسل السلطان حملة أخرى علها تحقق شيئا من النجاح . فأصدر أمرا فى ربيع الآخر ٨٤٨ هـ (٢١ يوليو سنة ١٤٤٤ م) الى الأمير شادى بك ، والأمير غليظ الرقبة ، ان يتوجها الى الصعيد لدفع فساد العرب من الكنوز ، وبعد أن قضى المماليك ما يقرب من ثلاثة شهور عادوا فى ٢ رجب من نفس العام ، ومعهم رءوس من بنى الكنز معلقة على رماح (١٨١) . ويدل ذلك على أن المماليك قد فشلوا فى كسر شوكة بنى الكنز فى أسوان .

ومهما يكن من أمر ، فقد ظل العربان مصدرا للفتن والقلاقل فى أسوان ، دون أن تبذل دولة المماليك الجراكسة جهدا جديا فى سبيل اعادة الامن والاستقرار اليها . وأدى ارتباك دولة المماليك ، وفساد نظامها فى القرن الخامس عشر الى عجزها عن قمع ثورات العربان .

---

(١٧٩) أبو المحاسن : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ج ١ ص ١٢ — ص ١٣ .
(١٨٠) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٩٣ ، ابن حجر : عقد الجمان ، حوادث عام ٨٤٨ هـ .

الفصل الثاني

الأهمية الاقتصادية لأسوان

الزراعة فى أسوان :

ضيق الرقعة الزراعية ــ طريقة الزراعة ــ أسوان نقطة مراقبة هامة لمياه الفيضان ــ المحاصيل الزراعية ــ الثروة الحيوانيــة ــ الثروة السمكية .

الصناعات الشعبية فى أسوان :

حجارة الطاحون ــ الأوانى الفخارية ــ الطين الأسوانى ــ استغلال خامات البيئة ــ صناعة الكحل .

التجارة فى أسوان :

(أ) تجارة مصر مع النوبة عبر أسوان : التجار المسلمون ــ معاهدة البقط ــ سوق بلاق ــ صعوبة منطقة الشلال ــ وصول تجار النوبة الى أسوان ــ التبادل التجارى فى منطقة المريس ــ حرمان التجار الأجانب من التوجه الى النوبة ــ الرسوم الجمركية .

(ب) طرق القوافل المتجهة من أسوان الى النوبة والسودان : الطريق النيلى بحذاء النيل ــ طريق درب الاربعين ــ طريق القوافل عبر الصحراء الشرقية .

(ج) دور أسوان فى تجارة البحر الأحمر : ميناء عيذاب ــ طريق القوافل بين أسوان وعيذاب ــ تجارة أسوان مع عيذاب ــ الصكوك ــ انتعاش أسوان ــ حملة ارناط الصليبى على عيذاب ــ ظهور قوص وارتباطها بتجارة البحر الأحمر ــ تجار الكارم .

(د) أهم السلع التى ترد من السودان والصحراء الشرقية الى أسوان : الذهب ــ الزمرد ــ الرقيــق ــ العــاج ــ الأبنوس ــ قرن الخرتيت ــ التمر الهندى ــ اللبان ــ الصمغ العربى ــ ريش النعام ــ الشب ــ الابل ــ المسك ــ القردة .

(هـ) التجارة الداخلية فى أسوان : أسوان ملتقى طرق القوافـــل ــ الملاحة فى النيل ــ الطريق البـــرى من القاهرة الى أســــوان ــ سوق أسوان ــ التعامل التجــارى فى السوق ــ المحتسب ــ أسواق القرى فى أسوان .

(و) تدهور النشاط التجارى لأسوان فى أواخر العصـــور الوسطى : ضعف دولة المماليك الجراكسة ــ سياسة الاحتكار التجارى ــ تدهور عيذاب ثم سقوطها ــ ثورات العربان ــ كساد التجارة ــ فساد حكام الاقاليم فى الصعيد ــ اختلال الصعيد وخرابه .

لا جدال فى أن بعض مدن مصر فى العصور الوسطى اكتسبت مكانتها المرموقة من أهميتها الاقتصادية . فمنها من قامت شهرتها على انتاجها الزراعى الوفير ، والبعض كانت له شهرة خاصة فى الصناعة ، والبعض الآخر احتل مركزا هاما فى التجارة . ومن هذا النوع الأخير كانت أسوان ، اذ ظلت طوال عصور تاريخها سوقا هائلا لتجارة الصادر والوارد . والواقع أنه توافرت لها ظروف عديدة اكسبتها أهميتها فى التجارة ، منها الموقع الجغرافى ، اذ كانت أسوان فى العصور الوسطى حلقة اتصال بين شمال الوادى وجنوبه ، فضلا عن أنها كانت ملتقى طرق القوافل الآتية من الشرق ووسط أفريقية . ويكفى أن اسم أسوان ــ كما سبق القول ــ مشتق من كلمة « سيينى » ومعناها السوق نسبة الى شهرتها فى النشاط التجارى .

واذا كانت الشهرة التاريخية لآسوان فى العصور الوسطى قد ارتكزت أساسا على الدور الذى لعبته فى محيط التجارة ، فان هذا لا يعنى أنها خلت تماما من أوجه النشاط الاقتصادى الاخرى مثل الزراعة والصناعة ، هـــذا وان كانت شهرة أسوان فى مجال الزراعـــة أو الصـــناعة لا يمكن مقارنتها بشهرتها فى ميدان التجارة فى العصور الوسطى . وسنتناول بالدراسة جميـــع أوجه النشاط الاقتصادى لتلك المدينة ، حتى تصير الصورة متكاملة الجوانب .

الزراعة

تنحصر أرض أسوان بين خافات مرتفعة تكاد تخنق أرضها ، فلا تترك سوى شريط ضيق من الآراضى الزراعية . وبالرغم من أن محافظة أسوان تقتطع مسافة طويلة من مجرى النيل ، الا أن المســاحة الاجمــالية لسهله الفيضى فيها ـــ التى تبلغ ١٠٦٫٠٠٠ فدان ـــ تأتى فى الذيل بالنسبة لبقيــة المحافظات الأخرى (١) . ونخرج من ذلك الى أن الأراضى الزراعية لاســوان ظلت ضيقة الرقعة ، لا تسمح بفائض فى الانتاج يمكن استغلاله فى أغراض تجارية . وبعبارة أخرى فان انتاجها الزراعى كان للاستهلاك المحلى فقط ، ولا يزيد غالبا عن حاجة السكان .

والمعروف أن الزراعة اعتمدت فى مصر عموما طوال العصور الوسطى على مياه الفيضان . وقد روى الأصطخرى (٢) قائلا : وزروعهم (زرع مصر) على ماء النيل ، تمتد فتعم المزارع من حد اسوان الى حد الاسكندرية وسائر الريف ، فيقيم الماء من عند ابتداء الحر الى الخريف ، ثم ينصرف فيزرع ثم لا يسقى بعد ذلك » . وتلك الطريقة هى التى تعرف برى الحياض ، فاذا ورد ماء الفيضان غمر الاراضى ومكث فوق سطحها مدة كافية من الزمن حتى يمكن للأرض أن تتشبع بالماء تماما ، وحتى يتيسر رسوب الطمى الذى يكسبها قوة الخصب . وبعد ذلك يأخذ الفلاحون فى صرف الماء تدريجيا عن الارض ورده مرة أخرى الى النهر . وعقب الانتهاء من تلك العملية كان الفلاحون يتركون المحصول حتى أوان النضج ، ثم يشرعون فى الحصاد .

غير أن الزراعة فى اسوان لم تقف على زرع محصول واحد طول العام ، بل انقسمت فيها الى قسمين : زراعة شتوية ، وزراعة صيفية . وتبــدأ الزراعة الشــتوية فى ديســمبر وتمتد حتى مارس ، وذلك فى الأراضى التى

---

(١) صفى الدين أبو العز : مرفولوجية الأراضى المصرية ص ١٥٣ ـــ ١٥٥ .

(٢) المسالك والممالك : ص ١٠ ، الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ١٤٣ .

استفادت الى أقصى حد من مياه الفيضان ، ولهذا لم تعد فى حاجة الى الرى الصناعى حتى أوان الحصـــاد(٣) . أما الزراعة الصيفية ، فكانت تمتد من أبريل حتى حوالى آخر يوليو ، وقد اقتصرت تلك الزراعة على الاماكن الواقعة على ضفتى النهر . وكان الفلاحون فى هذه الحالة يرفعون الماء من النيـل بالسواقى(٤) والشادوف .

ولما كانت أرض أسوان الزراعية وغيرها من أراضى مصر خاضـــعة لمشيئة الفيضان ومقدار زيادته وارتفاعه ، فقد أهتم العرب ــ عقب الفتح العربى مباشرة ــ ببناء مقاييس للنيل فى مصر . وقيل أن عمرو بن العاص ابتنى مقياسا للنيل عند جزيرة أسوان (٥) الواقعة تجاه المدينة . وفى الحقيقة أن أسوان كان بها من قبل مقياسا للنيل ، ذكره استرابون (٦) ، ومن المحتمل أن عمرو بن العاص جدده وأصلحه .

والجدير بالذكر هنا ، أن أسوان كانت نقطة مراقبة هامة لمياه الفيضان الآتية من الحبشة ، نتيجة هبوب الرياح الموسمية الصيفية عليها . وفى ذلك قال المقريزى (٧) : « ومنها أن أهل أسوان انما يرقبون بلوغ الردع (حـــد وفاء النيل) اليهم مراقبة ، ويحافظون عليه بالنهار محافظة ، فاذا جن الليل اخذوا حقة خزف فوضعوا فيها مصباحا ، ثم يضعونه على حجر معد عندهم لذلك وجعلوا يرقبونه ، فاذا أطفىء المصباح يطفو الماء عليه ، علموا أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم ... فيكتبون بذلك الى أمير مصر يعلمونه أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم ... فحينئذ يأمر بكسر الاسداد التى على أفواه قرص المشارب ، فيفيض الماء على أرض مصر دفعة واحدة . ومنها

---

(٣) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ٦٦ ــ ص ٦٧ .
(٤) المرجع السابق : ص ٦٧ ، ناصر خسرو : سفر نامة ص ٧١ .
(٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ٥٧ ، أبو المحاسن : النجـوم الزاهـرة ، جـ ٢ ص ٣١٠ ، سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٦٨ ــ ص ٢٦٩ .
(٦) وهيب كامل : استرابون في مصر ص ١١٦ .
(٧) الخطط ، جـ ١ ص ٥٤ .

اذا فتحت تلك الاسداد ، وكسرت الخليج ، وفاض النيل على بطائح أرض مصر ، شعر بذلك أهل أسوان للحين ، وقالوا : فى هذه الساعة كسرت الخليج وفاض ماء النيل على أرض مصر ، لان ذلك يتبين لهم بتحول الماء دفعة» .

وعندما يأتى موسم الفيضان(٨) ، وتغمر مياهه الأراضى ، كان أهالى أسوان يتنقلون بين قراها بواسطة المراكب ، ولهذا السبب شـــيد الاهالى بيوتهم على المرتفعات والتلول ـــ بعيـــدا عن الأراضى الزراعيـــة ـــ حتى لا تغرق (٩) .

وقد فكر العالم الرياضى الهندسى ابو على محمد بن الحسن بن الهيثم البصرى (ت ٤٣٠ هـ) فى الاستفادة من مياه النيل جنوبى اسوان درءا لأخطار الفيضان ، وتنظيما لسقاية الارض . فيروى عنه أنه قال : « لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغنى انه ينحدر من موضع عال هو فى طرف الاقليم المصرى » ، فلما سمع الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى بنظريته ، بعث فى استدعائه ، وأكرم وفادته ، ثم طالبه بتنفيذ ما وعد به من أمر النيل ، فأخذ ابن الهيثم معه جماعة من الصناع ، وتوجه بهم الى موضع الجنادل (الشلال الاول) جنوب أسوان ، وحين اختبر بآلاته منحدر النيل تبين له عجز هذه الادوات وقصور الامكانات المتاحة عن أن تحقق فكرته ، فعاد الى القـــاهرة واعتذر للحاكـــم ، فتقبل عذره (١٠) . واذا كان ابن الهيثم قد عجز عن تنفيذ فكرته ، فانه يعتبر صاحب السبق الاول لفكرة انشاء السد العالى التى حققتها ثورة ٢٣ يوليو بعده بألف عام .

---

(٨) موسم الفيضان يزيد قليلا عن ثلاثة أشهر هى أبيب (يوليو) ومسرى (أغسطس) وتوت (سبتمبر) وأيام من بابه (أكتوبر) ، ثم يبدأ في النقصان تدريجيا ابتداء من حـوالى ٢٠ بابة .

(٩) ناصرو خسرو : سفر نامة ص ٤٢ ، جاستون فييت : المواصلات في مصر في العصور الوسطى ص ٣٤ .

(١٠) ابن العبرى : مختصر الدول ، ص ٣١٦ ـــ ص ٣١٨ ، جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٢٤٢ ،

Huart : Histoire des Arabes, p. 369.

أما عن الاراضى الزراعية بأسوان ، فانها عرفت بخصوبتها (١١) . ويبدو أن الفلاحين قد اعتنوا بتسميدها . فبالرغم ان السماد السائد فى العصور الوسطى ، كان ما يخرج من روث البقر والغنم وغيره (١٢) ، الا أن الاراضى الزراعية فى أسوان كان يتم تسميدها بطفل حجرى هش — يبدو أنه يحتوى على نترات — يطلق عليه الإهالى هناك اسم « المروج » ، يؤخذ من التلال والمرتفعات التى تحف بالنيل . ولازال الفلاحون من أهل اسوان يستخدمون ذلك السماد الى جانب الاسمدة الكيمائية الجديدة .

ومن المحاصيل الزراعية التى كانت تزرع فى أسوان ، القمح الذى وصف بكثرته ، فضلا عن غيره من سائر أنواع الحبوب مثل الذرة والشعير ، كما زرع بها سائر البقول مثل الفول والعدس والحمص ، والزيتون ، والفواكه مثل البطيخ الذى كان يطلق على نوع منه اسم « البدلاع » (١٣) . وقد مدح الأدفوى (١٤) بطيخ أسوان ، فذكر أنه كان كثير الحلاوة « والبطيخ الأخضر منه كبير الحبة ، بحيث ما يكاد يستقل بحمل الحبة الواحدة الا الرجل الشديد القوة ! ومن الفواكه التى اشتهرت بها أسوان العنب ، اذ ذكرها الأدفوى أيضا فى الطالع السعيد(١٥) قائلا « رأيت بها (أسوان) قطف عنب جاءت زنته ثمانية أرطال بالليثى ، ووزنت حبة عنب جاء زنتها عشرة دراهم » .

أما القطن الذى وجدت منه كميات كبيرة فى بلاد النوبة عندما غزاها تورانشاه أخو صلاح الدين الايوبى عام ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ، الامر الذى يدل على زراعته فى تلك البلاد (١٦) ، فاننا لا نستطيع أن ننفى أو نؤكد زراعته فى أسوان زمن العصور الوسطى .

(١١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٢ .
(١٢) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ٢٩ .
(١٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ١٩٦ ، ناصر خسرو : سفرنامة ص ٧١ ، الادريسى - نزهة المشتاق ص ٢١ .
(١٤) الطالع السعيد ص ٢٨ .
(١٥) نفس المرجع والمكان ، ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ص ٣٣ .
(١٦) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٠ -

ولا نجد جغرافيا أو مؤرخا فى العصور الوسطى ، الا وحدثنا عن النخيل فى أسوان ، فقد اشتهرت بكثرة النخيل بها بسبب خصوبة أراضيها ، ويدل على ذلك قول المسعودى (١٧) : « تودع النواة الارض فتنبت نخلة ، ويؤكل من ثمرها بعد سنتين ، وليست تربتهم (تربة أسوان) كتربة البصرة ولا الكوفة ولا غيرهما من أرض النخل ، لان النخل بالبصرة لا ينبت من النوى بل ينبت من الثال والفسيل ، وهو النخل الصغير ، وما يخرج من النواة فليس بثمر ولا يفلح » وقد امتازت أسوان بأنها أكثر نخيلا مـن غيرها فى جهات الصعيد ، اذ بلغ مجموع محصولها من التمر فى سنة واحدة ستة وثلاثين ألف اردب (١٨) . وبالاضافة الى ذلك ، فان أصناف التمر فى أسوان كانت متعددة . فجميع أصناف التمر الموجودة فى بغداد والكوفة والحجاز والبصرة يوجد مثيل لها فى أسوان (١٩) ، علاوة على انها انفردت بأنواع من التمور لا يوجد منها فى تلك البلاد (٢٠) ويروى أن الخليفة العباسى هارون الرشيد طلب أن يحمل اليه أنواع التمور من أسوان ، من كل صنف ثمرة واحدة ، فجمعت له ويبة (٢١) . وثمة فارق بين تمر أسوان وتمر بلاد العراق والحجاز التى اشتهرت بزرع التمور ، أوضحه ياقوت الحموى (٢٢) قائلا : « ولا يعرف فى الدنيا بسر يصير تمرا ولا يرطب الا بأسوان ، ولا يتمر من بلح قبل أن يصير بسرا الا بأسوان . وسألت بعض أهل أسوان عن ذلك فقال لى : كلما تراه من تمر أسوان لينا فهو مما تمر بعد أن يصير رطبا ، وما رأيته أحمر مغير اللون فهو مما يتمر بعد أن صار بسرا ، وما وجدته أبيض فهو مما يتمر بعد أن صار بلحا » . والتمر فى أسوان منه ما هو يابس مثل السكوتى والجنديلة والبرتموده

---

(١٧) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٢ .
(١٨) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٧ .
(١٩) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٤٦ .
(٢٠) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٧ .
(٢١) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١ ص ٢٤٩ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ١٩٨ .
(٢٢) معجم البلدان : جـ ١ ص ٢١٩ .

والمترشى ، ومنه ما يؤكل أخضر ذا لون أحمر أو أصفر ، من ذلك النوع الذى يطلق عليه إصابع الست وهو أحمر طويل ، ومنه أيضا رطبا أخضر كخضرة السلق « عجيب المنظر ، حسن المخبر » (٢٣) .

على أن النخيل لم تقتصر فائدته على قيمته الغذائية كفاكهة رخيصة لذيذة الطعم فى متناول الجميع ، بل كان الفلاحون فى أسوان العصور الوسطى — ولازالوا — يستفيدون من خشبة وجريده وسعفه فى عمل السقوف لمنازلهم .

وينبت بأسوان النباتات التى تحتاج لجو حار ، من ذلك العشر والأهليلج (٢٤) . والفلفل والأراك والخيار شنبر والقرظ (٢٥) (شجر السنط) . ويتميز حطب السنط بأنه لا يخلف رمادا عقب احتراقه ، وهو خير أنواع الفحم النباتى . وقد احتكرت سلطنة المماليك خشب السنط ، فلا يتصرف فيه بالبيع والشراء الا مستخدمو الديوان ، لشدة الحاجة اليه فى صناعة المراكب (٢٦) .

وبالاضافة الى الثروة الزراعية التى تميزت بها أسوان فى العصور الوسطى ، فانها عرفت أيضا بكثرة الأسماك والغزلان والابل والبقر والماعز والحملان والغنم (٢٧) . ومن الطبيعى أن البقر كثر استخدامه فى أسوان عن الجاموس ، لان الاخير لا يتحمل حرارة المنطقة ، وتعتبر منطقة اسوان أكثر جهات مصر اهتماما بتربية الابل ، خاصة وأن شهرة أسوان قامت على

---

(٢٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١ ص ٢٤٩ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٣٥ ، على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٨ ص ٦٦ .

(٢٤) نبات الاهليلج ثمرة اللالوب ، وهى فى شكل ثمر النخيل الا أنه مغلف بقشرة وطعمه حلو مر ، ويستعمل كمسهل بنقعه فى الماء وشربه على الريق (نعوم شقير : تاريخ السودان ، جـ ١ ص ٣١) .

(٢٥) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٢٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢، ص ١٧٥ .

(٢٦) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٠٦ — ص ١١٠ ، جـ ٢ ص ١٩٣ .

(٢٧) ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ٤٠ ، القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول ص ٤٢٨ ، الادفوى : الطالع السعيد ، ص ٣٢ .

التجارة . والجمل هو الحيوان الأساسى الذى بواسطته تنقل البضائع الصادرة والواردة عبر الصحراء . ويتضح لنا أهمية الجمل عندما نتناول النشاط التجارى لاسوان فى العصور الوسطى .

أما عن أغنام أسوان ، فقد كانت بالغة فى الطيب والسمن (٢٨) ، وفضلها الأطباء على غيرها لانها — فى نظرهم — أشد حرارة وأحلى طعما (٢٩) . وعندما قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمشروعه الهام للعناية بالثروة الحيوانية ، استورد الاغنام الممتازة من بلاد الصعيد والنوبة بعد أن تتبع مراعيها(٣٠) . ونرجح أن أغنام أسوان ، كانت من بين الأغنام التى استوردها الناصر للتشابه التام بينها وبين أغنام الصعيد الأعلى وبلاد النوبة .

واشتهر ثغر أسوان كأحد مصايد مصر للأسماك فى العصور الوسطى ، فمن أسماكه ما يملح ويوضع فى الامطار (أوانى من الفخار) ، فاذا نضج عرف باسم « الملوحة والصير » — وهى لا تزيد فى حجمها عن قدر الاصبع — ثم يعرض للبيع ، وكان للمصايد ديوان انشأه أحمد بن المدبر ، واستمر قائما ، وخصص موظفين من قبل الحكومة لمباشرة الصيد ، الى أن اهملت المصايد فى أسوان — زمن المقريزى — لخروج الثغر عن يد السلطنة ، وتغلب أولاد الكنز عليه (٣١) .

كما وجدت فى أسوان حيوانات أخرى لا علاقة لها بالثروة الحيوانية مثل حيوان « السقنقور » الذى كان يتعالج بشحمه فى بعض الأغراض (٣٢) .

---

(٢٨) الادريسى : نزهة المشتاق ص ٢٢ .
(٢٩) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٨ .
(٣٠) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ص ٤٣٣ — ص ٤٣٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١١٩ — ص ١٢٠ ، جمال الدين سرور : دولة قلاوون في مصر ص ٢٩٤ .
(٣١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٠٦ — ص ١٠٧ .
(٣٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥٠ .

الصناعات الشعبية

لم تكن أسوان مدينة صناعية كالمدن التى اشتهرت بالصناعة فى مصر فى العصور الوسطى ، مثل تنيس ودمياط والاشمونين والفسطاط وغيرها . فأسوان قامت شهرتها — فى المحل الاول — على التجارة . بيد أنه يمكننا القول أن بعض الصناعات البسيطة البدائية قامت فيها . فالاهالى فى أسوان استغلوا موارد البيئة المحلية ، وصنعوها صناعة بسيطة ، لا نستطيع أن نطلق عليها وصف صناعة بالمعنى المفهوم لتلك الكلمة فى العصور الوسطى، وان كان يمكننا أن نسميها صناعات شعبية أو حرف يدوية محلية ، لم تتجاوز حدود أسوان .

ومن الواضح أن أسوان اشتهرت منذ فجر التاريخ بمحاجر الجرانيت الفنية التى تتميز بالصلابة ، وقد استخدمها الفراعنة طوال عصور مصر القديمة فى بناء المعابد والمسلات والتماثيل . أما فى العصور الوسطى ، فلم تستغل تلك المحاجر كما كانت من قبل ، اللهم فيما عدا حجارة الطاحون التى كانت تقطع منها (٣٣) .

ومن الصناعات القديمة التي عرفها الانسان ، صناعة الفخار . فالاوانى المعدنية لم تكن معروفة فى العصور القديمة والوسطى ، ومن الفخار صنع الانسان : الأزيار والقدور والأباريق وأوعية الخل والعسل والنبيذ والسمن ، وغير ذلك من الاوانى التى لا غنى عنها فى الحياة اليومية . ويبدو أن أهالى أسوان برعوا فى صناعة أنواع جيدة من الفخار الذى استخدم فيه الطين الاسوانى (٣٤) . ويؤخذ ذلك الطين من جبل أطلق عليه المؤرخون.

---

(٣٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٩٥٨ ، دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أسوان .

(٣٤) الطين الاسوانى عبارة عن طبقات من صخر طينى دقيق يمتاز بارتفاع نسبة سليكات الالومنيوم فيه ، فهو أصلح لذلك من طمى النيل العادى لصناعة الأوانى الخزفية الممتازة ، وقد تكون هذا الصخر في عصر جيولوجى قديم حيث كان البحر غامرا هذا الجزء من الأرض حتى أسوان وما فوقها ، وفي مياهه تكونت هذه الرواسب قرب مدينة أسوان . ويستخدم الطين الاسوانى أيضا في صناعة الطوب الحرارى الممتاز (كتيب أصدرته مديرية « محافظة » أسوان عام ١٩٤٩ م) .

العرب اسم « جبل الطفل » ، وكان ذلك الطين مفضلا في صناعة « كيزان الفقاع » . وهى أوان استخدمت في شرب نوع من النبيذ يتخذ من الشعير (٣٥) . كذلك مهر أهالى أسوان فى صنع أوعية الفخار التي تسمى « البرام » امتازت بجودة الطبخ فيها ، وهى تصنع من حجر يسمي « حجر البرام » فيجوف ذلك الحجر نحو ثلاثة أو أربعة سنتيمترات ، وأحيانا يسحق قدر معين منه ، ويضاف اليه مثله من الطين الاسوانى ، ويمزج ويعجن حوالى أربع ساعات ثم يعمل منه أوعية البرام ، وتجفف فى الشمس والهواء مدة يومين ، ثم توضع على نار خفيفة فى حفرة مخصصة لذلك تسع نحو عشرة ابرمة أو أثنى عشر دفعة واحدة (٣٦) .

ومن الصناعات الشعبية التى انفردت بها أسوان صناعة المراوح من سعف النخيل والدوم ، تلك النباتات التي جادت بها تربة أسوان . وقد استخدمت تلك المراوح فى التهوية من حر الصيف القائظ . وروى أن الفقيه القاضى محمد بن سليمان بن فرج الكندي (ت ٦٨٧ هـ) ، أتخذ من عمل المراوح بيده فى أسوان حرفة يأكل من ثمنها ، حتى انه عرف بالمراوحى (٣٧) .

ومهر النوبيون فى أسوان — وخاصة قرى ونجوع غرب أسوان — فى صناعة الحصر والسلال والاطباق من سعف النخيل وشجر الدوم ، فقد اشادت أحدى الرحالات التى زارت أسوان فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر بجودة تلك الصناعة ودقتها ومتانتها ، فضلا عن تنوع أشكالها وزخارفها ، كما نوهت بالحصر والسلال التى تشبه مثيلاتها المصورة على جدران المعابد الفرعونية ، وتعتبر تلك الصناعة صناعة وظيفية ، بمعنى أن يقوم بها الفتيات من سن السابعة حتى زواجهن ، وكل فتاة تتعلم تلك الحرفة على يدى أمها أو أيدى النساء والعجائز (٣٨) .

---

(٣٥) الأدفوى : الطالع السعيد ص ١٧ ، ابن دقماق : الانتصار ص ٣٤ .
(٣٦) على مبارك : الخطط التوفيقية ص ٦٧ جـ ٨ .
(٣٧) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٢٢٥ .
(٣٨) سعد الخادم : الصناعات الشعبية في مصر ص ٣٥ ، ص ٩٣ .

كذلك برع اهالى أسوان فى صناعة الكحل التى عرفت فى العصور الوسطى باسم « صناعة اليد » ، ومن الذين أجادوا تلك الصناعة ، ونبغوا فيها ، الطبيب هبة الله بن صدقة الاسوانى (ت ٦٤٢ هـ) ، اذ توارث أبناؤه تلك الصناعة ، واشتهروا بها فى القاهرة (٣٩) .

تلك هى الصناعات البسيطة المحلية التى وجدت فى اسوان . وهى شىء غير ذى بال اذا قورنت بالصناعات الهائلة التى اشتهرت بها بعض المدن فى مصر زمن العصور الوسطى .

التجارة

شهدت أسوان نشاطا بارزا فى التجارة فى العصور الوسطى ، فتكاتفت عليها ظروف عديدة ، جعلتها تتبوأ مكانة مرموقة فى التجارة ، منها الموقع الملائم فهى تتاخم حدود النوبة من ناحية الجنوب ، وتنتهى الى مداخلها طرق القوافل الآتية من السودان والصحراء الشرقية ، فضلا عن أنها تتصل بالعاصمة بالطريق البرى الممهد ، والطريق النهرى الخالى من العقبات التى تعترض مجراه .

(أ) تجارة مصر مع النوبة والسودان عبر أسوان :

يرجع التعامل التجارى بين مصر والنوبة الى العصور القديمة . فوحدة وادى النيل مبدأ أوجدته الطبيعة وفرضته ، اذ تمكن المصرى الذى عاش فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد أن يجوب مناطق الوادى فى بلاد النوبة السفلى والعليا الى حدود بلاد كوش أو الحبشة ، ووصلت قوافل التجارة المصرية الى تلك البلاد على ظهور الحمير أو بطريق السفن فى النيل فى عهد الأسرة الخامسة ، ومن البضائع التى حملتها مصر الى النوبة فى ذلك الوقت نسيج الكتان والعطور وأسلحة من النحاس والزيوت والتمائم ، وتعود القوافل

(٣٩) الادفوى : الطالع السعيد ص ٦٩٠ — ٦٩١ .

محملة بخشب الابنوس والجلود والصمغ وريش النعام والبخور (٤٠) . وقد أشرف حاكم أسوان — فى عهد الاسرة الخامسة — على تلك المناطق ، وايضا على البعثات التى ارسلتها مصر الى تلك البلاد ، كما وجد فى أسوان سوق عامة ترسو فيها القوافل ، ويتبادل رئيس القافلة المصرية وهو عادة مندوب من حكومة فرعون ، أطيب التحيات مع رؤساء قبائل أرتيت والكنوز والنحسيين (Iret - iam - Nehai) ، ثم يتم تبادل السلع بينهم (٤١) .

والمتتبع لتاريخ أسوان على مر العصور ، وخاصة فى مضمار العلاقات بين مصر والنوبة ، لابد وأن يسترعى انتباهه أن تلك المدينة كانت السوق الطبيعية لتجارة النوبة وأواسط أفريقية (٤٢) . وبمعنى آخر فان اسوان ، تعتبر أهم أبواب مصر الجنوبية بالنسبة لتجارة النوبة ، فعن طريقها شهدت مصر نشاطا تجاريا كبيرا (٤٣) .

أما الرومان ، فبالرغم من عدم اهتمامهم بتجارة البحر الأحمر وموانيه البطلمية ، فانهم لم يهملوا تجارة النوبة والسودان ، بل حاولوا الحصول على منتجات تلك البلاد ، فكان يحمل الى مصر مقادير عظيمة من الذهب والعاج ، ومن أجل تجارة النوبة والسودان بسط الرومان نفوذهم على اقليم دوديكا سخينوس الذى يمتد من أسوان الى المحرقة ، وذلك لتحكمه فى الطرق المؤدية الى الاقاليم الجنوبية (٤٤) .

أما العرب الذين أتوا الى مصر فى القرن السابع الميلادى ، فلم تكن تنقصهم الدراية بالتجارة . فهم كما نعلم أهل تجارة ، ويكفينا شهادة الجغرافى استرابون Strabo الذى قال فيهم « العرب كلهم أهل تجارة » ، والقول

---

(٤٠) سامى جبرة : وحدة وادى النيل ، ص ١٨٦ — ١٨٧ .
(٤١) سامى جبرة : وحدة وادى النيل ص ١٨٧ .
(٤٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أسوان .
(٤٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩٠ .
(٤٤) بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٠٠ ، مصطفى مسعد : البجة والعرب فى العصور الوسطى ص ١٤ .

المعروف عن أهل مكة قبل الاسلام « من لم يكن تاجرا فليس عندهم بشىء » (٤٥) . ولا يجب أن نغفل أن من الامور التى حببت التجارة الى المسلمين ، أنها كانت مهنة النبى صلى الله عليه وسلم فى فتوته وشبابه ، فقاد التجارة ومارسها أثناء موسم الحج الى مكة المكرمة ، وقد جاء عنه الحديث الشريف : « عليكم بالتجارة فان فيها تسعة أعشار الرزق » (٤٦) .

ومنذ الفتح العربى لمصر ، أخذت قوافل التجار المسلمين ، تذهب الى النوبة ، وتعود بالرقيق . وليس أدل على وجود التعامل التجارى بين مصر والنوبة — منذ الفتح العربى — من أن اتفاقية البقط نظمت ذلك التعامل وحددت أصوله ، فقد نصت تلك المعاهدة على حرية المرور التجارى بين القطرين « على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم غير مقيمين فيه ، وعليكم من نزل بلدكم أو بطرفه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم » (٤٧) . ومعنى هذا أن تجار المسلمين كان باستطاعتهم أن يتوجهوا الى بلاد النوبة ، والاقامة فيها بصفة مؤقته لحين انتهاء مهامهم التجارية علاوة على تأمين أموالهم وأنفسهم ، ومن المحتمل أن تجار المسلمين من العرب كانوا قد بدأوا يدخلون النوبة قبل ابرام المعاهدة (عام ٣١ هـ) ، وأن هذه المعاهدة لم تكن تشرع للمستقبل بقدر ما تفرض حقيقة واقعة (٤٨) . والمعروف أن اتفاقية البقط تضمنت أن تستورد مصر الرقيق من النوبة ، وفى مقابل ذلك تصدر اليها القمح والعدس والحبوب .

وجرى التبادل التجارى بين مصر والنوبة ، عقب الفتح العربى ، فى قرية بلاق التى كانت بمثابة سوق تأتى اليه سفن النوبة وسفن المسلمين من مصر وأسوان(٤٩) . والجدير بالذكر هنا أن حدود مصر الجنوبية — عند

---

(٤٥) قسطنطين زريق : التجارة الاسلامية وآثرها في الحضارة ص٥٤١ .

(٤٦) المرجع السابق : ص ٥٤٨ ، Cam. Med-Hist. Vol. 4. p. 286.

(٤٧) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ص ٢٨٦ .

(٤٨) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ص ٢٨٦ .

(٤٩) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢ .

أسوان ـــ كانت تنتهى فى بلاق ، وآخر حدود النوبة التى تواجه مصر تنتهى فى قرية القصر ، والمسافة بين القريتين تبلغ ميلا واحدا (٥٠) . ونبعد بلاق عن أسوان مسافة أربعة أميال (ثمانية كيلو مترات) ، ويقوم الشلال الاول فاصلا بينهما ، ومنطقة الشلال صعبة مليئة بالصخور ، لا تستطيع المراكب السير فيها الا بالحيلة ، ودلالة ذلك ـــ كما يروى المقريزى ـــ من يخبر ذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك (٥١) . وازاء ذلك كان لابد لسفن النوبـــة أن تتوقف عند بلاق لعدم استطاعتها السير شمالا خلال منطقة الشـــلال الوعرة ، كذلك كان من المحتم أن تتوقف سفن المسلمين الآتية من أسوان ، اذ لا تستطيع السير جنوبا الا بصعوبة . اذا لم يكن اختيار قرية بلاق ، كأحد الاسواق للتعامل التجارى بين مصر والنوبة اختيارا عفويا ، بل هـــو اختيار حتميه الظروف الطبيعية فى منطقة الشلال .

والملاحة النهرية من أسوان الى وادى حلفا تتصف بالصعوبة والمشاق ، اذ أن النيل جنوب أسوان لا يهيىء طريقا سهلا للمراكب . فالشلال الاول كما سبق أن قلنا ـــ ملىء بالصخور التى كانت تعوق السفر جنوب مصر ، غير أن الاهالى اتخذوا لمرور السفن بين الشلالات طرقا معينة يعرفونها . كربطها بأحبال وجرهـــا بين تلك الصخور حتى تمر منهـــا بسلام (٥٢) . أما الشلال الثانى (شلال حلفا) المعروق بشلال عبكة ، فيعد أعظم شلال بعد شلال أسوان ، اذ يبلغ طوله حوالى ١٢ كيلو مترا ، وكانت أغلب الســـفن السودانية التى تقصد مصر بالسلع ترسو فى موردة وادى حلفا ، حيث عرفت منذ القدم لاتساعها ، وتجتمع فيها السفن الصاعدة أو الهابطة بالمتاجـــر المصرية والسودانية على البرين(٥٣) . ومن المناطق التى كانت تجد فيها المراكب صعوبة فى السير ، منطقة كروسكو ، فالنيـــل فى تلك المنطقـــة ينعطف الى

---

(٥٠) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٨٩ ، أبو صالح الارمنى : تاريخه ورقة ١٠١ أ .
(٥١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٨ .
(٥٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ ص ٧٣ .
(٥٣) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

الشمال الغربى بصورة قوس ، فضلا عن أن الريــاح الشمالية والشمالية الغربية ، لا تســاعد على سير الســفن الصــاعدة ، فيســحبها الملاحون بالحبال (٥٤) . وكانت عادة السفن قديما أن تشحن بالبضــائع من موردة كروسكو الى الشلال الاول ، فان كان وقت فيضان النيل ، أمكن للســفن أن تستمر حتى أسوان ، والا نقلت من السفن عند الشلال الاول وحملت على الجمال الى أسوان ، ثم تنقل ثانية بسفن تسير بها ناحية الشمال (٥٥) .

وعلى أيه حال ، فان الصخور والشلالات جنوب أسوان تقف عائق فى وجه السفن ، وتزيد السفر فى النيل مشقة وخطرا ، بخلاف نيل مصر مــن أسوان فنازلا شمالا ، فانه يخلو من الصخور والشلالات ، ويسهل السفر بالسفن الشراعية من اقصى البلاد الى اقصاها ، وهذا هو الذى جعل مصر منذ أقدم العصور بلادا واحدة حدها الطبيعى أسوان (٥٦) .

ولم يكتف تجار النوبة بجلب سلعهم بالسفن الى بلاق لمقابلة التجــار المسلمين وتبادل السلع معهم ، بل كانت قوافلهم تأتى الى أسوان بوصفها اكبر سوق تجارى فى جنوب مصر ، فضــلا عن أنها الســوق الوحيد الذى لا يتجاوزوه شمالا . وفى ذلك يقول المسعودى (٥٧): « والنوبة متصلة بتجارتها وقوافلها بمدينة أسوان » .

واذا كانت تجارة النوبة قد وقفت عند بلاق أو أسوان ، ولم تتوغل شمالا أبعد من ذلك ، فان التجار المسلمين كانوا على العكس من ذلك ، فساروا بسلعهم جنوب قرية القصر — آخر الحد الشمالى للنوبة المسيحية — حتى نهاية منطقة المريس . فتلك المنطقة التى تقع بين الشلال الاول والثانى ، خضعت لنفوذ حاكم عرف فى المراجع المعاصرة باسم « صاحب الجبل » .

---

(٥٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار جـ ٢ ص ٧٣ — ص ٧٤ .
(٥٥) المرجع السابق : ص ٧٤ .
(٥٦) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ١ ص ١٦ — ص ١٧ .
(٥٧) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦ .

ويبدو أن صاحب الجبل اتخذ من قرية « المقس الأعلى » عند الشلال الثانى ، مقرا لمباشرة نفوذه ، فعند تلك القرية لم يكن مسموحاً لاى شخص أن يتجاوز حدودها جنوبا ، حتى « ولو كان ملك من الملوك » الا باذن من ملك النوبة (٥٨) . اذا فالمنطقة التى سمح فيها للتجار المسلمين بمزاولة نشاطهم التجارى ، كانت تنحصر بين قرية القصر عند الشلال الاول حتى قرية المقس الاعلى عند الشلال الثانى ، أما جنوب تلك القرية ، فلم يكن مسموحا لأى تاجر بمزاولة نشاطه فيها (٥٩) .

وفى منطقة المريس ، كان التبادل التجارى بين المسلمين والنوبيين يتم بطريقتين : الدفع المباشر (النقد) ، والمقايضة . ففى الجزء الاسفل منها كانت حركة البيع والشراء تتم بطريق الدفع ، أما فى الجزء الاعلى منها ، فتتم بطريق المقايضة . ويدل على ذلك قول المقريزى (٦٠) ، نقلا عن عبد الله بن أحمد بن سليم الاسوانى — « ولا يجوزها (قرية المقس الاعلى) دينار ولا درهم ، اذ كانوا لا يتبايعون بذلك الا دون الجنادل (شلال وادى حلفا) مع المسلمين ، وما فوق ذلك لا بيع بينهم ولا شراء ، وانما هى معاوضة بالرقيق والمواشى والحبال والحديد والحبوب » . كما يروى أبو صالح الارمنى فى تاريخه (٦١) ، أن البيع والشراء فى قرية المقس الاعلى كان يتم بطريقة المقايضة

ومما يسترعى الانتباه ، أن العلاقات العدائية بين مصر الاسلامية ومملكة النوبة المسيحية فى القرون الاسلامية الاولى ، لم تؤثر فى النشاط التجارى بين البلدين . فبالرغم أن النوبيين نقضوا اتفاقية البقط مرارا ، وامتنعوا عن الالتزام بما جاء بها من شروط ، الا انهم لم يمنعوا التجار المسلمين من دخول

---

(٥٨) أبو صالح الأرمنى : تاريخه ، ورقة ٦٥ ب .
(٥٩) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٨٩ .
(٦٠) المرجع السابق : ج ١ ص ١٩٠ .
(٦١) ورقة ٦٥ ب .

الأراضى النوبية لمزاولة النشاط التجارى . وربما يرجع السبب فى ذلك الى أن مزاولة النشاط التجارى يغلب عليه — فى معظم الأحيان — الطابع السلمى ونستطيع القول أن مملكة النوبة المسيحية ، كانت تسير على مبدأ فحواه أن العلاقات التجارية بين البلدين ، لا دخل لها بالعلاقات العدائية بينهما .

وذهب بعض الباحثين الى أن تجارة مصر مع النوبة ، لم تكن بأيدى المصريين ، وانما كان تجار النوبة هم الذين يأتون فى النيل حتى منطقة الجنادل (الشلال الاول) ، ثم ينقلون بضائعهم على ظهور الجمال الى أسوان (٦٢) . كما غالى البعض ، فأضاف بقوله أن المصريين نادرا ما يتوجهون الى بلاد النوبة بهدف التجارة (٦٣) . ويبدو أن هؤلاء الباحثين قد جانبهم الصواب ، فكثيرا ما تردد التجار المسلمين الى النوبة لجلب السلع والبضائع من هناك . ويؤيد رأينا ، ما رواه الرحالة ناصر خسرو (٦٤) ؛ الذى شاهد بنفسه تجار أسوان يذهبون الى بلاد النوبة ، ومعهم الخرز والامشاط والمرجان ، ويجلبون معهم الرقيق . هذا بالاضافة الى أن منطقة المريس ، صارت مزدحمة بالمسلمين فى القرون الثلاثة الاولى التى أعقبت الفتح العربى . ولم يكن الاستقرار نتيجة فتح لتلك المنطقة ، بل جاء عن طريق التسلل السلمى للمسلمين ، ومن المؤكد أن ذلك التسلل كان بسبب النشاط التجارى الذى تركز فى تجارة الرقيق الاسود للحاجة اليهم فى أنحاء الدولة الاسلامية ، اذ أن منطقة المريس الجدباء لا تغرى بالبقاء فيها .

---

(٦٢) سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٨٠ .

(٦٣) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣٤١ .

(٦٤) سفر نامة ، ص ٤١ ، زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٨٠ . ومن المعروف أن الرحالة ناصر خسرو قام برحلة بين ٤٣٧ هـ و ٤٤٤ هـ ابتدأها من مرو فى خراسان ، مارا بأذربيجان وأرمينية بالشام وفلسطين ومصر والحجاز ونجد وجنوبى العراق ، ثم عاد الى ايران ، وقضى من رحلته ثلاث سنوات ذهب أثناءها الى الحجاز عن طريق أسوان — عيذاب . وقد مكث فى أسوان ٢١ يوما ، أمدنا عنها بمعلومات بالغة الأهمية . أنظر مقدمة عبد الوهاب عزام عن رحلة ناصر خسرو .

واتيحت الفرصة للتجار المسلمين ، أن ينفذوا بسلعهم الى ما وراء حدود منطقة المريس . وذلك عندما قام داود ملك النوبة بالاغارة على ثغر أسوان عام ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) الامر الذى أغضب بيبرس وجعله يثور ، وزاد من ثورته أن أسوان كانت أهم منفذ تجارى يطل على بلاد النوبة ، مما زاد من خطورة ذلك الإعتداء ، لذلك ارسل بيبرس حملة عام ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) ، مكنت مصر من بسط سيطرتها على مملكة النوبة (٦٥) . وبذلك فتح بيبرس الباب على مصراعيه للتجار المسلمين لمزاولة نشاطهم التجاري فى جميع أنحاء بلاد النوبة . ودرج المماليك — بعد وفاة بيبرس عام ١٢٧٧ م — على التدخل فى شئون النوبة الداخلية ، حماية لتجارتها ، وتأمينا لطريق التجارة بين مصر والنوبة (٦٦) .

ولصعوبة الطريق بين مصر وبلاد النوبة والسودان ، فضلا عن مشقته وبعده وانعدام الامن فى بعض الاحيان ، فان تجارة السودان كانت تتكلف النفقات الباهظة التى لا يقدر عليها غير التجار الذين يحملون رءوس أموال ضخمة (٦٧) . وبالرغم من ذلك فان التجـــار المسلمين كثيرا ما ترددوا على السودان لجلب بضائعه التى كانوا يجنون من ورائها الارباح الطائلة ، وفى ذلك يقول ابن خلدون (٦٨) : « سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء ، وكذلك سلعنا لديهم ، فتعظم بضائع التجار من تناقلها ، ويسرع اليهم الغنى والثروة من أجل ذلك » .

على أن دور تجار النوبة لم يكن قاصرا على جلب سلع بلادهم لاسوان فقط ، بل قاموا بدور الوساطة التجارية بين مصر والحبشة ، فأهل الحبشة

---

(٦٥) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١١٨ — ص ١٢٢ .
(٦٦) سعيد عاشور : مصر في عهد دولة المماليك البحرية ص ٨٢ .
(٦٧) ابن خلدون : المقدمة ج ٧ ص ٩١٨ .
(٦٨) مقدمة ابن خلدون : ج ٣ ص ٩١٨ — ٩١٩ .

ليسوا بأهل تجارة ، ونادرا ما يتاجرون بعيدا عن أوطانهم ، فكانوا يبيعون بضائعهم لسكان النوبة ، ثم يقوم هؤلاء باحضارها الى مصر لتصريفها فى سوق أسوان (٦٩) .

ولم يكن مسموحا لأى تاجــر أوربى تحت أى ظروف ما أن يســافر بتجارته جنوبا الى بلاد النوبة . والسبب الظاهرى لهذه السياسة ، خوف سلاطين المماليك ان يتآمر الاوربيون مع الحبشة ضد الاسلام ، أما السبب الحقيقى فهو حرص سلاطين المماليك على أن تبقى طرق التجارة فى الاراضى المملوكية سرا من اسرارهم ، لا يصل الاوربيون الى معرفته (٧٠) . ومما يؤيد ذلك الراى ، أن ثغر أسوان لم يكن ضمن الثغور المصرية التى فرضت فيها رسوم جمركية على الســلع التى يأتى بهــا التجــار الأوربيون مثل ثغر الاسكندرية (٧١) .

وفى ذكر الرسوم الجمركية ، كانت أسوان من أهم المراكز التى تجبى فيها الرسوم الجمركية على السلع التى تمر بها (٧٢) . فقد زاد من أهميتهــا أنها احدى نهايات طريق القوافل والبضائع الواردة من عيذاب ، فضــلا عن أنها كانت آخر محطة تجارية تقف عندها سلع النوبة والسودان . وقد بلغ ايراد الرسوم الجمركية فى ثغر أسوان عام ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) ٢٥٫٠٠٠ دينار (٧٣) ، أى ما يوازى ١٥٫٠٠٠ جنيه بالعملة المصرية الحالية(٧٤) . ولا ريب أن هذا الايراد قد زاد فى دولة المماليك ، بسبب ازدهار التجارة ونموها فى تلك الدولة .

---

(٦٩) Wiet : Mémoires sur l'Egypte, P. 80.

(٧٠) Ziada : Foreign Relations of Egypt in the fifteenth century, Vol. 1., P. 216.

(٧١) ابن حاتى : قوانين الدواوين ص ٣٤٩ .

(٧٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٠٨ ، ابن جبير : الرحلة ص ٦١ — ص ٦٣ .

(٧٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٩٧ .

(٧٤) عمر طوسون : مالية مصر من عهد الفراعنة الى الآن ص ٥٩ .

(ب) طرق القوافل المتجهة من أسوان الى النوبة والسودان :

أما عن طرق القوافل التجارية التى تربط مصر والنوبة والسودان عند أسوان فقد كانت ثلاثة : الطريق الاول وهو الطريق النيلى التى تسير فيه القوافل بحذاء النيل ، والطريق الثانى كانت تخترقه القوافل عبر الصحراء الشرقية وفيافيها الشاسعة ، والطريق الثالث كانت تجوبه القوافل فى الصحراء الغربية ويسمى درب الاربعين (٧٥) .

وسنتناول بالدراسة كل طريق على حدة ، حتى يتبين لنا مدى ما كانت تعانيه القوافل التجارية من تعب ومشاق ، من أجل تبادل السلع والبضائع بين مصر والسودان .

١ ــ **الطريق النيلى** : وفيه تسير القوافل التجارية ــ بعد مغادرتها لأسوان ــ على الجانب الشرقى من نهر النيل ، فتمر على جزيرة فيلة (أنس الوجود بعد أربعة أميال من أسوان ، الى أن تصل قرية ساق الجمل من أعمال دابود ، ثم أودية السيالة وعبدون ودهميت(٧٦) . ومن دهميت تواصل القوافل سيرها الى قرتاس ، ثم نجع الجامع ، ثم تيفة ، ثم قرية دارموسى ، ثم وادى كلابشة وهو أكبر الوديان التى تمر بها الجمال منذ قيامها من أسوان(٧٧) . ومن وادى كلابشة تواصل القوافل سيرها الى قرية الشقيق ، ووادى هور ، وتمر على قرية دندور ، ووادى أبيض ، وقرى ماريا (مريم) قرشة وكشتمنة وجبل حياتى وقرية كوبان التى تقع تجاه معبد الدكة على الضفة الغربية للنيل ، الى أن تصل العلاقى (٧٨) . ومن العلاقى تستمر

---

(٧٥) Longfield : The Growth of Sudan Communication, P. 210-311 and Charlesworth : Trade-Routes and Commerce of the Empire, P. 19, 64.

(٧٦) بوركهارت : رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان ص ٣ ــ ص ٨ .

(٧٧) رحلات بوركهارت : ص ٩ ــ ص ١٠ .

(٧٨) رحلات بوركهارت : ص ١١ ــ ص ١٤ .

القوافل فى سيرها مارة بأودية المحرقة والسيالة ونعمة والنصرلاب والمضيق والسبوع والعرب وسنقارى الى أن تصل كروسكو (٧٩) . ومن كروسكو الى قرية بشير نيرقة ، ثم ضراب ، ثم وادى عشرا ، ثم وداى الشباك ، ثم وادى ستان (الجنيلة) ، ثم قرية توشكى ، ومنها الى قرية أرمنا ، ثم عقبة فريق حيث يقع أمامها على الضفة الغربية معبد أبو سمبل ، ثم قلعـة أدا التى تواجهها على الضفة الغربية قرية بلانة ، ثم قرى قسـطل وادندان وفرس وسرة غرب ودبيرة واشكيت ودبروسة وسـقوى ، الى أن تصـل وادى حلفا(٨٠) . وبعد أن تغادر القوافل وادى حلفا تصل الى وادى عبكة ، ثم وادى مرشد وقرية ست الحاجة ، ووادى سرس ، ووادى أتيرى ، وعقبة جبل دوشة ، ووادى أمبقول ثم وادى أم قناصر (٨١) . ومن وادى أم قناصر تسيرا لقوافل فى وادى جبلى حتى تصل الى وادى لامولة ، وبعد ذلك الوادى تنفرج الأرض حتى تصل الى وادى اكمة ، ثم مقابل جزيرة كولب وهى الطرفه الشمالى لاقليم السكوت، ثم وادى دال، ثم قرية سركاماتو(٨٢) . ومن سركاماتو تواصل القوافل سيرها الى الدابة ، ثم مجموعة من النجوع تسمى فركة ، ثم قرية مكركة ، ثم قرية كنيسة ، ثم نجع الشيخ محدرة ، ثم قرية عمارة التى تعتبر النهاية الجنوبية لاقليم سكوت (٨٣) . ومن جنوب عمارة يبدأ أقليم صاى فتسير فيه القوافل مارة بقرية عبرى وجزيرة صاى وقرية قويق ، ووادى حميدة ، ووادى عبود ، الى أن تصل عند ارو وهى الحـد الجنوبى لاقليم صاى (٨٤) . ثم تواصل القوافل سيرها الى الوادى ، ثم مجموعة من النجوع تجاه وادى تينارى ، ثم تواصل السير فى اقليم المحس ، مارة بأهم بلاده :

---

(٧٩) رحلات بوركهارت : ص ١٥ — ص ١٧ .
(٨٠) رحلات بوركهارت : ص ١٧ — ص ٣٧ .
(٨١) رحلات بوركهارت : ص ٣٨ — ص ٤٣ .
(٨٢) رحلات بوركهارت : ص ٤٣ — ص ٤٥ .
(٨٣) رحلات بوركهارت : ص ٤٦ — ص ٤٧ .
(٨٤) رحلات بوركهارت : ص ٤٨ — ص ٥٠ .

بلقو ، وكوكة ، ونورى ، وبرجه ، وفريق ، الى أن تصل حلتك حيث يبدأ جنوبها سهول دنقلة الفسيحة (٨٥) .

على ان ذلك الطريق النيلى الذى تسير فيه القوافل التجارية من اسوان حتى دنقلة ، محاذية للضفة الشرقية للنيل ، لم يكن سهلا ، فالطبيعة الصخرية لبلاد السودان على حذاء النيل بين وادى حلفا وأسوان ، فضلا عن شدة الجفاف ، كل ذلك جعل المواصلات البرية بين مصر والسودان صعبة وشاقة(٨٦) . وبالرغم مما يكتنف ذلك الطريق من وعورة ، الا ان له محاسن منها ان ذلك الطريق كان آمنا ، كذلك كانت القوافل ترد النيل للاستقاء وحمل الماء اللازم الى اليوم التالى (٨٧) . أما الطريق النيلى على الضفة الغربية ، فكانت القوافل تشقه بسهولة عن الضفة الشرقية ، فأرضه رملية سهلة السلوك ، لا صعود فيه ولا هبوط ، ويمكن السير فيه بلا خبير لوضوحها(٨٨) .

٢ ــ **طريق درب الأربعين** : أما طريق درب الاربعين ، فهى طريق قديمة ، طرقتها القوافل منذ أيام الفراعنة ، وقد خلف لنا قواد القوافل من الأسرة السادسة نقوشا على مقابرهم التى تقع على الضفة الغربية لاسوان ، وذكروا فيها رحلاتهم التى قاموا بها من اسوان ، ومن أعظم قواد القوافل حرخوف الذى خرج فى رحلته الثالثة من منطقة اسوان متخذا طريق الواحات ، ولو تتبعنا رحلته لعرفنا أنه سار على الضفة الغربية للنيل ، الى أن وصل قبيل وادى حلفا عند مكان يقال له « ساقية العبد » ، ثم سار فى طريق يصل الى واحة سليمة على درب الاربعين الذى ينتهى الى دارفور(٨٩) .
والمعروف أن الصحراء الغربية تمتاز بسلسلة من الواحات تمتد بحذاء وادى

---

(٨٥) رحلات بوركهارت : ص ٥١ ــ ص ٥٧ .
(٨٦) Arkell : A Hist. of the Sudan, P. 36.
(٨٧) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١٧ ص ٤١ .
(٨٨) نفس المرجع والمكان .
(٨٩) Arkell : Op. Cit., PP. 42-43 and
أحمد فخرى : الواحات المصريه في التاريخ ص ١٧٧ .

النيل ، فكانت القوافل تخرج من أسيوط ، وتمر جنوبا بالواحات الخارجة التى يبلغ طولها حوالى مائة ميل ، وبسلسلة من الواحات الصغيرة والقرى والآبار حتى تصل الى واحة سليمة ، ومن سليمة تسير الى بئر السلطان حتى دارفور ، وهذه الطريق الرئيسية — عبر الصحراء الغربية — يمكن الوصول اليها بطريق متقاطعة تؤدى الى الصحراء من جرجا أو سوهاج أو أرمنت أو الاقصر أو ادفو ، وبوجه خاص من أسوان التى تقع تجاه قرية المكس فى هذه الطريق (٩٠) . والطريق التى تصل أسوان بدرب الاربعين ، تتجه نحو الجنوب الغربى ، فتسير فيها القوافل التجارية مارة بواحتى كركر ودنقل ، وبئر أبو نجيل ، ثم الى واحة سليمة على درب الاربعين (٩١) . وبالاضافة الى طريق درب الاربعين التى كانت تتصل بها القوافل عند أسوان ، ثم تخترق الصحراء الغربية ، كان هناك طريقا أخرى تسلكها القوافل التى تخرج من أسوان ، فبدلا من سيرها عبر الصحراء ، كانت تسير بحذاء النيل على الضفة الغربية حتى تصل الى دنقلة ، ومنها تتجه الى دارفور، وهى طريق سهلة طالما سلكتها القوافل (٩٢) . واذا كانت القوافل التجارية التى تسير فى طريق درب الاربعين عبر الصحراء الغربية بعيدة عن النيل ، تصادف مشقة وصعوبة اثناء سيرها ، الا أنها كانت تصل الى دارفور فى زمن اقصر من الزمن الذى تستغرقه لو سلكت الطريق النيلى الى دنقلة ومنها غربا الى دارفور (٩٣) .

٣ — **طريق الصحراء الشرقية** : أما الطريق الثالث التى تصل بين

---

(٩٠) Shaw : Darb el Arbàin. (S.N.R. Vol; xII, PP. 65-67 and

(٩١) سليم حسن : مصر القديمة ، ج ١٠ ، ص ٥٥

(٩٢) MacMicheal : Nubian elements in Darfur. (S.N.R. Vol., 1., P. 31) and Shaw : Op. Cit., P. 67.

(٩٣) Shaw : Op. Sit., P. 64.

أسوان والنوبة ، فهى طريق وحيدة سار فيها الرحالة بوركهارت ، عبر الأودية التى تخترق الصحراء الشرقية . ولم تكن هذه الطريق تجلب تجارة النوبة والسودان فقط ، بل كانت تأتى أيضا بسلع الصحراء الشرقية التى تعتبر اسوان وقرية دراو ـــ شمال أسوان ـــ السوقان الطبيعيان لها . وقد شرح بوركهارت الأودية التى تتخلل الصحراء الشرقية شرحا دقيقا ، وأعطانا صورة واضحة عن نباتاتها وآبارها وأشجارها وجوها . وقد اتخذ بوركهارت من قرية دراو نقطة البداية الى رحلته لبلاد النوبة عبر الصحراء الشرقية بـــدلا من أسوان . وأول واد تصل اليه القوافل بعد مغادرتها دراو هو وادى أم ركبة ، ثم وادى قريب من عين ماء أسمها أبو كبير ، الى أن تصل عقبـــة تنتهى عندها الرمال ، وبعد أن تعبر القوافل تلك العقبة تصل الى مكان قريب من أسوان يسمى أبو عجاج ، ويبدأ خلف أبو عجاج درب ضيق بين الصخور لا تمر فيه الجمال المحملة الا بصعوبة ، ثم وادى هود وهو واد عريض يحفل بالشجيرات والاعشاب ، ثم وادى أم الحبال الذى عرف بذلك لكثرة ما به من منحنيات (٩٤) . وبعد أن تغادر القوافل وادى أم الحبال تصـــل مكانا ماؤه عذبا اسمه دمحيت ، والى الجنوب الغربى منه نبع ماء صاف يدعى المويلح تؤمه القوافل الخارجة من اسوان (٩٥) . ثم تستأنف القـــوافل السير حتى تصل الى جبل أم حريزل وجبل هزرية وصخور بيبان الى أن تصل وادى نقيب الذى يحفل بأشجار السنط ، ثم وادى حيموز فيه آبار مذاقها عاق كريه ، ثم بئر المرة وهى جديرة باسمها حين يقارن ماؤها بماء النيل العذب(٩٦) . وبعد ذلك تصل القوافل الى وادى علاقى الذى يمتد من الشرق الى الغرب ، وينتهى أحد طرفيه قرب البحر الأحمر ، والآخر قرب النيل ، والوادى عامر بالكلأ والشجر الكثير ، ثم بعد ذلك وادى ام قات وهو حافل بأشجار السنط

---

(٩٤) رحلات بوركهارت : ص ١٣٨ ـــ ص ١٤١ .

(٩٥) رحلات بوركهارت : ص ١٤٢ .

(٩٦) رحلات بوركهارت : ص ١٤٤ ـــ ص ١٤٩ .

الكثيرة ، ثم تدخل القوافل سهلا رمليا فسيحا الى أن تصل وادى الطواشى ، ثم تنحرف الى الجنوب بميل قليل للشرق حتى تصل الى وادى أبو بروش ، ثم وادى أم برد(٩٧) . وتواصل القوافل السير فى سهل رملى ينتهى بوادى نابه الذى تنتشر فيه أشجار الدوم ، وبه أبار بعضها ضارب الى الملوحة ، والآخر لا بأس به ، ثم تدخل القوافل وادى طرغاوى وهو منسوب الى أشجار الطرفاء التى تنمو به ، وتستمر فى السير جنوبا الى أودية كوع وصفيحة وأم دوم (٩٨) . وتغادر القوافل وادى أم دوم ، فتدخل جبال شقرة ، ثم تسير باتجاه الى الجنوب مع انحراف قليل للغرب مارة بوادى ذبقبة ووادى زيناتيب(٩٩) . والجدير بالذكر أن طريق القوافل منذ خروجها من أسوان أو دراو طريقا عريضة مطروقة ، لا يمكن أن يضل عنها من خرج فى رحلة من قبل ، اذ قل أن تغير الطريق اتجاهها ، ويستطيع المسافر أن يهتدى بمعالم الجبال الواضحة على الجانبين ، أما الى الجنوب من شقرة فلا تجد دربا مطروقا أو جبالا يهتدى بها ، لذلك لا تستغنى القافلة فى سيرها عن بصر الدليل القوى وخبرته الطويلة(١٠٠) . ثم تواصل القوافل سيرها صوب الجنوب الغربى فوق سهل فسيح الى أن تصل وادى ديموكايب ، ثم وادى أبو خى ، ثم آبار النجيم ، ثم تمر القوافل على وادى حلهب ووادى عامور الحافل بأشجار السلم والسنط ، ثم وادى أبو سلم وهو أيضا غنى بأشجار السلم(١٠١) وبعد ذلك تواصل القوافل سيرها صوب الجنوب الغربى ملتزمة نهر النيل تقريبا ، حتى تصل الى وادى قليل الشجر هو وادى الحمار ، ثم تخترق عدة وديان الى أن تصل الى وادى زاخر بالشجر يدعى وادى بلم (او سلم) ، وعند ذلك تدنو القوافل من النيل حتى تصل قرية النخيرة أهم

---

(٩٧) رحلات بوركهارت : ص ١٤٩ — ص ١٥٢ .
(٩٨) رحلات بوركهارت : ص ١٥٢ — ص ١٥٧ .
(٩٩) رحلات بوركهارت : ص ١٥٧ — ص ١٦٠ .
(١٠٠) رحلات بوركهارت : ص ١٦٠ .
(١٠١) بوركهارت ، ص ١٦٠ — ص ١٦٤ .

قرية فى اقليم بربر(١٠٢) وتستغرق المسافة من دراو — أو أسوان — الى اقليم بربر ما يقرب من ستة أو سبعة عشر يوما على ظهور الحمير ، أما على ظهور الجمال فانها تستغرق ثمانية أيام ، وقد تستغرق رحلة القوافل الى بربر شهرا اذاهطل المطر بغزارة وجرى المـاء على الطـريق (١٠٣) . وبعد أن تغادر القوافل اقليم بربر تصل الى اقليم رأس الوادى ، ثم الى نهر مقرن الذى يمثل الحد بين اقليم رأس الوادى والدامر ، وبعد ذلك تبتعد القوافل عن النيل حتى تبلغ حوابة ، ثم تمر بقرى قباتى وجبيل أم على ودوا حتى تصل الى سهل بيوضة ، ومنه الى مدينة شندى (١٠٤) .

(جـ) دور أسوان فى تجارة البحر الأحمر :

لعب البحر الأحمر دورا كبيرا فى التجارة بين الشرق والغرب فى العصور القديمة والوسطى . ففى العصر البطلمى كان ميناء برنيقى Berenice هو الميناء الرئيسى للتجارة الخارجية على ساحل البحر الأحمر ؛ ومنه كانت تنقل تجارة الشرق عبر وديان الصـحراء الشرقية حتى مدينة قفط حيث ينتهى طريق التجارة فى جنوب مصر(١٠٥) . ومن قفط كانت السلع تسلك طريق النيل حتى مدينة الاسكندرية — عاصمة البلاد اذ ذاك — ، ومنها الى أسواق الغرب عن طريق البحر المتوسط . وفى بعض الأحيان كانت السفن تواصل سيرها فى البحر الأحمر ، حتى تصل الى ميناء القلزم (السويس حاليا) فى الشمال ، ثم تسير فى القناة الفرعية التى تربط بين النيل والبحر الأحمر عن طريق البحيرات المرة ووادى طميلات ، وقد حفر الفراعنة تلك القناة ثم اهتم بها البطالمة والرومان ، وبعد ذلك تصل السفن الى الاسكندرية(١٠٦) .

---

(١٠٢) رحلات بوركهارت : ص ١٦٥ — ص ١٦٩ .
(١٠٣) رحلات بوركهارت : ص ١٦٩ — ص ١٧٠ .
(١٠٤) رحلات بوركهارت : ص ٢٠٠ — ص ٢١٤ .
(١٠٥) Klunzinger : Upper Egypt, P. 249.
(١٠٦) سيدة كاشف : مصر في عصر الولاة ص ١٦٦ .

ولما فتح العرب مصر فى القرن السابع الميلادى ، أصبح البحر الأحمر أشبه ما يكون ببحيرة تفصل بين مركز الدولة الاسلامية فى المدينة المنورة ، وبين أهم الأقاليم التى تتبعها وهى مصر ، ولأجل ذلك ظهرت موانى وثغور على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر ربطت بين مصر والحجار ، ومن أهم تلك الثغور عيذاب التى حظيت بشهرة واسعة (١٠٧) .

وبالرغم من اجماع المؤرخين المسلمين على أن عيذاب تقع تجاه مدينة جدة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، الا أن الباحثين المحدثين اختلفوا فى تحديد موقعها . فبكر Becker يرى أن عيذاب كانت أحد الموانى البطلمية التى عرفت بميناء عديب Aidip وهو يقع على الخرائط الحديثة جنوب خط عرض ١٢ درجة شمالا(١٠٨) . ويرى البعض أن عيذاب تقع فى شمال راس علبة فى منتصف المسافة بين بيرينيس ورأس راوية(١٠٩) ، وان كان البعض يرجح أن موقعها رأس علبة ، فوق خط عرض ٢٢ درجة بقليل(١١٠) . كما يرى البعض أن عيذاب تقع فى المكان المعروف الآن برأس راوية(١١١) . أما الرحالة بنت Bent ، فيرى أن موقعها الحالى ميناء يسمى سواكن الكاضم التى تقع شمال مرسى حلايب ، اذ عثر فى ذلك المكان على بقايا بيوت قديمة وبسط التلال(١١٢) ، غير أن البعض يرى أن سواكن الكاضم تقع الى الشمال من جدة ، الأمر الذى يخالف ما كتبه الجغرافيون المسلمون الذين يؤكدون أن عيذاب تقع تجاه جدة ، ويرجح أن رأس الحدارية هو المكان الحالى لعيذاب القديمة (١١٣) .

---

(١٠٧) سعاد ماهر : محافظات الجمهورية ص ١٨١ — ١٨٢ .
(١٠٨) Ency. of Islam. Art. Aidhab.
(١٠٩) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٢٨١ .
(١١٠) جورج فضلوحورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ص ٢٣٤ .
(١١١) نعوم شقير : تاريخ السودان ج ١ ص ٦٨ .
(١١٢) Bent : Visit to Northern Sudan (J.R.S. 1896) p. 336.
(١١٣) سليمان عطية سليمان : سياسة المماليك فى البحر الأحمر ص ٦ .

وعلى أية حال ، فان عيذاب بدأت ميناء صغيرة أول الأمر ، ثم أخذت في النمو تدريجيا حتى غدت تنافس ميناء القصير التى لعبت دورا كبيرا فى تجارة البحر الأحمر قبل القـــرن الخامس الهجـــرى ؛ وازدهرت فى القرنين الخامس والسادس للهجرة ، اذ صار التجار والحجاج — خاصة فى العصر الفاطمى — يفضلونها على ميناء القصير ، ومن الأسباب التى أدت الى ازدهار التجارة فى عيذاب تحول طريق التجارة الفاطمية صوب الجنوب ، لاشتداد النزاع بين الفاطميين وسلاجقة بغداد ، واستيلاء الصليبيين على أيله عام ٥١٠ هـ (١١١٦ م) (١١٤) . ومما زاد فى أهمية عيذاب أن الفاطميين اتخذوها قاعدة حربية لهم على البحر الأحمر (١١٥) وظلت عيذاب ميناء مصر الرئيسى حتى قيام دولة المماليك عام ١٢٥٠ م . فقد شاءت ظروف تلك الدولة أن يكون قيامها مرتبطا بازدهار طريق البحر الأحمر ، واضمحلال ما عداه من طرق التجارة الأخرى التى تصل بين الشرق والغرب ، نتيجة لاستيلاء المغول على بغداد عام ١٢٥٨ م ، وتعطل طريق التجارة بين الصين من ناحية وآسيا الصغرى وموانى البحر الأسود من ناحية أخرى(١١٦) .

وطرق القوافل بين عيذاب والنيل تنتهى عند ثلاثة نهايات : أسوان وأدفو وقوص ، غير أن أسوان كانت أقدمها(١١٧) . وقد وصف لنا الرحالة ناصر خسرو الطريق من أسوان الى عيذاب ، عندما غادر الأولى فى ٥ ربيع الأول عام ٤٤٢ هـ (٢٩ يوليو ١٠٥٠ م) لأداء فريضة الحج ، فقال : « بعد ثمانية فراسخ من رحلتنا (أسوان) بلغنا جهـــة تسمى « ضيقة » ، وهى واد فى الصحراء على جانبيه حائط من الجبال ، وسعته مائة ذراع ، وقد حفر فيـــه بئر يخرج منه ماء كثير ، ولكنه ليس عذبا . وبعد أن تركنا ضـــيقة ، سرنا خمسة أيام فى صحراء لا ماء فيها ، وكان مع كل منا قربة ماء . ثم بلغنا منزلا

(١١٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٠٢ .
(١١٥) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .
(١١٦) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .
(١١٧) Ency. of Islam. Art. Aidhab

يسمى « الحوض » وهو جبـل حجرى فيـه عينان يتفجر منهما ماء عذب يستقر فى حفرة ، ولم يكن بد من أن يذهب رجـل الى حيث العينين ليحضر المـاء لشرب الابل ، التى مضى عليها سبعة أيام لم تشرب منها ولم تأكل ، اذ أن علفها قد نفذ كله . وكانت تستريح مـرة فى الأربع وعشرين ساعة ، وذلك من الوقت الذى تشتد فيه حرارة الشمس حتى صلاة العصر ، وتسير بقية الوقت . والمنازل التى ينزلون بها معلومة ، فليس ممكنا النزول فى أى مكان ، لتعذر وجود ما توقد به النار . أما فى هذه المنازل فانهم يجدون بعر الابل ، فيتخذونه وقودا يطبخون عليه ما تيسر ، وكأن الابل تعلم أنها ان أبطأت ماتت عطشا ، فهى تسير غير محتاجة لأن يسوقها أحـد ، متجهة من تلقاء نفسها ناحية المشرق فى هذه الصحراء حيث لا أثر أو علاقة تدل على الطريق . وهناك أمكنة يقل فيها المـاء مسافة خمسة عشر فرسخا ويكون ملحا ، وأمكنة لا يوجد فيها ماء قط ، مسافة ثلاثين أو أربعين فرسخ . وفى العشرين من ربيع الأول عام ٤٤٢ هـ (٢ أغسطس ١٠٥٠ م) بلغنا مدينـة عيذاب ، ومن أسوان حتى عيذاب التى بلغناها بعد خمسة عشر يوما مائتا فرسخ بالتحديد » (١١٨) .

ورغم هذه الصعوبات التى نجدها فى وصف ناصر خسرو لطريق أسوان ـ عيذاب والتى منها شدة الحرارة ، وقلة الماء فى الصـيف ، الا أن ذلك الطريق امتاز عن طريق قوص ـ عيذاب بقصره ، فالطريق الأول تقطعـه القوافل فى خمسة عشر يوما . أما الطريق الثانى فتقطعه القوافل فى سبعة عشر يوما (١١٩) . هـذا بالاضافة الى أن طريق أسـوان ـ عيذاب كانت آمنة(١٢٠) . ومن الراجح أن التجار كانوا يفضلون السفر الى عيـذاب من أسوان بدلا من قوص . وربما يعترض سائل أن قوص أقرب من أسوان ،

(١١٨) ناصرو خسرو : سفر نامة ص ٧٢ .
(١١٩) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٠٢ .
(١٢٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٥ ٢ .

ولكننا نرد عليه ان نهر النيل كان خير سـبيل للسـفر المريح من قوص الى اسوان . فضلا عن أن أسوان كانت ثغرا هاما للتجارة مع النوبة ، الأمـر الذى يتيح الفرصة للتجار المسافرين لتبادل التجارة .

وكان لتجار أسـوان وكلاء فى عيذاب لتسـهيل التجارة ، واستقبال السلع وتصديرها من ذلك الميناء . ويؤكد ذلك أن ناصر خسرو لما أراد مغادرة أسوان فى طريقه الى عيذاب ، ومنها الى الحجاز ، أخذ من تاجر فى اسوان يدعى أبو عبد الله محمد بن فليج كتابا الى وكيله فى عيذاب جاء فيه : « اعط ناصراً ما يريد ، وهو يعطيك صكا للحساب » ، فلما أنفق ناصر خسرو ما معه من المال فى عيـذاب أعطى الورقة التى يحملها للوكيل ، فأعطاه ما أراد بعد أن أخذ منه صكا بذلك ، وقام الوكيل بدوره بارسال الصك الى أسوان(١٢١) . ونلمس من ذلك ضخامة حجم التجارة بين اسـوان وعيذاب فضلا عن تقدم المعاملات الاقتصادية ، فقد استخدم تجار أسوان ما يشبه النظام المصرفى الحديث فى طريقة دفع الأموال ، حتى تكون الأموال مأمونة من الضياع ، وبعيدة عن متناول اللصوص وقطاع الطرق .

ولا جدال فى أن تحول التجارة الى عيذاب ، قـد أدى الى انتعاش كبير فى حالتها الاقتصادية ، لما تبع هذا التحول من جباية المكوس على السفن الآتية من الحبشـة وزنجبار واليمن (١٢٢) والشرق الأقصى . كمـا استفاد الأهالى من اشتغال عدد كبير منهم فى شحن السلع وتفريغها ، مما أدى الى رخاء أهل عيذاب ونشر الأمن بينهم (١٢٣) . ولا ريب أن رخـاء عيذاب قـد انعكس على أسوان نتيجة الحركة التجارية التى شهدها ذلك الميناء . فلابد وان اهالى أسوان ربحوا من جراء نقل البضائع من عيذاب الى أسـوان

---

(١٢١) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٧٤ .
(١٢٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٠٢ .
(١٢٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٧ .

وبالعكس . ويبدو أن أجور النقل كانت محددة ولا تترك لحرية الأفراد ، فقد دفع ناصر خسرو دينارا ونصف دينار للعبور من أسوان الى عيذاب (١٢٤) . ولا يعتبر الأجر مرتفعا بالنسبة الى هذه المسافة التى تقطعها الابل فى خمسة عشر يوما فى طريق يتصف بشدة الحرارة وقلة المـــاء ، فكانت أجرة الجمل فى اليوم الواحد درهما ونصف درهم باعتبار الدينار يساوى ١٥ يوما (١٢٥) .

هذا بالاضافة الى أن استخدام طريق أسوان ــ عيذاب مسلكا للحجيج فى ذهابهم الى جدة وايابهم منها ، ما يقرب من قرنين من الزمان ، منذ عام ١٠٦٧ م ــ أيام المستنصر بالله الفاطمى ــ حتى عام ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) ، وهو التاريخ الذى أعاد فيه بيبرس طريق الحج القديم (١٢٦) ، زاد من رواج التجارة فى أسوان . فمن البديهى أن الحجيج كانوا يقضون حوائجهم من مواد تموينية وغيرها من أغراض من أســـوان ، أثناء ذهابهم الى الحجـــاز لأداء فريضة الحج ، وعودتهم .

وتنبه الصليبيون الى المكانة التى احتلتها عيذاب فى تجارة الشرق ، فحاولوا القضاء عليها . فقاد أرناط الصليبى ــ صاحب الكرك والشوبك ــ حملة صليبية عام ١١٨٣ م بهدف الاستيلاء على الحرمين الشريفين ، وتحطيم تجارة البحر الأحمر . وتمكن أرناط من تحطيم السفن التجارية الراسية فى عيذاب ، ولكن صلاح الدين الأيوبى أسرع باصدار تعليمات عاجلة الى أخيه العادل ، فأعد الأخير أسطولا قويا أسند قيادته لحسام الدين لؤلؤ ، الذى أستطاع احباط تلك المحاولة الصليبية (١٢٧) .

واذا كانت أسوان أقدم محطة تجارية ارتبطت بعيذاب ارتباطا وثيقا ،

---

(١٢٤) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٧١ .
(١٢٥) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٢٦٦ .
(١٢٦) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٠١ .
(١٢٧) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٨٥ ، ابن جبير : الرحلة ص ٥٧ ــ ٥٦ ، بن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٥٧٨ هـ ، ابن ايبك : كنز الدرر ورقة ٥١ .

الا أن ذلك الارتباط قد خفت حدته نتيجة لظهور مدينة قوص كمنافس خطير لأسوان . فما من مرجع معاصر لدولة المماليك تناول الحديث عن تجارة البحر الأحمر ، الا ذكرها مقترنة بمدينة قوص . صحيح أن أسوان أقدم فى النشاط التجارى من قوص ، اذ أن الأخيرة لم يظهر نشاطها الا منذ القرن الخامس الهجرى ، عقب أفول المركز التجارى لمدينتى قفط والأقصر(١٢٨) . وفى تصورنا أن قوص أخذت مكانة اسوان فى تجارة البحر الأحمر منذ بداية عصر المماليك . وربما يرجع السبب فى تضييق الصلة التجارية بين أسوان وعيذاب لعاملين : العامل الأول يتركز فى تحول طريق الحج من اسوان الى شمال مصر ، عندما أخرج السلطان الظاهر بيبرس قافلة الحاج بالطريق البرى عام ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) كما سبق أن ذكرنا . أما العامل الثانى فيرجع الى أن نسبة كبيرة من تجار الكارم(١٢٩) فى عصر المماليك ، قد أتخذت من قوص مركزا هاما ، وسوقا واسعا لتجارتها ، علاوة على أن تجار الكارم قد أسسوا فى قوص نقابة لأنفسهم ، سيطرت على تجارة التوابل والبخور والعاج واحتكرتها أحيانا ، وصار لهذه النقابة رئيس معترف به من قبل حكومة المماليك ، أطلق عليه اسم رئيس الكارمية (١٣٠) .

ومن المعروف أن تجارة البحر الأحمر — بين الشرق والغرب — هيمن عليها تجار الكارمية منذ العصر الأيوبى ، حتى أضحوا أهم طبقة تجارية (١٣١) . وازدادت اهميتهم فى دولة المماليك التى قامت ثروتها على التجارة . فكانوا

---

(١٢٨) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ٢٩٠ .

(١٢٩) عرف تجار الكارم بذلك الاسم نسبة الى مملكة الكانم وهى منطقة في السودان الغربى ، كما عرفوا أحيانا باسم التكرور نسبة الى ملك التكرور . (أنظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٠٩) . ويرى بوركهارت في رحلاته ص ٣٢١ أن أسم التكرور لا ينسب الى بلد تدعى تكرور ، كما يظن جميع الجغرافيين العرب ، وانما هذا الاسم مشتق من الفعل تكرر (أى تنقى) ، بمعنى أن المشاعر الدينية للتكارنة قد تنقت وتطهرت بحفظ القرآن والحج . ونعتقد أن رأى بوركهارت في هذا الصدد خروج عن المألوف .

(١٣٠) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩١ .

(١٣١) صبحى لبيب : التجار الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى ص ١١ .

يجلبون الى دولة المماليك أهم سلع تهافت عليها الأوربيون ، ودفعوا فيهـــا الثمن المرتفع ، ومن تلك السلع التوابل والفلفل والبهار والبخور والقرنفل(١٣٢) . ولم يقتصر النشاط التجارى لطائفة الكارمية على تجارة البحر الأحمر ، بل ساهموا فى النشاط التجارى للسودان وأواسط افريقية ، وجلبوا سلعهـــا الى مصر . ولضخامة حجم التجـــارة الكارمية ، فان التاجر الكارمى درب أولاده ومن تخيرهم من عبيده ذوى الفطنة ، على مباشرة اعماله التجارية الواسعة ، فأرسلهم الى الأسواق الكبرى فى مصر والحجاز واليمن والهند وبلاد التكرور وغيرها ، كما أتخذ الوكلاء والعبيد لجلب سلع تلك البـــلاد التى يفدون اليها أو يستقرون بها(١٣٣) . ومن الطبيعى أن تجار الكارمية أو وكلائهم جابوا مناطق السودان من أجل جلب السلع التى تميزت بها ، مثل الرقيق وريش النعام والأبنوس والعاج وغيرها . ولهذا ، فانهم اتخذوا من ثغر أسوان مركزا هاما ، لتشغيل حركتهم التجارية فى السودان .

(د) أهم السلع الواردة من السودان والصحراء الشرقية الى أسوان :

(الذهب) :

أتخذت معادن الذهب فى تاريخ مصر القديمة مكانة كبيرة ، فقد أرسل الفراعنة حملاتهم العسكرية الى الصحراء الشرقية لجلب الذهب ، وأجبروا أهالى تلك المنطقة للعمل فى مناجم الذهب ، واستغل البطالمة والرومان من بعدهم تلك المنـــاجم حتى القرن الرابع الميلادى ، ومنذ ذلك الوقت توقف استخراج الذهب (١٣٤) .

ولـــا فتح العرب مصر ، استعادت مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية نشاطها ، وبدأت القبائل العربية تفد الى أسوان بأعداد هائلة فى القرون

---

(١٣٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩٠ — ص ٢٩١ .

(١٣٣) صبحى لبيب : التجار الكارمية ص ٣١ .

(١٣٤) Bloss : Relics of Ancient gold miners. (S.N.R. Vol. XIX, p. 313).

الاســلامية الأولى طلبا للذهب ، لقرب مناجمه بالعلاقى من أســوان . المسعودى(١٣٥) يقول : « وأقرب العمارة اليه (معــدن الذهب بالعلاقى) مدينة أسوان » . وتستغرق المسافة من أسوان الى العلاقى مسيرة خمسة عشر يوما(١٣٦) . على أن منــاجم الذهب الموجودة بالصــحراء الشرقية لم تقتصر على منطقة العلاقى فقط ، بل وجدت مناجم اخرى كثيرة حدد أماكنها اليعقوبى فى كتابه البلدان (١٣٧) قائلا : « فمن أراد الذهب خــرج من أسوان الى موضع يقال له الضيقة بين جبلين ثم البويب ، ثم البيضية ، ثم بير ابن زياد ، ثم عذيفر ، ثم جبل الأحمر ، ثم جبل البياض ، ثم قبر أبى مسعود ، ثم عفار ، ثم وادى العلاقى ، وكل هذه المواضع معادن التبر التى يقصدها أصــحاب المطالب . ومن العلاقى الى موضع يقال له وادى الجبل (كذا) مرحلة ثم الى موضع يقال له عتب (كذا) ثم الى موضع يقال له كنار (كذا) يجتمع الناس به لطلب التبر . ومن العلاقى الى معدن يقال له بطن واح مرحلة . ومن العلاقى الى موضع يقال له أعماد مرحلتان ، والى معــدن يقال له ماء الصخرة مرحلة ، والى معدن يقال له الأخشاب مرحلتان ، والى معدن يقال له ميزاب ، والى معدن يقال له عرنه تعما (كذا) مرحلتان . ومن العلاقى الى بركان (كذا) وهى آخر معادن التبر التى يسير اليها المسلمون ثلاثون مرحلة . ومن العلاقى الى موضع يقال له د ح . ومن العلاقى الى معدن يقال له سختيت عشر مراحل . فهذه المعادن التى يصل اليها المسلمون ويقصدونها لطلب التبر » .

ولمــا كان الطريق الذى يؤدى الى مناجم الذهب بالصحراء الشرقية يبدأ السلوك اليه من أسوان ، لذا كان من الواضح أن تتجه كميات الذهب

---

(١٣٥) مروج الذهب ، ص ٢٦ .
(١٣٦) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٢ .
(١٣٧) ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

التى يتم استخراجها الى تلك المدينة . ومن ثم صارت اسوان سوقا كبيرة يتبادل فيه التجار بيع وشراء الذهب . ويدل على ذلك قول اليعقوبى(١٣٨) عن أسوان « وبها تجار المعادن » .

أما عن طريقة استخراج الذهب بالعلاقى ، فكان طلابه يتجولون هناك فى الليالى التى يضعف فيها ضوء القمر (أو ليالى الشهر العربى) ، فيضعون علامة على مواضع الرمال التى يرون فيها شيئا مضيئا ، ويبيتون هناك ، حتى اذا أصبح الصباح حملوا أكوام الرمل التى علموا عليها ، وذهبوا بها الى آبار هناك ليغسلوها بالماء ويستخرجوا منها الذهب ، ثم يمزجونه بالزئبق ، ويسبكونه فى البوادق (١٣٩) . ولم تكن تلك الطريقة هى الوحيدة التى يتم بها استخراج الذهب ، بل كان للتجار وغيرهم عبيد يعلمون فى الحفر ، ثم يستخرجون الذهب من مناجمه الزرنيخ الأصفر ويسبكونه (١٤٠) . ويبدو أن استخراج الذهب من منطقة العلاقى كان يكلف نفقات باهظة ، فأبو الفدا يقول (١٤١) : « يتحصل منه (الذهب) بقدر ما ينفق فى استخراجه» .

وفى منتصف القرن الثالث الهجرى ، توافد الى اسوان كثير من المغامرين الطامعين فى مدن الذهب بالعلاقى والمناجم الأخرى . ومن اولئك عبد الرحمن العمرى الذى اتى اسوان بعد أن سمع بأخبار الذهب ، واشترى عبيدا للحفر فى المناجم ، ثم نزح بهم من اسوان الى العلاقى (١٤٢) .

ولهذا اصبحت اسوان مركز امدادات التموين للقبائل العربية العديدة الموجودة فى مناجم الذهب ، فداب تجار اسوان على التوجه الى مناجم الذهب ومعهم المواد التموينية . فمن ذلك عندما كتب العمرى الى اسوان

---

(١٣٨) البلدان ص ٣٣٤ .
(١٣٩) ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ٦٥ .
(١٤٠) اليعقوبى : البلدان ، ص ١٢١ .
(١٤١) تقويم البلدان ص ١٢١ .
(١٤٢) المقريزى : المقفى ص ٤ .

يسأل التجار المساعدة والخروج اليه بالجهاز ، خرج اليه رجـل يعرف بعثمان بن حنجلة التميمى فى ألف راحلة (١٤٣) .

ومن الملاحظ أن معدن الذهب الذى يتم استخراجه من مناجم الصحراء الشرقية ، كان يكفى لتزويد دور سك النقود حتى العصر الفاطمى ، أما فى نهاية عام ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) — أى فى عصر الأيوبيين — فقد خف الذهب نتيجة لانهاك مناجمه ، ففى نهاية عهد صلاح الدين الأيوبى ، صارت دور السك اثنتين بعد أن كانت خمسة ، وندر وجود الدنانير الذهبية ، وفى دولة المماليك صارت سبائك الذهب ترد من مملكة الذهب مالى (التكرور) التى وصفت فى المراجع المعاصرة ببلد الذهب (١٤٤) .

(الزمرد) : عرف المصريون القدماء مناجم الزمرد بالصحراء الشرقية فى المناطق المتاخمة لأعالى الوجه القبلى ، فقد ذكرها استرابون وبلينى ، وحددا موقعها فى تلال البحر الأحمر ، على نفس خط عرض أسوان . والى الشمال قليلا من الميناء البطلمى برينيقى (١٤٥) .

والزمرد الموجود فى صحراء البحر الأحمر المتاخمة لأقاصى مصر العليا ، نوع يعـرف فى علم المينرالوجيا بالبريل Bérylle ، وتركيبه الكيميـائى هـو : Be 3AL2 : Sios) 6 وهـو يتبلور بصفة منشور مضاعف ذى شكل مسدس يحوى هرمين ، تتراوح صلابته بين ١ — ٢ و ٧ — ٨ ، ووزنـه النوعى ٢ر٦٧ — ٢ر٧٦ ، ويكون شفافا فى صفاء الماء أو نصف شفاف ، وله لمعان زجاجى ، ويتراوح لونه فى مصر خاصة بين الأخضر والأزرق

---

(١٤٣) المرجع السابق ص ٧ — ص ٨ .

(١٤٤) Darrag : L'Egypte sous le régne de Barsbay, pp. 91 - 92.

(١٤٥) Kirwan : Studies in the Later Hist. of Nabia, (.L.A.A.A., Vol. XXIV, p. 78) &
Heyd : Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age. Vol. 2, pp. 651 - 652.

الكاشف ، ونادرا ما توجد فيه خضرة كاشفة ممزوجة بصفرة (١٤٦) . أما نوع الزمرد المرغوب فيه فهو الأخضر النضر ، ويوجد ضمن الطلق (الميكا) وصخور الجرانيت والبجماتيت ويندر وجوده بين النضار الشيستى أو الأحجار الجيرية ، وفى صحراء مصر العليا يكون بين الطلق وما تفتت عن هذه المادة (١٤٧) .

وقد حدد التيفاشى أصناف الزمرد بأربعة هى : الذبابى والريحانى والسلقى والصابونى ، «فأغلاه وأثمنه وافضله فى جميع الخواص الذبابى ، وهو أخضر مغلوق اللون جدا ، لا يشوب خضرته شىء آخر من الألوان . . . وأما الريحانى مفتوح النون كلون ورق الريحان ، وأما السلقى كلون السلق ودونه الصابونى كلون الصابون » (١٤٨) .

والجدير بالذكر هنا ، أن مناجم الزمرد لا تتجاوز حدود مصر ، وبعبارة اخرى لا يوجد الزمرد فى بلاد النوبة ، بل تقع مناجمه فى بلاد البجة (الصحراء الشرقية) فى مرتفعات البحر الأحمر ، على حدود مصر والنوبة (١٤٩) . وقد حدد التيفاشى الذى مارس مهنة المعدنيين فى مصر ، وكان على اتصال قوى بهم فى عهد السلطان الكامل الأيوبى مكان استخراج الزمرد قائلا « الزمرد يتكون فى التخوم بين بلاد مصر والسودان خلف أسوان جبل ممتد كالجسر ، فيه معادن تحفر ، فيخرج منها الزمرد قطعا » (١٥٠) .

كانت الطرق المؤدية الى مناجم الزمرد فى الصحراء الشرقية ثلاثة . منها طريق تسلكها القوافل بعد أن تغادر مدينة قفط ، حتى تصل الى

---

(١٤٦) محمد يحيى الهاشمى : الزمرد في مصر ص ٦٩٨ .
(١٤٧) نفس المرجع والمكان.
(١٤٨) التيفاشى: أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ص ١٥ .
(١٤٩) البيرونى : الجماهر في معرفة الجواهر ص ١٦٢ ،
(١٥٠) التيفاشى : أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ص ١٤ .

أول منجم فى تلك الصحراء يسمى « خربة الملك » ، بعد أن تقطع مسافة تبلغ ثمان مراحل (١٥١) . كما كان التجار يسلكون الطريق الى مناجم الزمرد من قوص ، حتى يصلوا اليها بعد ثمانية أيام من السير المعتدل (١٥٢) . أما أقرب الطرق التى توصل الى مناجم الزمرد ، فهى التى تبدأ من أسوان (١٥٣) . ومن الملاحظ أن مناجم الزمرد تقع فى منطقة جبلية قاحلة ، بعيدة عن العمران ، ولعدم وجود آبار كان العاملون فى المناجم يحصلون على مياه الشرب من الماء الذى يتسرب فى الأودية نتيجة هطول المطر النادر ، وتبعد تلك المياه مسيرة نصف يوم أو أزيد (١٥٤) .

أما الزمرد الذى يستخرج من مناجم الصحراء الشرقية ، فقد كان يحمل الى الفسطاط أو القاهرة ، ثم الى الأسواق الخارجية (١٥٥) ، ومن الأسواق الخارجية الى أوربا ، اذ كان الشائع فى أوربا العصور الوسطى اعتقاد الناس أن بعض الأحجار الكريمة يطرد الأرواح الشريرة ، والبعض الآخر يضفى على الفرد سلامة الجسم والعقل (١٥٦) .

ولم يزل الزمرد يستخرج من المناجم فى الصحراء الشرقية ، الى أن أبطل العمل فى استخراجه أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى سنة سبع وستين وسبعمائة هجرية (١٥٧) . هذا وان كان بعض الباحثين قد حدد تاريخ توقف استخراجه فى عام ١٣٥٩ م ، بعد أن أنهكت مناجمه ، ونضب معينها (١٥٨) .

---

(١٥١) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٣٣ .
(١٥٢) المقريزى : الخطط ، ص ٢٣٢ .
(١٥٣) الادريسى : نزهة المشتاق ص ٢٢ .
(١٥٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٣٢ .
(١٥٥) نفس المرجع والمكان .
(١٥٦) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ، ص ٢١٦ .
(١٥٧) المقريزى : الخطط ، جا ص ٢٣٢ .
(١٥٨) Huart : Hist. des Arabes, p. 91 & Heyd : Op. Cit. Vol. 2, p. 652.

الرقيق : فتحت معاهدة البقط الباب على مصراعيه أمام تجارة الرقيق فى مصر (١٥٩) . وقد سبق أن ذكرنا ان تلك المعاهدة نصت على اهداء المسلمين عددا معينا من الرقيق الأسود ، وفى مقابل ذلك يهدى المسلمون الحبوب لنوبة . اذا فقد كان هناك تجارة واسعة للرقيق بين مصر والنوبة ، لم يستطيع الاسلام أن يجد غيرها ليصالح عليه ، ومن هنا كان اسهامه فيها ، وكان هذا الرقيق الذى صولح عليه ، يتفرق البعض منه فى البيوتات الاسلامية فى مصر والحجاز وغيرهما (١٦٠) . وتزايد الطلب للرقيق فى الدولة الاسلامية ، واتخذت الاغلبية منه جندا ، خاصة فى مصر فى عهد الطولونيين (١٦١) ، وازداد العدد بشكل ملحوظ أيام الاخشيديين والفاطميين (١٦٢) .

وتجارة الرقيق فى مصر بدأت فى الأنتشار منذ الفتح العربى لها . فان عبد الحكم يحدثنا عن وجود سوق بالفسطاط بدار البركة يباع فيها الرقيق ، ويدلنا ذلك على أن مصر كانت من اكبر أسواق الرقيق فى العالم الاسلامى (١٦٣)

وارتبطت أسوان بتجارة الرقيق ارتباطا متينا ، فقد ساهم تجارها فى جلب الرقيق الأسود من النوبة والسودان ، ثم عرضه فى أسواق الصعيد وغيرها من أسواق مصر لبيعه ، ثم نقله الى مختلف البلاد الاسلاميه لشدة الحاجة اليه .

ومن مواطن الرقيق فى السودان كردفان ، اذ كان الرقيق أهم سلعة تباع هناك ، كما أن الأبيض كانت أحد مراكز تجارته ، فالى هذا المكان كان يساق العبيد ليس فقط من الجهات المجاورة ، بل من المناطق البعيدة أيضا مثل تولا

---

(١٥٩) Trimingham : Islam in the Sudan. p. 63.

(١٦٠) شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية في القرن الاول ص ١٦١ .

(١٦١) Zaki Hassan : Les Tulunides, p. 159.

(١٦٢) يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية في الهجرة العربية ص ١٢٤ .

(١٦٣) أبن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٣٤ .

وباند ووانجـــة وباقرمة وبيحو ، ومن أبعـــد من ذلك (١٦٤) . وكذلك كانت دار فور والبلاد التى تقع جنوبها وجنوبها الغربى احد مواطنه ، وهى بلاد وثنية (١٦٥) .

أما رقيق النوبة ، فان القبائل العربية التى اقامت فى منطقة المريس . فى القرون الأولى من الاسلام ـــ تاجرت فيه ، فكانت تقوم بخطف بعض النوبيين، وبيعهم للتجار فى مصر(١٦٦) . كما أن الغزوات التى شنتها مصر على النوبة المسيحية ، اسفرت عن اخذ النوبيين كسبى ، تاجرت فيه القبائل العربية . ويروى المقريزى أن عبد الرحمن العمرى عندما انتصر على النوبيين فى الموضع الذى يعرف بشنقير (بين بربر وأبى حمد) « كثر السبى عند أصحابه حتى أن احدهم كان يحلق رأسه ، فيعطى المزين رأسا » (١٦٧) .

وبالاضافة الى ذلك ، كان صـــيادو العبيـــد يقومون برحـــلات الى السودان ، لصيد العبيد فى مناطقهم الاصلية التى عاشوا فيها . وهناك أكثر من طريقة لصيدهم ، منها صيدهم أطفالا صغارا . فالمعروف أن الطفل مـــن الرقيق يعيش فى منطقة استوائية تتميز بمناخها القاسى ، فعندما يحين المساء يخرج الطفل من كوخ والديه للترويح عن نفسه ، ويتجول بعيدا عنه بضع خطوات الا أنه يباغت بيد قوية تمسك به فى الظلام الدامس ، وتضع فى فمه شكيمة (كمامة) تمنعه من الصراخ ، ثم يحمل الى مكان بعيد يقدم له فيه الطعام والشراب ، ولكنه يرفض من شدة فزعه ما يقدم له ، وينفجر باكيا طالبا امه ، ويظل يبكى ، الى أن ينتهى به الامر مستسلما للنعاس العميق

---

(١٦٤) نسيم مقار : الرحالة في السـودان في النصف الأول من القرن التاسع عشر (الرحالة بالم) ص ٤٦ ـــ ص ٤٧ .

(١٦٥) رحلات بوركهارت : ص ٢٥٢ .

(١٦٦) ابن المقفع : سير البطارقة ص ١٨٧ .

(١٦٧) المقريزى : المقفى ص ٦ ـــ ص ٧ .

بعد أن يكون الحزن والتعب قد نالا من جسده الصغير (١٦٨) . وعندما يستيقظ الطفل فى الصباح يسمع لغة مألوفة لديه كالتى كان يسمعها فى قريته، بيد أن الوجوه غريبة عنه ، ولم تكن تلك الوجوه الا الحشود الكبيرة من الاطفال الرقيق — من جميع المراحل السنية — الذين قام صيادو الرقيق بخطفهم ، وسرعان ما ينسى الطفل الصغير البرىء والديه (١٦٩) .

وكذلك كان قناصة العبيد من أهالى أسوان يقومون برحلات الى السودان ، فيأخذون معهم الخبز والقمح والزبيب والتين ، ويرمون بها للأطفال العراء الذين يعيشون عيشة بدائية ، فيجرى هؤلاء وراءها ، ثم يلقون اليهم بكميات اخرى على مسافة أبعد ، والاطفال بدورهم يجرون وراءها ، وهكذا حتى يبتعد الاطفال عن مساكنهم ، ومن ثم يأخذهم الصيادون ، ويأتون بهم الى أسواق مصر ، حيث يباعوا لتجار الرقيق (١٧٠) .

وفى بعض الاحيان ، كان تجار الرقيق الأشداء يقومون فجأة بالاغارة على احدى القرى التى يتواجد بها الرقيق ، ويدخلون فى معركة مع أهلها ، تنتهى بأسر بعض النساء والاطفال ، يذهب بهم التجار بعيدا عن القرية بعد أن يكونوا السبب فى تشتيت شمل كل أسرة فيها ، وبعد ذلك ينتقل الاطفال والنساء عبر التلال والاودية فى الصحراء ، حتى يصلوا الى نهر النيل ، فيحشدهم التجار فى مركب كبير ، ونظرا لقسوة المناخ الاستوائى ، فضلا عن الامطار الجارفة ، فان البعض من الرقيق تنتابه الحمى ويلقى حتفه ، فيدفن فى الرمال ، أما من عاش من الاصحاء منهم فان القوافل بعد ذلك تواصل السير به فى الصحراء (١٧١) . ويحاول البعض من الرقيق الهرب ،

---

(١٦٨) Klunzinger : Egypt, pp. 35 – 36.

(١٦٩) Ibid, p 37.

(١٧٠) Adler : Jewiswh Travellers. p. 61.

(١٧١) Klunzinegr : Op. Cit. p. 36.

ولكن محاولته سرعان ما تبوء بالفشل ، فيمسك به فى الحال ، ويضرب ثم يقيد ، ويجر مع القافلة ، ومع أن الفتيات من الرقيق بعضهن فى سن صغير ، الا أنهن يقعن فريسة لشهوة رجال القافلة ، ولذلك يعد من النادر وجود فتاة من الرقيق لم يمسها رجل قبل عرضها للبيع فى الاسواق ، وعندما يحين موعد الراحة للقافلة ، ينزل التجار احدى البلاد المتناثرة فى طريقهم ، ويحبس الرقيق فى مكان ، وفى الليل يخرجهم التجار مقيدين للنزهة بعض الوقت (١٧٢) .

وما أن تصل قوافل الرقيق الى اسوان أو غيرها من مدن الصعيد ، حتى ينزل التجار بأحد الخانات ، أما الرقيق فانهم يحبسون فى أفنية كبيرة بها غرف مهدمة يقضون الليل فيها ، وفى الصباح يجلس الرقيق فى هيئة مجموعات لعرضهم على المشترين ، أو التوجه بهم الى السوق فى اليوم المعين له حيث يتم بيعهم فى مزاد علنى (١٧٣) .

وهناك طريقة أخرى لوقوع العبيد فى أيدى جلابة الرقيق : فهؤلاء الجلابة يتقدمون فى المناطق المجاورة لقرى الرقيق ، بالبضائع التى يستبدلون بها الرقيق من أسرى الحروب ، أو المخطوفين بمعرفة اللصوص الذين لا يتوانون عن خطف أطفال قريتهم وحملهم الى المكان المتفق عليه من قبل للمبادلة (١٧٤) . ثم تأتى بهم القوافل لبيعهم فى اسواق مصر .

وتكاد قوافل العبيد التى تأتى الى مصر لاتنقطع ، فلا ينقضى عام من الاعوام الا وتصل فيه القوافل آتية من السودان ، ويرفقتها اعداد هائلة من الرقيق لبيعه فى أسواق مصر (١٧٥) . على أن قوافل تجار الرقيق التى تأتى

---

(١٧٢) Klunzinger : Op Cit. p. 37.

(١٧٣) Klunzinger : Op. Cit. pp. 34 - 35 & Combes : Voyage en Egypte, Vol. I. p. 101.

(١٧٤) نسيم مقار : الرحالة فى السودان ص ٤٧ .

(١٧٥) Wiet : Mémorires sur l'Egypte. p. 79.

من السودان بالطريق النيلى ، كانت تصل الى أسواق مصر فى مواسم متعينة (١٧٦) .

كان الرقيق المجلوب من النوبة والسودان مرغوبا فى العالم الاسلامى ، ويجد رواجا هائلا فى أسواق الرقيق ، فقد اشتهر الرجال من عبيد النوبة بحفظ النفوس والاموال ، والرجال من الزنوج بالكد والخدمة (١٧٧) . أما النوبيات فيقع عليهن الاختيار لتربية الاطفال « لأنهن من جنس فيه رحمة وحنين على الولد » ، كما نصح الاطباء باختيار نساء الزنج الرضاع « لأن حرارتهن نحو الاثداء منتجة للبن » (١٧٨) .

وقد قسم تجار الرقيق العبيد حسب اعمارهم الى ثلاث مئات : الخماسى وهم دون العاشرة أو الحادية عشرة ، والسداسى وهم فوق الحادية عشرة ودون الرابعة أو الخامسة عشرة ، والبالغون وهم من الخامسة عشر فصاعدا ، وأغلى هؤلاء عندهم السداسى (١٧٩) .

ومن الوصايا التى كان ينصح بها مشترى الرقيق فى العصور الوسطى ، أن لا يشترى الرقيق من اول لحظة ، بل يتروى ، ويمعن النظر ، لان امعان النظر يكشف التصنع ويظهر التدليس (١٨٠) . كما يوصى شارى الرقيق أن يحسس جسد الرقيق للتأكد من سلامته من الأمراض الجلدية مثل البهاق أو البرص او القرحة وغيرها ، فضلا عن مناسبة اعضاء الرقيق للطول أو للقصر . وهناك عيوب اذا شابت العبد كان من حق مشتريه أن يرده ، واهمها ـ الشخير بالليل ، والتبول فى النوم ، وتحريق الاسنان ى النوم اذ كان المعتقد أن صاحب تلك العادة لا يرجى منه أن يدين بالولاء لصاحبه (١٨٨) .

---

(١٧٦) Combes : Voyage en Egypte. Vol. p. 103.

(١٧٧) ابن بطلان : رسالة في شرى الرقيق ص ٣٥٢ .

(١٧٨) نفس المرجع : ص ٣٨٧ .

(١٧٩) رحلات بوركهارت : ص ٢٥٢ .

(١٨٠) ابن بطلان : رسالة في شرى الرقيق ص ٣٥٤ .

(١٨١) رحلات بوركهارت ص ٢٦١ .

وفى سوق أسوان وغيرها من المدن الاخرى ، كانت رحلة العذاب بالنسبه الى الرقيق تأتى الى نهايتها . ففى اليوم المعين السوق ، يعرض تجار الرقيق اعدادا هائلة من الرقيق للبيع ، كما يؤم السوق الراغبون فى الشراء . وبعد أن يقوم الراغبون فى الشراء بمعاينة الرقيق ، بتحسس أطرافه ، وجعله يقفز وفتح فمه كما لو كان حصانا ، يدخلون فى مساومات مع تجار الرقيق ، الى أن يقع المزاد على أحد المشترين ، فيأخذ ما رغب من الرقيق . وهنا تحين لحظة الفراق بين الاصدقاء من الرقيق الذين جمعتهم جارة الانسان فى أخيه الانسان ، فتنساب الدموع مودعة ، والجدير بالذكر هنا ؛ أن تجار الرقيق المسلمين كانوا يمنعون عند البيع أن ينفصل الأخ عن أخته ، والاطفال عن آبائهن (١٨٢) . ومن المسلم به أن المالك الجديد يعامل الرقيق الذى اشتراه برأفه ورحمة ، فيعطى الاطفال الارقاء كميات طيبة من الطعام ، كى يستردوا صحتهم التى فقدوها بسبب ما لاقوه من مشاق الرحلة ، ثم يقوم بدوره — اذا كان من التجار — ببيعهم وهكذا فان الرقيق ينتقل من يد تاجر لآخر ، ومن مكان لآخر ، رغبة فى المزيد من الربح . وفى الوقت الذى يكبر فيه الرقيق وينمو ، يكون قد نال قسطا من الحضارة والمدنية ، فضلا عن اعتناق الدين الاسلامى ، وبذلك يغيب كل أثر يربط الرقيق بأوطانه التى جاء منها ، ويصير مسقط رأسه الاصلى نسيا منسيا (١٨٣) .

العاج : يعتبر العاج من السلع الرئيسية التى كانت ترد من السودان الى مصر عبر اسوان . فقد كانت القوافل تأتى محملة بسن الفيل من دارفور (١٨٤) . ومن مصادره أيضا أثيوبيا التى فاق عاجها عاج الهند ، فهو أطول وأثقل منه ، فضلا عن وفرته (١٨٥) . ويبدو أن العاج كان يجلب بكميات

---

(١٨٢) Klunzinger : Op. Cit. p. 37.

(١٨٣) Loc cite.

(١٨٤) رحلات بوركهارت : ص ٢٤٢ .

(١٨٥) Heyd : Op. Cit., Vol. 2. p. 629.

ضخمة فى العصــور الوسطى ، فقــد دهش الرحالة ماركوبونو من كميات العاج الضخمة التى رآها فى طريقه ، والتى كان يجلبها التجــار من زنجبار ومدغشقر على ساحل افريقية الشرقى (١٨٦) . وفى دولة المماليك استخدم العاج فى الترصيع والتطعيم ، وصناعة بعض التحف النادرة معظمها علب صغيرة عليها زخارف نباتية وهندسية رائعة (١٨٧) .

(**الأبنوس**) : تفــوقت صـــناعة النقش على الخشب فى العصــور الوسطى ، فقد كان الصناع يستخدمون الاخشاب المحلية من الجميز والسنط والنبق والسرو ، ولكن هذه الأخشاب لم تــكن تمتاز بالمتانة والصـــلابة ، فاضطر الفاطميون الى جلب الابنوس من السودان (١٨٨) . وبرع النجارون فى عصر المماليك فى صناعة التحف الدقيقة ، مثل المنابر والدكك والكراسى والصناديق وغيرها التى كانت ترصع بقطع صغيرة من الابنوس (١٨٩) . كما كانت بعض مقابض المدى تصنع من الابنوس (١٩٠) .

(**قرن الخرتيت**) : من السلع الغالية التى كانت ترد من السودان قرن الخرتيت ، اذ كان يصنع منه فى القاهرة مقابض السيوف والخناجر ، وقــد أطلق فى السودان على حيوان الخرتيت اسم « أم قرن » (١٩١) .

(**التمر الهندى**) : عرف العرديب فى مصر بالتمر الهندى ، لان بعضـــه كان يجلب من جزر الهند الشرقية ، غير أن الصـــنف الذى كان يرد من السودان يفوقه فى الجودة ، ومواطن العرديب فى السودان دارفور وكردفان، وكانت القوافل المصرية التى تذهب الى السودان للتجارة تأتى به فى شكل

---

(١٨٦) Heyd : Op. Cit. Vol. 2, pp. 623 - 624.
(١٨٧) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٣٨٤ .
(١٨٨) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٢ .
(١٨٩) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٨٤
(١٩٠) رحلات بوركهارت : ص ٢٤٣ .
(١٩١) رحلات بوركهارت : ص ٢٤٢ — ص ٢٤٣ .

أقراص صـــغيرة ويجهز بتريض لبه وجبـــه للشمس الى أن يوشـــكا على التعفن ثم يعجنان أقراصا (١٩٢) .

(**اللبان**) : وهو نوع م نالصمغ يجمعه البدو ساكنو الصـــحارى فى السودان ، ويقال أنه يفرز من ساق شـــجرة على نحو ما يفـــرز الصمغ العربى ، ولونه أغبر ، له رائحة نفاذة ، وهو صنفان أحدهما أخشن مـــن الآخر (١٩٣) .

(**الصمغ العربى**) : كانت القوافل تأتى به من أسواق شندى وكردفان ودارفور فى السودان ، وأغلى أصـــنافه ما يجلب من كردفان ، وهو الابيض الناصع (١٩٤) . وفى العصور الوسطى كان الاقبال على الصمغ شديدا ، اذ كان يستخدم فى صنع بعض العقاقير الطبية ، فضلا عن استخدامه فى عمل مواد الصباغة ، وتثبيت الالوان (١٩٥) .

(**ريش النعام**) : من المعروف أن النعـــام كثير الانتشـــار فى أرجاء السودان ، واغلى ريشه ما يجلب من كردفان ودارفور ، وكانت القوافل تحمله الى مصر عبر طريق التجارة ، وخاصة طريق درب الاربعين (١٩٦) .

(**الشب**) : يوجد الشب فى الصحراء الغربية بالسودان على مسيرة ثلاثة أيام من وادى حلفا (١٩٧) . كما كان يســـتخرج حـــول بحيرة تشـــاد بالسودان ، ويعتبر التجارة الرئيســـية لهذه البـــلاد (١٩٨) . ومن مناطق استخراجه ايضا الوجه القبلى والنوبة ، وكان يتم نقله بطـــريق النيل الى الاسكندرية التى كان بها مستودعات ضخمة للشب ، ومن الاسكندرية يصدر

---

(١٩٢) رحلات بوركهارت : ص ٢٢٦ .
(١٩٣) رحلات بوركهارت : ص ٢٢٧ .
(١٩٤) رحلات بوركهارت : ص ٢٢٧ .
(١٩٥) Heyd : Op. Cit. Vol. 2. pp. 623-624.
(١٩٦) رحلات بوركهارت : ص ٢١٨ .
(١٩٧) رحلات بوركهارت : ص ٢٧ ، ص ٣٠ .
(١٩٨) آدم تيز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٦٥ .

الي أوربا (١٩٩) . والشب من السلع التى كثر عليها الطلب فى العصور الوسطى ، اذ كان يستخدم فى تثبيت الالوان والصباغة على الثياب ــ وخاصة الجوخ والحرير ــ فيعطيها لمعانا زاعيا ، كما كان يستخدم فى الرسم والدباغة (٢٠٠) . وقد اهتم التجار الاوربيون بالحصول على الشب . لذلك احتكرت الدولة الايوبية بيعه ، فليس لأحد أن يتصرف فيه بالبيع أو الشراء غير الديوان السلطانى ، اذا حدث أن وجدت كمية منه عند أحد من الناس ، تصادر ويتعرض صاحبها للعقوبة (٢٠١) .

(**الابل**) : ليس من شك فى أن الجمل لعب الدور الرئيسى فى نقل السلع والبضائع فى العصور الوسطى ، لما تميز به من صبر على تحمل الجوع والعطش . وتعتبر بلاد البجة فى الصحراء الشرقية المتاخمة للسودان ، أكبر المناطق رعيا للابل (٢٠٢) . فالبجة أهل بادية لا يعرفون الزراعة ، وانما هم يتبعون الكلأ حيثما كان للرعى ، وجل ثروتهم الحيوانية الابل التى لا تزال حتى وقتنا الحاضر . وأكبر سوق للجمال فى مصر يتجه اليه البجة هو سوق دراو (٣٥ كيلو متر شمال اسوان) ، اذ يعتبر نهاية اهم الطرق الصحراوية القديمة من الصحراء الجنوبية الشرقية والسودان الى مصر ، وقد أدى سوق دراو ــ ولا يزال ــ دورا هاما فى عملية التغير الحضارى ، ففى ذلك السوق يقف عبابدة الصحراء (اسلاف البجة) وجها لوجه أمام حضار مادية أغنى من حضارتهم ، مما يؤدى الى تأثرهم بالحضارة الأغنى (٢٠٣)

(**المسك**) : كانت النوبة موردا هاما لمادة المسك الذى يستخرج من حيوان يطلق عليه « فأرة المسك » ويعيش ذلك الحيوان فى الجهات المدارية

---

(١٩٩) Heyd.: Op. Cit. Vol. 2. p. 567.

(٢٠٠) Heyd.: Op. Cit. Vol. 2 - 570.

(٢٠١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٢٨ ــ ص ٣٢٩ ، الباز العرينى : مصر في عصر الايوبيين ص ١٩٢ .

(٢٠٢) المقريزى : الخطط ، جا ص ١٩٣ .

(٢٠٣) محمد رياض : العبابدة ص ١٣٠ .

على نبات السنبل البرى الذى ينمو بكثرة على التلال والهضاب ، وتروج تجارة المسك زمن الحج ، اذ يتهافت عليـــه الحجاج ليتضمخوا به ، وأحيانا حرقه فى الحرم الشريف لرائحته العطرة (٢٠٤) .

(القردة) : درج بعض الافراد على التوجه الى النوبة والسودان لشراء صغار القردة (٢٠٥) . وفى مصر كان القرادون يدربون صغار القردة على بعض الالعاب التى يتسلى بمشاهدتها أهالى المدن فى مصر ، غير أن هؤلاء القرادة كانوا محل التحقير والازدراء من النوبيين ، لانهم — على حد قولهم — ينفقون حياتهم كلها فى اضحاك الناس عليهم ، والسخرية بهم (٢٠٦) .

(هـ) التجارة الداخلية فى أسوان :

سبق أن ذكرنا أن أسوان لعبت دورا هاما فى تجارة مصر زمن العصور الوسطى ، لانها كانت ملتقى طرق القوافل التجارية الآتية من الســـودان والصحراء الشرقية . غير أنها لم تكن أحد المنافذ الهامة لتجارة مصر الخارجية فقط ، بل كانت أحد المراكز الهامة للتجارة الداخلية . ونهر النيل من العوامل الهامة التى جعلت أسوان تتبوأ مركزا رائعا للتجارة الداخلية ، اذ ربط بينها وبين العاصمة وسواحل البحر الابيض المتوسط ، كما أنه امتاز بصلاحيـــة الملاحة فيه شمال أسوان لخلوه من العقبات التى تعترض سير المراكب . وساهمت الطرق البرية السهلة فى خدمة التجارة الداخلية بأسوان ، فالرحالة ناصر خسرو يحدثنا عن الطريق البرى الذى مهده الفاطميون بحذاء النيل من الفسطاط الى أسوان ، وبلغ من الاهتمام به أن عينوا له موظفا للاشراف

---

(٢٠٤) سليمان عطيه سليمان : سياسة المماليك فى البحر الأحمر ص ٣٠ .

(٢٠٥) Wiet : Memoires sur l'Egypte., p. 79

(٢٠٦) رحلات بوركهارت : ص ٢٤٢ — ص ٢٤٣ .

على صيانته ، وخصصوا لذلك الغرض مبلغا سنويا قدره عشرة آلاف دينار (٢٠٧) .

ومن الثابت أن حركة التجارة الداخلية فى أسوان زمن العصور الوسطى ، قد اتسمت بالسعة والضخامة . فهاج سوقها الواسع بالتجار الذين ترددوا عليه من كافة البلدان الإسلامية لشراء سلع الشرق الاقصى ووسط افريقية . وما من مؤرخ أو جغرافى مسلم الا وذكر أسوان فى كتاباته وأثنى على تجارتها الداخلية . فعلى سبيل المثال ، وصفها المقدسى (٢٠٨) . بقوله : « قصبة الصعيد ... بها خيرات وتجارات وهى من الامهات » ، وابن خلدون (٢٠٩) . قال عنها : « قاعدة الصعيد » . كما قال عنها ابن حوقل (٢١٠) : « وهى أكبر مدن الصعيد » ، وأيضا ذكرها اليعقوبى (٢١١) . قائلا : « مدينة أسوان العظمى بها تجار المعادن ، وهى ذات تجارات مما يأتى من بلاد النوبة والبجة » وكذلك قال المقريزى (٢١٢) عنها : « وبها تجارات وبضائع » . كما وصفها ياقوت الحموى (٢١٣) بأنها : « مدينة كبيرة للتجارة » ووصفها أيضا ابو صالح الأرمنى (٢١٤) بقوله : « وأسوان الثغر الاعظم » .

وفى سوق أسوان لم تنقطع حركة البيع والشراء طول أيام السنة وهو فى هذا يشبه أسواق المدن الكبرى فى مصر زمن العصور الوسطى ، مثل الفسطاط والقاهرة والاسكندرية وقوص وغيرها . وبمعنى آخر فان سوق

---

(٢٠٧) ناصر خسرو : سفر نامة ، ص ٤٢ ، جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٤٦ .
(٢٠٨) أحسن التقاسيم : ص ٢٠١ .
(٢٠٩) مقدمة ابن خلدون : ج ١ ص ٢٩٣ .
(٢١٠) صورة الأرض : ص ١٥٩ .
(٢١١) البلدان : ص ٣٣٤ .
(٢١٢) الخطط ، ج ١ ص ١٩٦ .
(٢١٣) معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٤٨ .
(٢١٤) تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى ، ورقة ١٠١ أ .

اسوان ينطبق عليه اصطلاح « سوق دائم » أما السوق الاسبوعى الــذى كان يقام فى اسوان فى يوم معين من أيام الاسبوع ، ففى تصورنا ان الصفقات التجارية كانت تعقد فية . وقد غلب على كل سوق فى اسوان صفة التخصص ببيع سلعة اخرى .. وهكــذا ، ومن محاسن هذا النظــام أن التاجــر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه برفع اسعار الســلعة التى يتجر فيهــا ، لان منافسيه على مقربة منه ، كما أن المشترى اذا لم يرقه صنف السلعة أو ثمنها، فانه يستطيع أن ينتقل فى ســـهولة من متجر لآخــر دون أن يتحمــل ادنى مشقة (٢١٥) . أما عيوب هذا النظام ، فأهمها أن المشترى اذا رغب فى شراء عدة أصناف مختلفة من البضائع ، فانه كان يجوب المدينة طولا وعرضــا حتى يقضى حاجاته ، لأنه لن يجد فى السوق الواحد سوى نوع معين واحد من البضائع (٢١٦) . ويبدو أن السبب فى انفراد كل سلعة أو بضاعة بمكان منفرد بعيدا عن الاخرى ، كان من اجل المحافظة على الصحة العامة ، حتى لا تتجاوز الصنائع الخسيسة مع الصنائع النفيسة ، فأصحاب الصناعات التى ينتج عنها تذارة ــ مثل المســـالخ والمدابغ ومسابك الزجاج وأناتين الجير ــ يقيمون منعزلين فى الأطراف (٢١٧) . وقد امتازت حوانيت الأسواق بصغر حجمها ، فمتوسط مساحة الواحد منها بلغ خمسة اقدام مربعة يكدس فيها التاجر كل بضائعه (٢١٨) . وأصحاب هذا النوع من الحوانيت ، هم التجار المستقرون ، أما التجار المتنقلون ، فهم الذين يأتون بالسوق لفترة متأخرة من النهار ثم يبارحونه ليعودوا اليه فى اليوم التالى (٢١٩) .

---

(٢١٥) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩٦ ، المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ٨٦ .

(٢١٦) ســعيد عاشــور : العصر المماليكى ص ٢٩٦ ــ ص ٢٩٧ ، المجتمع المصرى ص ٨٦ .

(٢١٧) الحسن بن عبد الله : آثار الأول في ترتيب الدول ص ١٦٥ .

(٢١٨) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٨٦ ــ ص ٨٧ .

(٢١٩) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ص ٢٤٤ .

ولم تترك حركة البيع والشراء فى سوق أسوان دون رقيب أو حسيب فهناك المحتسب الذى كان من اختصاصه الطـواف السوق للتفتيش على البضاعة ، وضبط من يحاول التلاعب فى الأسعار أو الأوزان أو المكاييل أو غش أصناف السلع ، فضلا عن سرعـة البت فى المخالفـات التى ترتبط بالمعاملات التجارية (٢٢٠) . وقد اشترط فى المحتسب ان يكون ذا مهابة ، ثقة فى دينه وأمانته (٢٢١) .

أما قرى أسوان ، فقد أقيم بها أيضا أسواق محلية ، تعقد مرة كل أسبوع . والواقع أن سوق القرية الاسبوعى ، يعتبر صورة مصغرة من سوق المدينة الاسبوعى ففى سوق القرية يجتمع بائعو كل صنف فى ركن من أركان السوق ، ولهذا يسهل على المشترى تمييز كل سلعة عن الاخرى . وفى سوق قرى أسوان ، كان البائعـون — ولا زالـوا — يفترشـون الأرض (٢٢٢) ، تحت مظال من الحصير تسندها أعمدة متقابلة من غصون الاشجار ، ويوجهون هذه المظال اية جهة درءا لحرارة الشمس ، وطلبـا للظل الكافى . كما يبيع البائعون فى ذلك السوق بضاعتهم بالقطعة أو بالكوم أو بالوزن ، وبدلا من استعمال الصنجات فانهم يستخدمون قطعا مـن الاحجار مساوية لها فى الوزن (٢٢٣) . ويبدو أن حركة البيع والشراء فى سوق القرية ، كانت تتم بنظام المقايضة . فالاهالى يشترون حوائجهـم ببيض الدجاج ونخال الدقيق (٢٢٤) . ويرجع السبب فى ذلك الى أن القرية كانت تسير على مبدأ الاكتفاء الذاتى ، ومن ثم لا تدعو الحاجة فيها الى استعمال النقود لتعامل تجارى بسيط ومحدود .

---

(٢٢٠) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ٤٦٢ — ص ٤٦٣ ، سـعيد عاشـور : العصر المماليكى ص ٢٩٧ — ص ٢٩٩ ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٥٥ .

(٢٢١) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٦٥ .

(٢٢٢) Klunzinger : Upper Egypt., p. 33.

(٢٢٣) Ibid., p. 43.

(٢٢٤) المقريزى : اغاثة الأمة ص٦٩ .

وعلى اية حال ، فان أسوان بحكم موقعها عند نهاية طريق القوافل الآتية من السودان والبحر الاحمر ، بالاضافة الى وقوعها فى منطقة زراعية ، ووفرة الثروة السمكية بها ، كل ذلك جعل منها سوقا واسعا حافلا بمختلف السلع التى لقيت رواجا فى العصور الوسطى . ويمكننا القول أن الأسعار فى اسواق أسوان ، كانت تتميز بالرخص . ولا أدل على ذلك من قول المقريزى (٢٢٥) . « وكانت اسعارها أبدا رخيصة » ، كذلك قول الادريسى : « وأسعارها مع الايام رخيصة » (٢٢٦) .

(و) تدهور النشاط التجارى لاسوان أواخر العصور الوسطى :

استمرت أسوان تؤدى دورها الحيوى كمدينة تجارية هامة فى العصور الوسطى ، الا أنها أخذت تفقد ذلك الدور ، وتسير فى طريق الذبول ، منذ عصر دولة المماليك الجراكسة . وقد آل الامر إخيرا الى تدهورها وخرابها .

واذا كان من المعروف أن سلاطين دولة المماليك الاولى ، قد بذلوا جهدا عظيما من أجل الحفاظ على مكانة مصر التجارية بين الشرق والغرب، فان الامر كان على عكس ذلك فى دولة المماليك الثانية . فمن جراء اختلال نظام الاقطاع ، وتطرق الفساد اليه ، فضلا عن ضعف الانتاج الزراعى وحاجة السلاطين للاموال الوفيرة لسد مطالب الحروب وغيرها ، كل ذلك دفع السلاطين للاشتغال بالتجارة ، فاتبعوا سياسة الاحتكار التجارى للحصول على اكبر قدر من الاموال ، وقد أدت تلك السياسة التى بلغت مداها فى عصر السلطان برسباى (١٤٢٢ — ١٤٣٨ م) الى انزال ضربة قاصمة بتجارة الاوربيين مثل الفلفل والبهار (٢٢٧) . كما دفعت سياسة

---

(٢٢٥) الخطط ج ١ ص ١٩٦ .

(٢٢٦) نزهة المشتاق : ص ٢١ .

(٢٢٧) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩٥ .

الاحتكار التجارى الى فتور العلاقات بين مصر والدول الاوربية ، الامر الذى حملها على محاولة التخلص من أهمية مركز مصر التجارى بين الشرق والغرب (٢٢٨) . ولجأت الدول الإوربية الى مضاعفة جهدها من أجل الوصول الى الهند وتجارة الشرق الأقصى عن طريق المحيط الأطلسى ، حتى تمكن فاسكودى جاما من اكتشاف طريق راس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، وكان هذا الكشف نذيرا بتدهور مكانة مصر الاقتصادية فى أواخر عصر المماليك ، ولم يلبث ان أدى الى اضعافهم ثم سقوط دولتهم بعد ان حرموا من المورد الاساسى الذى طالما امدهم بالقوة والمال (٢٢٩) .

ومما زاد الامر سوءا فى تدهور النشاط التجارى لدولة المماليك الجراكسة ان البدو من أهالى الصحراء الشرقية عملوا على مهاجمة القوافل المتجه من قوص الى عيذاب ، ونهبها وقتل أصحابها ، ونتيجة لذلك أخذت عيذاب تفقد اهميتها شيئا فشيئا فى القرن الرابع عشر الميلادى ، فى الوقت الذى أخذت فيه ميناء سواكن تكتسب أهمية فى التجارة (٢٣٠) . ومنذ القرن الخامس عشر الميلادى ، نمت سواكن وازدهرت ، ووصلت اليها أول سفينة محملة بالبضائع من كاليكوت عام ١٤٢٢ م (٢٣١) . ولم يتوقف بدو الصحراء الشرقية عن مهاجمة القوافل التجارية التى تعبر تلك الصحراء محملة بالسلع والبضائع ، الامر الذى دفع السلطان برسباى الى ارسال جملة عن طريق البحر الاحمر لمهاجمة ميناء عيذاب وتخريبها ، وتمكنت تلك الحملة من اداء مهمتها حوالى عام ١٤٢٨ — ١٤٢٩ م (٢٣٢) . وتبع ذلك أن انتقل مركز الثقل التجارى دفعة واحدة ، من ميناء عيذاب الى

---

(٢٢٨) صبحى لبيب : التجار الكارمية ص ٤٣ .
(٢٢٩) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩٦ .
(٢٣٠) Bloss : The Etory of Suakin. (S.N.R. Vol. xix, p. 283)
(٢٣١) Newbold : The Beja tribes of the Red Sea Hinlerland, p. 151.
(٢٣٢) Bloss Op. Cit., p. 285.

سواكن ، حتى غدت الاخيرة الميناء الرسمى لمصر ، وظلت باقية الى ان حل محلها ميناء بور سودان فى أوائل القرن الحالى (٢٢٣) .

ومن العوامل المباشرة التى أدت الى تدهور التجارة فى اسوان ، اضطراب الاحوال الداخلية لبلاد النوبة فى القرن الرابع عشر الميلادى . فاصبحت تلك البلاد — فى نهاية ذلك القرن — مسرحا للفوضى التى أثارها بنو الكنز وغيرهم من القبائل العربية التى استقرت هناك . وقد تسببت تلك الفوضى فى قطع طرق المواصلات التجارية بين اسوان والنوبة ، مما ادى فى النهاية الى شل الحركة التجارية بين مصر والسودان ، وزاد الامر سوءا أن بنى الكنز دابوا على مهاجمة حدود مصر الجنوبية التى أصبحت مصدر قلق لدولة المماليك الجراكسة . ومنذ نهاية القرن الرابع عشر الميلادى ، ازدادت هجماتهم العنيفة المخربة على اسوان ، حتى خرجت عن يد السلطنة ، وتلى ذلك خرابها (٢٢٤) .

كذلك تضاعف خطر العربان بالصعيد فى دولة المماليك الجراكسة ، وخاصة بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ١٣٤٠ م . فلم تستطع الحملات التى ارسلها السلاطين لتأديب العربان أن تكسر من شوكتهم . بل زاد امرهم فسادا ، تدابوا على قطع الطرق ، ونهب المسافرين من التجار . وفى هذا الصدد تذكرهم المراجع المعاصرة بالمفسدين من العربان . ومن الملاحظ انه لا تكاد تخلو سنة من السنوات فى أواخر عصر المماليك من ثورة يقوم بها العربان . والامثلة على ذلك عديدة ، منها ما حدث فى سنوات ٧١٩ هـ ، ٧٣١ هـ ، ٧٥٥ هـ (٢٢٥) . ففى السنة الاخيرة

---

(٢٢٣) Newbold : Op. Cit., p. 151.

(٢٢٤) أنظر الفصل ص ٤٣ – ص ٤٧

(٢٢٥) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٩٤ ، ص ٣٢٥ ، ص ٨٧٦ ، ص ٩٠٧ — ص ٩١٥ .

صارت الطرقات في عهد الناصر حسن بن قلاوون في « غاية الفساد من العربان » (٢٣٦) .

وفي أوائل القرن التاسع الهجري ، تزايد ضرر العربان وعبثهم في الصعيد ، وقد أدى ذلك الى كساد التجارة في الوجه القبلي وتدهورها . ويتضح ذلك من وصف المقريزي (٢٣٧) لتدهور التجارة بقوله : « وقد كثر عبث المفسدين وقطاع الطرق ببلاد الصعيد ، وقتل الأنفس ، وأخذ الاموال هناك ، ومع ذلك فالاسواق كاسدة ، والبضائع بأيدي التجار بائرة ، والأحوال واقفة ، والشكاية قد عمت ، فلا تجد الا شاكيا وقوف حاله وقلة مكسبه ، وجور الولاة والحكام وأتباعهم متزايدة ، فنسأل الله حسن العاقبة » .

وشمل الخراب اقليم الصعيد ، وألمت به المحن والنكبات منذ عام ٨٠٦ هـ ، فذبل ثغر أسوان ، وتدهور حاله ، بعد أن كان من أعظم الثغور الاسلامية ، واستمر ثغر اسوان على تدهوره وخرابه سنين عديدة (٢٣٨) .

ولم يقتصر الامر على ما قام به العربان من فساد وفوضى بالصعيد ، فان ما قام به الأمراء وحكام الأقاليم في الصعيد من نهب وفساد بمدنه وقراه ، زاد الأمر سوءا على سوء . ففي عام ٨١٦ هـ (١٤١٣ م) قدم الأمير فخر الدين ابن أبي الفرج من بلاد الصعيد ، ومعه خيل وجمال وأبقار واغنام كثيرة جدا ، وجمع المال من الأهالي ، واغتصب حلي النساء ، « وعمل في بلاد الصعيد كما تعمل رءوس المناسر اذا هم هجموا ليلا على القرية وتمكنوا بها ، فتله

---

(٢٣٦) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ٥ ص ٢١٣ — ص ٢١٤ .
(٢٣٧) المقريزي : السلوك ، حوادث عام ٨٢٣ هـ .
(٢٣٨) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ١٩٧ ، ص ٣٦٤ ، جـ ٢ ص ٢٤٠ ، السلوك حوادث عام ٨١٥ هـ ، اغاثة الأمة ، ص ٤١ — ص ٤٣ ، أبو المحاسن - النجوم الزاهرة جـ ٦ ص٢٧١ (طبعة كاليفورنيا) .

كان ينزل على البلد فينهب جميع مما فيها ... بحيث لا يسير عنها الى غيرها حتى يتركها أوحش من بطن حمار ، فخرب بهذا الفعل بلاد الصعيد تخربا يخشى من سوء عاقبته » (٢٣٩) . وفى عام ٨٢٢ هـ (١٤١٩ م) قدم الأمير أبو بكر الاستادار من الصعيد ، ومعه مائتا فرس ، والف جمل ، وستمائة راس جاموس ، والف وخمسمائة رأس بقر ، وخمسة عشر الف رأس من الغنم (٢٤٠) .

وهكذا فى القرن التاسع الهجرى ، اختل اقليم الصعيد ، وآلت حالته الى الفوضى والخراب ، وانعدم فيه الامن . وقاسى أهله من شدة الفقر والبؤس بعد خراب القرى وقلة المواشى ، حتى « لقد صار اللبن عندهم طرفة من الطرف ! » (٢٤١) . ومن الطبيعى أن التجارة فى الصعيد ، قد امتد اليها الخراب والفوضى التى انتشرت فى جميع أرجائه ، فالتجارة لا تقوم وتزدهر الا فى ظل حكومة قوية تحافظ على الامن ، وتضرب على أيدى المفسدين .

---

(٢٣٩) المقريزى : السلوك ، حوادث عام ٨١٦ هـ .

(٢٤٠) المقريزى : السلوك ، حوادث عام ٨٢٢ هـ .

(٢٤١) المقريزى : السلوك ، حوادث عام ٨٢٣ هـ ، ٨٢٥ هـ .

الفصل الثالث

الأهمية الثقافية والدينية لأسوان

(أ) الحيــاة العلمية :

كثرة العلماء فى أسوان — فقهاء أسوان الشافعية — حفاظ الحديث — التصوف — علم القراءة — مجاورو المدينة المنورة الأسوانيين — علوم الرياضيات والموسيقى والطب والطبيعيات والمنطق — علوم اللغة والنحو — مدارس أسوان .

(ب) الحيــاة الدينية :

أسوان أحد الثغور الاسلامية — أسوان رباط من أربطة المسلمين — أسوان طريق للحجيج — التشيع فى أسوان قبل العصر الفاطمى — التشيع فى أسوان فى العصر الفاطمى .

(جـ) الحيــاة الأدبية :

شعراء أسوان — أهم شعراء أسوان — أسرة بنى عرام — الأخوين الشاعرين القاضى المهذب والرشيد — شعراء بنى الكنز فى العصر الفاطمى — الشعراء الأسوانيون فى القرن السابع الهجرى — شـــعراء أسوان فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة — كاتب الانشاء فخر الدولة ابراهيم بن محمد الأسوانى — مؤرخ النوبة عبد الله بن سليم الأسوانى .

(د) أسوان معبر رئيسى لنشر الاسلام فى السودان :

ارتباط مصر بالسودان منذ القدم — دور أسوان فى العلاقة بين مصر الاسلامية ومملكة النوبة المسيحية — نزوح الهجرات العربية من مصر الى السودان عن طريق أسوان والتزامها ضفاف النيل — اســـتقرار القبائل العربية فى أسوان — هجرة القبائل العربية الى السودان أخذت صفة التدرج — منطقة المريس — استيطان قبيلة ربيعة أسوان — نزوح بنى الكنز الى شمال

النوبة ـ فتح النوبة فى عهد بيبرس ـ تدفق القبائل العربية الى السودان منذ القرن ١٤ م ـ دور أسوان فى نشر الاسلام فى مناطق البجة بالصحراء الشرقية ـ اختلاط العرب بشعب البجة ـ تدفق القبائل العربية الى أوطان البجة فى القرن الثالث الهجرى ـ طريق الحج من أسوان ساهم فى نشر الاسلام بين شعوب البجة ـ دور أسوان فى تجارة النوبة والصحراء الشرقية وأثر ذلك فى نشر الاسلام بين شعوب تلك البلاد ـ معاهدة البقط ـ تجارة الرقيق جعلت المسلمين يتوغلون داخل أراضى السودان .

(أ) الحياة العلمية :

من المشاهد أن النشاط العلمى فى مصر فى العصور الوسطى ، لم يتركز فى العاصمة فقط ، بل نافست العاصمة فى ذلك مدن بعيدة عنها . واذا لم تستطيع تلك المدن ان تتفوق عليها ، الا انها لم تقل عنها بأى حال من الاحوال . وتعتبر أسوان من المدن التى شهدت نشاطا علميا بارزا . وربما كان سبب ذلك النشاط ، عزلتها وبعدها عن العاصمة ، فضلا عن جوها الصحراوى الذى جعل منها بيئة بداوة . وقد ظهر من أبناء اسوان علماء انذاك ساهموا بقسط وافر فى الحياة العلمية التى شهدتها مصر . ولا ادل على ذلك من قول الادفوى فى الطالع السعيد (١) : « وقد خرج من أسوان خلائق كثيرة لا يحصون من أهل العلم والرواية والادب ... قيل لى انه حضر مرة قاضى قوص فخرج من اسوان أربعمائة راكب بغلة (لا يركب البغلة الا العلماء) للقائه ، وكان بها ثمانون رسولا من رسل الشرع » .

نبغ من أبناء اسوان كثير من علماء المذاهب السنية المختلفة ، ففى الفقه المالكى نبغ هارون بن محمد بن هارون الاسوانى (ت ٣٢٧ هـ) (٢) ، ومحمد بن يحيى بن مهدى الاسوانى الذى ولى قضاء مصر (٣) ، وكان فتيا اكثر أهل مصر فى وقته اليه « فهو المشار اليه فى مذهب مالك بمصر » ، وحلقته فى جامع مصر كان يؤمها معظم المالكين ، ومات عام ٣٤٠ هـ (٤) . ومنهم

---

(١) ص ٢٩ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة جـ ١ ص ١٩١ ، الأدفوى : الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد ص ٦٨٦ ، سيدة كاشف : مصر عصر الاخشيديين ، ص ٣٠٧ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٩١ ، الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٣٢ — ص ٥٣٣ ، الادفوى : الطالع السعيد ص ٦٣٨ .

(٤) المقريزى : المقفى جـ ٣ ورقة ٢١٩ ب — ورقة ٢٢٠ أ ، ابن حجر : رفع الاصر عن قضاة مصر ورقة ١٢٣ ب .

أيضا أحمد بن جعفر الأسوانى الصواف المتوفى عام ٣٦٤ هـ أو عام ٣٧٤ هـ ، ومحمد بن يوسف بن بلال الاسوانى المتوفى عام ٣٧٦ هـ (٥) .

وفى الفقه الشافعى نبغ من أهالى أسوان قحزم بن عبد الله بن قحزم الاسوانى ويكنى بأبى حنيفة ، كان أصله قبطيا ، صحب الشافعى ، وأخذ عنه ، وكتب الكثير من كتبه ، وروى عنه عشرة أجزاء من السنن والاحكام ، وكان آخر من صحب الشافعى موتا : بلغ فى الفقة شأوا عظيما ، وأفتى على مذهب الشافعى عدة سنين الى أن مات بأسوان عام ٢٧١ هـ (٦) . وكان من الممكن لقحزم أن يبلغ مرتبة عظيمة من الشهرة او أنه اختار مصر (الفسطاط) مقرا له ، لكنه آثر البقاء بأسوان الامر الذى أدى الى اخمال ذكره فى تلك المدينة النائية (٧) . ومن فقهاء أسوان الشافعية الذين برزوا ، أبو رجاء محمد بن أحمد بن الربيع الاسوانى (ت عام ٣٣٥ هـ) ، ويقال أنه كان أديبا وشاعرا ، نظم قصيدة طويلة بلغت مائة ألف وثلاثين بيتا ، ذكر فيها قصص الانبياء وكتاب المزنى والطب والفلسفة (٨) . كما اختصر أبورجاء الاسوانى من كتب الشافعى ، كتاب « جمل الاصول الدالة على الفروع » فى الفقة ، ويقع فى مجلدين (٩) ومنهم مفضل بن محمد الانصارى الاسوانى (ت ٢٥ جمادى الآخر عام ٥٨٥ هـ) ، الذى رحل الى بغداد ، وتفقه على الامام أبى القاسم يحيى بن على المعروف بابن فضلان وسمع بها.

---

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ص ١٩١ ، الادفوى : الطالع السعيد ص ١٤٣ — ص ١٤٤ ، ص ٦٤٣ .

(٦) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٦٧ ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ١٦٠ — ص ١٦١ . ابن عبد البر النمرى : الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء ص ١١٥ .

(٧) الادفوى : الطالع السعيد ص ٤٦٩ .

(٨) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ص ١٦٨ ، الأدفوى : الطالع السعيد ص ٤٨٥ ، سيدة كاشف : مصر في عصر الأخشيديين ص ٣٠٧ .

(٩) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى جـ ٣ ص ٧٠ — ص ٧١ ، المقريزى : المقفى ، جـ ١ ورقة ٧١ أ — ٧١ ب .

من منوجهر ، ثم أتى الى القاهرة ، ومكث بها الى أن أدركته الوفاة (١٠) .
وكذلك نبغ خاله اسماعيل بن محمد بن حسان الاسوانى (ت ٧ رمضان ٥٩٩ هـ) ، فقد رحل مثله الى بغداد ، وتفقه على ابن فضلان ، وسمع من منوجهر ، وحدث بها ، ثم رجع فأقام بأسوان حاكما مدرسا ، ثم غادرها الى القاهرة ، وظل بها حتى وفاته (١١) . ومنهم أيضا مبادر بن نجيب الاسوانى (ت ٥٧٦ هـ) ، الذى جمع بالاضافة الى ذلك مهنة الطب (١٢) ، وعبد الله بن حسن الأسوانى المتوفى عام ٦٣٩ هـ (١٣) . وكذلك أيضا الفقيه الشافعى محمد بن يوسف بن سعد الملك الاسوانى (ت بعد ٦٦٠ هـ) ، حفظ « الوجيز » (١٤) ، ومحمد بن عبد العزيز بن الحسين الاسوانى (ت ٦٧١ هـ) ، فقد انتقل الى مصر واشتغل بالفقه بها عدة سنين ، ثم عاد الى اسوان وتولى الحكم بها حتى وفاته (١٥) . ومنهم الفقيه القاضى محمد بن سليمان بن فرج الكندى (ت ٦٨٧ هـ) ، الذى عرف بتقواه وورعه وتقشفه (١٦) . ومن أبناء أسوان الذين نبغوا فى الفقه الشافعى أبو بكر بن عرام الاسوانى ، كان يعرف الفرائض ويفتى فيها ، عارفا بالجبر والمقابلة والحساب ، وقد خرج من أسوان شابا ، وأقام بالاسكندرية متصوفا ، وصحب الشيخ أبا الحسن الشاذلى الذى شهد له بالولاية ، وتزوج ابنته ، وظل مقيما بالاسكندرية الى أن توفى بها عام ٦٩١ هـ (١٧) . ومنهم أيضا عمر بن عبد العزيز بن الحسين شمس الدين الاسوانى (ت ٦٩٢ هـ) ، أخذ

---

(١٠) الادفوى : الطالع السعيد ص ٦٥٦ .
(١١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٧١ ، الادفوى : الطالع السعيد ص ١٦٥ — ص ١٦٦ .
(١٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ٤٧٤ .
(١٣) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٧٨ .
(١٤) الادفوى : الطالع السعيد ص ٦٤٣ — ص ٦٤٥ .
(١٥) الادفوى : الطالع السعيد ص ٦٣٤ .
(١٦) الادفوى : الطالع السعيد ص ٥٢٢ — ص ٥٢٣ .
(١٧) الادفوى : الطالع السعيد ص ٧٣٦ — ص ٧٣٧ .

الفقه على العلامة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وكان على دراية بالنحو والأدب والشعر (١٨) . ومن فقهاء أسوان الشافعية عمر بن عبد العزيز الاسوانى ، كان من الفقهاء المفتيين ، رحل من أسوان الى قوص ، ثم الى القاهرة للاشتغال بالفقه ، وكانت تأتى اليه الكتب من أهله فلا يقرؤها ، حتى حصل مقصوده من العلم ، وكان الى جانب اشتغاله بالفقه نحويا ، أديبا شاعرا ، وظل مقيما بالقاهرة الى أن أدركته الوفاة عام ٦٩٢ هـ (١٩) . ومنهم أيضا الحسن بن محمد بن عبد العزيز الاسوانى ، كانت له مشاركة فى النحو والاصول ، وقرأ على عمه عمر بن عبد العزيز الاسوانى ، اشتهر بتدينه ونزاهته ، وتولى القضاء وقام بالتدريس فى أسوان الى أن توفى عام ٧٠٢ هـ (٢٠) . وكذلك محمد بن عيسى بن ملاعب الاسوانى (ت ٧١٧ هـ) (٢١) ، وملاعب بن عيسى بن ملاعب الاسوانى (ت ٧١٩ هـ) (٢٢) . ومن فقهاء اسوان الشافعية أحمد بن أبى الكرم بن عزام الاسوانى ، ولد بالاسكندرية وقرأ القرآن على الدلاصى بمكة ، ودرس الفقه على مذهب الامام الشافعى ، وقرأ النحو ، وسمع الحديث ، وتولى نظر الاحباس الديوانية بالاسكندرية ، وتصدر لاقراء العربية بجامع العطارين بها ، وصحب أبا العباس المرسى ، وأخذ التصوف عنه ، وله شعر ونثر ، وصنف فى الفقه والعربية ، وله تعليق على « المنهاج » للنووى و « مناسك » وغير ذلك ، وتوفى بالقاهرة فى شوال عام ٧٢٠ هـ (٢٣) . ومنهم أيضا محمد بن عيسى الجمحى الاسوانى ، شارك فى النحو ، وله دراية بالتوثيق والحساب وتوفى عام ٧٢٣ هـ (٢٤) . ومن الذين نبغوا فى

---

(١٨) السيوطى : بغية الوعاة جـ ٢ ص ٢١٩ — ص ٢٢٠ .
(١٩) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٤٤٠ — ص ٤٤٣ .
(٢٠) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٠٩ .
(٢١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٦٠٠ .
(٢٢) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٦٥٩ .
(٢٣) الادفوى : الطالع السعيد ص ٧٣ — ص ٧٤ .
(٢٤) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٦٠١ — ص ٦٠٢ .

الفقه الشافعي نجم الدين حسين بن على ابن سيد الكل الازدى الأسوانى (ت صفر عام ٧٣٩ هـ) ، كان ماهرا فى الفقه ، متصوفا ، مفتيا ، تصدر للاقراء بالقاهرة ، وانتفع به الطلبة طبقة بعد طبقة ، فضلا عن اشتغاله فى غالب العلوم والفنون (٢٥) ، ومنهم محمد بن أحمد بن أبى بكر بن عرام الاسوانى (ت ٧٧٧ هـ) ، حدث وأفتى ودرس وصنف (٢٦) .

والى جانب ذلك ، ظهر من أبناء أسوان جماعة من حفاظ الحديث ، نذكر منهم بلال بن يحيى الاسوانى (ت ٢١٧ هـ) ، حدث عن مالك بن أنس والليث بن سعد وابن لهيعة (٢٧) ، ومعاوية بن هبة الله الاسوانى (ت ٢١٨ هـ) ، روى عن مالك بن أنس ، والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة (٢٨) ومنهم وليد بن يحيى الاسوانى (ت ٢٣٤ هـ) (٢٩) ، ومحمد بن عبد الوارث بن جرير بن عيسى الاسوانى (ت ٢٤٧ هـ) (٣٠) . ومن حفاظ الحديث أيضا ، التانى ابراهيم بن موسى الاسوانى (من مواليد القرن الثالث الهجرى) ، سمع الحديث ، وروى عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وأبى الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح (٣١) ، والحسن بن يوسف بن يعقوب الاسوانى (ت ٣١٨ هـ) ، روى عنه ابنه انه كان ثقة ، وفقير بن موسى أبو الحسن الاسوانى ، سافر الى الفسطاط ، وروى عن أبى حنيفة قحزم بن عبد الله الاسوانى صاحب الشافعى ، وتوفى بأنصنا عام ٣٢١ هـ (٣٢) . ومنهم أيضا أحمد بن عبد الوارث الاسوانى ، من موالى عثمان بن عفان ، ويروى

---

(٢٥) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٢٠ ـ ص ١٢١ ، الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٢٤ ـ ص ٢٢٦ ، ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٤٦٣ .

(٢٦) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٤٦٣ .

(٢٧) الادفوى : الطالع السعيد ص ١٧٤ .

(٢٨) الادفوى : الطالع السعيد ص ٦٤٨ .

(٢٩) الادفوى : الطالع السعيد ٧٠٦ .

(٣٠) الادفوى : الطالع السعيد ص ٥٤٣ ، المقريزى : المقفى ، ورقة ٧٤ ب .

(٣١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٦٨ .

(٣٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢١٩ .

عنه انه كان ثقة ، حدث عن عيسى بن حماد وغيره ، ولكن كتبه التى صنفها احترقت ، ولم يتبق منها سوى أربعة أجزاء ، وتوفى عام ٣٢١ هـ بعد احتراق كتبه بسنة واحدة (٣٣) . ومنهم هارون بن يوسف الاسوانى (ت ٣٣١ هـ) ، من موالى عثمان بن عفان أيضا ، وكان القضاة تقبله (٣٤) . ومنهم أيضا محمد بن ابراهيم بن خالد أبو بكر الاسوانى (ت ٣٥٠ هـ) ، حدث عن يونس بن عبد الاعلى وغيره ، وكان مقبول القول عند القضاة (٣٥) ، ومحمد بن هلال الشبى الاسوانى (ت ٣٨٢ هـ) ، كان رجلا صالحا ، ثقة (٣٦) ، وابراهيم بن احمد الاسوانى (ت ٤١٠ هـ) (٣٧) ، ومحمد بن عتيق الاسوانى (ت ٤١٧ هـ) (٣٨) . ومن ابناء أسوان الذين حفظوا الحديث ، محمد بن ابراهيم بن أحمد بن نصر أبو الحسين الأسوانى ، كان خطيب أسوان وحاكمها ، ولاه الخليفة العاضد لدين الله قضاء أسوان واسنا وأرمنت عام ٥٥٨ هـ (٣٩) ، وعيسى بن محمد بن حسان الانصارى الاسوانى (ت ٦٤٤ هـ) (٤٠) ، وابنه يوسف بن عيسى بن محمد بن حسان الانصارى الاسوانى (ت ٦٤٩ هـ) الذى يروى عنه انه كان احد الرؤساء (٤١) . ومنهم محمد بن المفضل بن محمد بن حسان الانصارى الاسوانى (ت ٦٥١ هـ) ، تقلب فى الخدم الديوانية بديار مصر ، ودرس وأفتى وولى القضاء بثغر أسوان (٤٢) .

وفى ميدان التصوف الاسلامى الذى يتسم بالزهد والشفافية الروحية ،

---

(٣٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٥٦ ، الادفوى : الطالع السعيد ص ١٦٤ — ص ١٩٥ .
(٣٤) الادفوى : الطالع السعيد ص ٦٨٩ .
(٣٥) المقريزى : المقفى جـ ١ ورقة ٤٤ ب .
(٣٦) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٦٧ — ص ٣٦٨ .
(٣٧) الطالع السعيد ص ٤٨ .
(٣٨) الطالع السعيد ص ٥٥١ — ص ٥٥٢ .
(٣٩) المقريزى : المقفى جـ ١ ورقة ٤١ ب ، الطالع السعيد : ص ٤٧٦ .
(٤٠) الطالع السعيد : ص ٤٦١ .
(٤١) الطالع السعيد : ص ٧٢٥ .
(٤٢) الطالع السعيد : ص ٦٣٢ ، المقريزى : المقفى جـ ٣ ورقة ٤٤ أ — ١٤٤ ب .

قدمت أسوان الحسن بن على بن الحسن الاسوانى (ت ٤٥٥ هـ) ، عـــرف بزهده وتقواه (٤٣) ، وابراهيم بن على بن أحمد الاسوانى ، كنيته أبو اسحاق الصوفى . وكان ينعت بالشرف وهو لقب صوفى ، وقد توفى فى النصف الاخير من القرن السابع الهجرى (٤٤) . ومن المتصوفين الاســـوانيين محمد بن يحيى الصيفى أبو عبد الله الاسوانى ، ويروى عنه الادفوى فى الطالع السعيد انه « كان مشهورا بالصلاح ، يعتقد بركته وتنقل عنه مكاشفات وكرامات » . وكان أبو عبد الله الاسوانى يدعى انه يرى النبى صلى الله عليه وسلم ويجتمع به ، وأقام بأخميم ، وعند وفاته فى رجب عام ٦٨٦ هـ دفن برباطه بها (٤٥) . وسار فى سلك الصـــوفية أيضا ، ابن أختـــه عمـــر بن محمد بن عبد الكريم الاسوانى الذى ينعت بالصدر ، وقد جاء والده من قزوين ، وأقام بأسوان ، وتزوج بأخت الشيخ ابى عبد الله الاسوانى ، فولدت له صدر الدين هذا ، « فنشـأ فى صلاح وعبـــادة ، وقرأ القراآت ، ثم تصـــوف وأقام بالخانقـــاه بالقاهرة ، امام الصوفية بها ، بصفة صلاح الدين » ، ورويت عنه كرامات منها أن « والدته قد كف بصرها ، فبلغه ذلك ، فتوجه من القاهرة اليها فى قوص ، فقالت له : يا بنى أشتهى ان أبصرك كما كنت أبصرك ، فلما كان الليل توضا وتوجه ، ثم قال لها : ياسيدتى قومى وصلى ركعتين شكرا لله تعالى ، فقامت وقالت : يابنى أرى النجوم .. ، واستمرت تبصر الى حين وفاتها ، وتوفى صدر الدين بالخانقاه بالقاهرة فى ٦ جمادى الاولى عام ٦٨٦ هـ (٤٦) . ومـــن أبناء أسوان الذين انخرطوا فى سلك الصوفية أيضا ، ابراهيم بن عمر بن عبد الكريم الاسوانى ، الذى ينعت بالبرهان ، سمع الحديث من الحافظ عبد المؤمن بن خلف فى ذى الحجة عام ٦٨٧ هـ (٤٧) ، وعبد الله ابن أبى بكر

---

(٤٣) الطالع السعيد : ص ٢٠٦ ــ ص ٢٠٧ .
(٤٤) الطالع السعيد : ص ٥٨ .
(٤٥) الطالع السعيد : ص ٦٤٠ ، المقريزى : المقفى جـ ٣ ورقة ٢٣ ب .
(٤٦) الطالع السعيد : ص ٤٥٧ ــ ص ٤٥٨ .
(٤٧) الطالع السعيد ص ٥٧ .

الأسوانى ، ولد بدمنهور ، وسمع الحديث ، وصحب الشيخ أبا العباس المرسى ، وأمه بنت الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، وذكر عنه أنه كان رجلا صالحا ، له كرامات وتوفى بالاسكندرية عام ٧٢١ هـ (٤٨) .

أما علم القراءة ، وهو قراءة القرآن العظيم على نسق القراآت السبعة ، فقد ظهر من علماء أسوان من يجيد القراءة ، نذكر منهم أحمد بن أبى عثمان الاسوانى ، ويكنى أبا العباسى ، قرأ القرآن الكريم على أحمد بن عبيد الله بن عبد الواحد بالبصرة وكان يجيد القراءة بحرف أبى عمرو (٤٩) . ومنهم الزبير بن على بن أبى شيخة الاسوانى اشتغل بالفقه ، وقرأ القرآن على الزين سلامة ، والسراج عبد الواحد ، ثم رحل الى مصر ، فقرأت عليه القراآت ، ثم انتقل الى المدينة المنورة وأقام بها ، الى أن توفى عام ٧٤٨ هـ(٥٠) .

ومن علماء أسوان من آثر الاقامة فى رحاب المدينة المنورة أو مكة المكرمة بالحجاز ، ليفيد طلاب العلم . واذ كان بعض كبار العلماء الدينيين قد تمكنوا أثناء مجاورتهم أن يكونوا مدرسة فكرية تنشر آرائهم ، وتجمع الناس حولهم (٥١) ، فمن كبار المجاورين — من أبناء أسوان — الزبير بن على بن أبى شيخة الاسوانى الذى ذكرناه كأحد قراء القرآن الكريم ، وقد جاور الزبير بالمدينة المنورة فدرس بها ، وترك من بعده تلاميذ ومحدثين من جميع الاقطار العربية . ومن تلامذته الذين سمعوا عليه « الشفاء » بالمدينة المنورة ، وأجاز لهم : على بن عز الدين الانصارى الزرندى المتوفى عام ٧٧٢ هـ (٥٢) ، ومحمد بن أحمد بن أبى بكر التلمسانى المتوفى عام ٧٨١ هـ (٥٣) .

---

(٤٨) الطالع السعيد ص ٢٧٥ .

(٤٩) ابن الجزرى : غاية النهاية في طبقات القراء جـ ١٠ ص ٨٠ — ص ٨١ ، الطالع السعيد ص ٧٥ .

(٥٠) الطالع السعيد ص ٢٤٨ ، ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٠٥ — ص ٢٠٦ .

(٥١) على السليمان : علاقة مصر بالحجاز زمن سلاطين المماليك ص ٣١١ .

(٥٢) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٢١٦ — ص ٢١٧ .

(٥٣) نفس المرجع : جـ ٣ ص ٢١٦ — ص ٢١٧ .

ومحمد بن صالح بن اسماعيل المدنى المتوفى عام ٧٨٥ هـ (٥٤) ، ومحمد بن أحمد ابن عبد العزيز النويرى المتوفى عام ٨٧٦ هـ (٥٥) ، وعبد الله بن أحمد بن محمد ابن ابراهيم الطبرى المتوفى عام ٧٨٧ هـ (٥٦) ، ومحمد بن أحمد بن محمد بن على الحسنى الفاسى المتوفى عام ٧٩٦ هـ (٥٧) ، وعلى بن عبد الرحمن بن عبد المؤمن الهورينى المتوفى عام ٧٩٧ هـ (٥٨) ، وابراهيم بن على بن محمد بن أبى القاسم بن فرحون اليعمرى المدنى المتوفى عـــام ٧٩٩ هـ (٥٩) ، وعلى بن أحمد بن عبد العزيز النويرى المتوفى عام ٧٩٩ هـ (٦٠) ، ومحمد بن محمد بن على بن ابراهيم الحضرمى المالكى المتوفى عام ٨٠٧ هـ (٦١) ، ومحمد ابن عمر بن على السحولى اليمنى المتوفى عام ٨٠٧ هـ (٦٢) ، وعبد الرحمن بن على بن يوسف الزرندى الحنفى — آخر الرواة عن الزبير الاسوانى وخاتمة أصحابه — المتوفى عام ٨١٧ هـ (٦٣) . ومن مجاورى المدينة المنورة الاسوانيين ، الحسن بن على بن سيد الاهل الاسوانى (ت ٧٢٤ هـ) ، كان فقيهـــا على المذهب الشافعى ، عرف بالصلاح والزهد وكثرة التلاوة ، واشتغل بالعلم والعبادة ، وسكن المدينة المنورة ، وأم الناس فى المحراب الشريف ، وجاور بها ثمانيـة عشر عاما ، الى أن مات ودفن بها (٦٤) . ومن الذين سكنوا المدينة المنورة من

---

(٥٤) نفس المرجع : جـ ٤ ص ٧٦ .

(٥٥) نفس المرجع : جـ ٣ ص ٤١٥ — ص ٤١٦ .

(٥٦) نفس المرجع : جـ ٢ ص ٣٥٠ — ص ٣٥١ .

(٥٧) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٦ ص ٣٤٦ — ص ٣٤٧ ، ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٤٨٢ .

(٥٨) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٦ ص ٣٥٠ ، ابن حجر : أنبـاء الغمر جـ ١ ص ٥٠٠ — ص ٥٠١ .

(٥٩) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٥٣١ .

(٦٠) المرجع السـابق جـ ١ ص ٥٣٧ .

(٦١) ابن حجر : أنباء الغمر جـ ١ ص ٦٨٤ ، السخاوى : الضوء اللامع جـ ٩ ص ٨٣ .

(٦٢) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٧ ص ٧٢ ، ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٦٨٣ .

(٦٣) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٧ ص ١٢٥ ، ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ورقة ١٠٩ — ورقة ١١٠ ، السخاوى : الضوء اللامع جـ ٤ ص ١٠٥ .

(٦٤) الطالع السعيد ص ٢٠٧ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٥٩ ، العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان حوادث عام ٧٢٤ هـ ، ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ١١٣ .

أهل أسوان ، وجاوروا بها على بن محمد بن موسى سبط الزبير الاسوانى ، ولد بالمدينة المنورة عام ٧٥٤ هـ ، ونشأ بها ، وسمع على بعض كبار الشيوخ ، ثم رحل الى القاهرة وسمع على بعض شيوخها ، وعاد ثانية الى المدينة المنورة ، ومن الذين خرجوا للسماع عليه السخاوى (ت ٩٠٢ هـ) فقال عنه : « أنه لم يخلف ببلاد الحجاز أسند منه » ، وكذلك قال عنه شيخ السخاوى واستاذه ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) ، وكان قد اجاز له : « كان عالما عاملا مسندا مكثرا » ، ومات بالمدينة المنورة عام ٨٣٨ هـ (٦٥) .

والى جانب العلوم الدينية ، برز من ابناء أسوان نخبة من العلماء فى الدراسات الفلسفية ، وقد تضمنت تلك الدراسات : الرياضيات والموسيقى والطب والطبيعيات والالهيات والمنطق ، وغير ذلك من العلوم التى وجدت فى مصر العصور الوسطى . ومن هؤلاء العلماء الذين تعددت مواهبهم الشاعر أبورجاء محمد بن أحمد الربيع الاسوانى (٦٦) ، وقد سبق أن تحدثنا عنه كأحد فقهاء المذهب الشافعى . ومنهم الشاعر أحمد بن على الرشيد الاسوانى (ت ٥٦٣ هـ) ، ضرب بسهم وافر فى الفقه واللغة والنحو وعلم العروض والتاريخ والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والنجوم (٦٧) ، ومنهم أيضا هبة الله بن صدقة الأسوانى ، الذى برع فى مهنة الطب وصناعة اليد (صناعة الكحل) ، وبلغ من مهارته فى الطب أن تولى رئاسة الأطباء فى مصر فى زمنه (أواخر العصر الفاطمى) ، ومما يدل على براعته الفائقة أن الخليفة العاضد الفاطمى كانت لديه جارية تحتاج الى الفصد ، غير أنها لا تطيق رؤية الأدوات التى يستخدمها الأطباء فى الفصد ، فاحتال هبة الله على ذلك بأن خبأ المبضع فى فمه ، وامسك بيدها لجس نبضها ، فاطمأنت ، فما كان

---

(٦٥) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٦ ص ٢٤ .

(٦٦) انظر ص ١٤٤ .

(٦٧) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٤ ص ٥١ .

منه الا ان اوماً لتقبيل يدها ، وعند ذلك فصد العرق بالمبضع الموجود فى فمه دون أن تشعر ، فأعجب العاضد لمهارته ، وامر له بخلعة (٦٨) .

ونستطيع أن نلمس نشاط علماء أسوان فى علوم اللغة والنحو ، الى جانب العلوم الدينية والفلسفية . فقد سبق أن استعرضنا فى الصفحات السابقة انتاج بعض علماء أسوان ، الذى اتضح لنا منه تعدد أشكاله فى جميع فنون المعرفة ، فضلا عن دراية العالم بأكثر من علم واحد ، من بينها علوم اللغة والنحو .

ووجدت بأسوان ثلاثة مدارس كبرى لتدريس العلوم والآداب . ومن تراجم الشخصيات التى ذكرها الأدفوى فى كتابه « الطالع السعيد » عرفنا أسماء تلك المدارس وهى : السيفية ، والنجمية ، والبانياسية ، فالمدرسة الأولى درس بها الفقيه عمر بن محمد بن أحمد الانصارى عام ٦٦٧ هـ(٦٩) . والمدرسة النجمية تولى الاعادة بها العلامة الحسين ابى بكر بن عياض بن موسى السبتى المتوفى عام ٦٨٢ هـ (٧٠) ، وعيسى بن ملاعب بن عيسى الأسوانى (ت ٦٩٢ هـ) (٧١) ، والفقيه محمد بن عيسى بن ملاعب الأسوانى (ت ٧١٧ هـ) (٧٢) ، والعلامة عمر بن محمد بن عبد العزيز بن المفضل الأسوانى (ت ٧٤٠ هـ) (٧٣) ، كما درس بها العلامة الحسن بن محمد بن عبد العزيز الأسوانى (ت ٧٠٢ هـ) (٧٤) ، وتولى الامامة بها عبد الحق بن الحسن الأدفوى ، وهو ابن عم الأدفوى مؤلف كتاب الطالع السعيد لأسماء

---

(٦٨) الطالع السعيد : ص ٦٩٠ — ص ٦٩١ ، أحمد عيسى : معجم الاطباء ص ٥٠٦ .
(٦٩) الطالع السعيد ص ٤٥٥ .
(٧٠) الطالع السعية ص ٢٢١ .
(٧١) الطالع السيعد ص ٤٦١ .
(٧٢) الطالع السعيد ص ٦٠٠ .
(٧٣) الطالع السعيد ص ٤٥٩ .
(٧٤) الطالع السعيد ص ٢٠٩ .

نجباء الصعيد (٧٥) أما المدرسة البانياسية ، فتولى الاعادة بهـا العلامة ملاعب بن عيسى بن ملاعب الأسوانى (ت ٧١٩ هـ) (٧٦) ، ودرس بها العلامة نجم الدين أحمد بن محسن الانصارى البعلبكى (ت ٦٩٩ هـ) الذى استقر بأسوان مدة من الزمن ، ثم رجع الى الشـام (٧٧) ، كما درس بها قاضى أسوان يوسف بن محمد السيوطى المتوفى عام ٧٢٤ هـ (٧٨) .

وقد صمتت المراجع التى اتيح لنا الاطلاع عليها عن ذكر أى شىء يتعلق بمؤسسى تلك المدارس الثلاثة وتاريخ نشأتها . وفى تصورنا أن تلك المدارس قـد أنشئت فى عهد الدولة الأيوبية ، لأن أسمائها توحى بذلك . فضلا عن أن الأيوبيين حصروا اهتمـامهم فى تشـييد المدارس بمصر لنشر المذهب السنى (٧٩) فعندما استولى صلاح الدين الأيوبى على مصر لم يكن بهـا مدارس ، فشيد المدارس لأول مرة فى مصر ، وكان لا يدخر وسعا فى سبيل الانفاق عليها (٨٠) .

وقـد ظلت تلك المدارس الثلاث تنهض بمهامها العلمية خلال القرنين السادس والسابع للهجرة ، واسـتمرت قائمة حتى قبل منتصف القـرن الثامن الهجرى فيما عدا واحدة منهن ، فمن الترجمة الشخصية لقاضى أسوان شعيب بن يوسف الأسنائى فى الطالع السعيد ، وردت جملة تقول: « ودرس بالمدرستين بأسوان » (٨١) ، ولم يسمى الأدفوى هاتين المدرستين بأسمائهما . غير أننا نستدل من جملته المذكورة على أن احـدى المدارس الثلاث قـد أغلقت أبوابها قبل منتصف القرن الثامن الهجرى .

---

(٧٥) الطالع السعيد ص ٢٨٤ .
(٧٦) الطالع السعيد ص ٦٥٩ .
(٧٧) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٤ — ص ٤٤٥ .
(٧٨) الطالع السعيد ص ٧٢٦ — ص ٧٢٨ .
(٧٩) أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ١١٧ .
(٨٠) ابراهيم الحنبلى : شفاء القلوب ورقـة ٥٢ ب ، أحمـد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ٣٥٦ — ص ٣٥٧ .
(٨١) الطالع السعيد ص ٢٦٠ .

(ب) الحيـــاة الدينية :

أطلق المسلمون على اى بلد يقع على حدود العدو ثغرا ، كما قيل عن الثغر الذى يدافع أهله عن الاسلام اسم رباط ، وقـــد جاءت كلمة رباط من قوله تعالى : « وصابروا ورابطوا » (٨٢) أى أن الله يحث عبـــاده المؤمنين على الصبر والجهاد ، ومن قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . ولمـــا كانت أسوان تقع على حدود النوبة المســيحية ، وتمثل خط الدفـــاع الأول لمصر من ناحية الجنوب ، فقد أعتبرها المسلمون أحد الثغور المعدة للرباط فى ســـبيل الله تعالى ، بل من المؤرخين من قال عن أسوان : « الثغر الأعظم والرباط الأكبر وآخر مناهل المسلمين » (٨٣) .

وبالاضافة الى ذلك ، فان أسوان كانت احد المحطـــات الهامة التى ينفذ منها الحجاج الى بيت الله الحرام ، عبر الصحراء الشرقية حيث ميناء عيذاب ، ومنها يركبون البحر الى جدة (٨٤) .

ففى القرون الاسلامية الأولى ، سلك الحجاج الى مكة المكرمة طريقين : احدهما برى والآخر بحرى . أما الطريق البرى فكان يسير عبر الصحراء الشرقية الى القلزم ، ويمر بعد مغادرة مصر ببركة الحاج (شرق قرية المرج الحالية) ، فالقلزم ، فنخل ، ثم يسير بحذاء البحر الأحمر حتى يصل الى حقل ، ومنها الى مدين ، فالمويلحة ، فالأزلم ، فالوجه ، ومنها الى الحوراء ، فينبع ، فبـــدر ، فالجـــار ، فرابغ ، فخليص ، فبطن مر ، ومنها الى مكة المكرمة (٨٥) . وكانت قوافل الحجاج تسير متجهة الى القلزم فى اتجاه يكاد

---

(٨٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٢٦ .
(٨٣) الشيخ ابو صالح الأرمنى : تاريخه ورقة ١٠١ أ .
(٨٤) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ص ٣٥ ، دائرة المعارف الاسلامية مـــادة أسوان .
(٨٥) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٦٥ .

يكون شبه راسى فى ثلاثة أيام ، غير أن هذا الطريق لم يكن مألوفا كالطريق البرى الذى يقطعه الحجاج الى أيلة فى ستة أيام ، ولا يمكننا تقدير الزمن الحقيقى الذى تستغرقه قوافل الحجاج ابتداء من مصر لاختلاف التقدير ، وان كان يتراوح بين خمسة وعشرين وبين أربعين يوما (٨٦) . وقد تعطل هذا الطريق منذ قيام الحروب الصليبية مما اجبر الحجاج الى التحول صوب الجنوب عند ثغر عيذاب ومنها بحرا الى جــدة ، وكان الحجاج يفدون الى عيذاب عن أحد طريقين : أحداهما طريق قوص ويتفرع الى فرعين ، أحدهما يعرف بطريق « العبدين » ويعرف الآخــر بطريق « دون » وهى قرية على شاطىء النيل ، أما الطريق الثانى فهو طريق مدينة أسوان (٨٧) . وظلت عيذاب طريقا للحجاج فى ذهابهم وعودتهم أكثر من مائتى سنة أى من أعوام بضع واربعمائة وخمسين الى اعوام بضع وستين وستمائة بعــد الهجرة ، وكثر استخدامها منذ أيام الشــدة العظمى فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى حيث انقطع الحج برا (٨٨) . ويمتاز ميناء عيذاب بخلوه من الشعاب المرجانية التى تعوق الملاحة ، فضلا عن غزارة مائه (٨٩) . أما الطريق من أسوان الى عيذاب ، فقطعه الرحالة ناصر خسرو فى ١٥ يوما ، وأمدنا بصورة وافية عنه ، فقال : « وبعد ثمانية فراسخ من رحلتنا بلغنا جهــة تسمى « ضيقة » وهى واد فى الصحراء ، على جانبيه حائطا من الجبال ... وبعد أن تركنا ضيقة ، سرنا خمسة أيام فى صحراء لا ماء فيها ... ثم بلغنا منزلا يسمى « الحوض » ، وهو جبل حجرى فيه عينان يتفجر منهما مــاء عذب يستقر فى حفرة ، ولم يكن بد من ان يذهب رجل الى حيث العينان ليحضر الميــاه لشرب الابل ، التى مضى عليها سبعة أيام لم تشرب فيها ولم تأكل ،

---

(٨٦) جاستون فييت : المواصلات في مصر في العصور الوسطى ص ٤٩ .
(٨٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٧ .
(٨٨) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٠٠ .
(٨٩) حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٢٢٤ .

اذ أن علفها قـد نفذ كله . وكانت تستريح مرة فى الأربع وعشرين ساعة ، وذلك من الوقت الذى تشتد فيه حرارة الشمس حتى صلاة العصر ، وتسير بقية الوقت . والمنازل التى ينزلون بها معلومة ، فليس ممكنا النزول فى أى مكان ، لتعذر وجود ما توقد به النار . أما فى هذه المنازل فانهم يجدون بعر الابل ، فيتخذونه وقودا يطبخون عليه ما تيسر ، وكأن الابل تعلم أنها ان أبطأت ماتت عطشا ، فهى تسير غير محتاجة لأن يسوقها أحد ، متجهة من تلقاء نفسها ناحية المشرق فى هذه الصحارى حيث لا اثر او علامة تدل على الطريق ... وفى العشرين من ربيع الأول عام ٤٤٢ هـ (٢ أغسطس سنة ١٠٥٠ م) بلغنا مدينة عيذاب ، ومن أسوان حتى عيذاب التى بلغناها بعد خمسة عشر يوما مائتا فرسخ بالتحديد » (٩٠) . أما ابن رستة (٩١) فقد روى لنا أن المسافة التى تستغرقها قوافل الحجاج من أسوان الى ساحل عيذاب تبلغ مسيرة أربعة عشر يوما ، فمن أسوان الى العلاقى مسيرة عشرة أيام ، ومن العلاقى الى عيذاب مسيرة أربعة أيام . وقد وصف لنا أبو شامة (٩٢) الطريق من عيذاب الى أسوان بأنها « أشق من كل طريق سلكناها ومن كل مسافة قطعناها ، لأنا وردنا المـاء فى احدى عشرة ليلة مرتين ، وكانت الهمة قاصرة فى المراد ، فكانت البلوى عظيمة فى العطش فأما الحرون والوعور فهى تزيد على ما فى برية الشـام بكونها طريقا بين جبلين كالدرب المتضايق والزقاق المتقارب ، وحر الشمس شديد » . ورغم هذه الصعاب ، فان قوافل الحجاج كانت تفضل طريق أسوان ـ عيذاب عن طريق قوص ـ عيذاب ، فمسافة الطريق الأول تستغرقها القوافل فى خمسة عشر أو أربعة عشر يوما ، أما مسافة الطريق الثانى فتستغرقها القوافل فى سبعة عشر يوما (٩٣) . هذا بالاضافة الى أن طريق أسوان ـ

---

(٩٠) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٧٢ .
(٩١) الأعلاق النفيسة ص ١٨٣ .
(٩٢) الروضتين فى الدولتين جـ ٢ ص ١٤ .
(٩٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٠١ .

عيذاب كان يخلو من الجبال المشتبكة التى فى طريق قوص ـــ عيذاب ، ولعل من أجل هذا أطلق عليه طريق « الوضح » (٩٤) لسهولته ، فالابل ـــ كما مر بنا فى وصف ناصر خسرو ـــ كانت تعرف طريقها نحو المشرق دون ما حاجة الى دليل . واذا قيل أن طريق أسوان ـــ عيذاب كان محفوفا بالمتاعب فيجب أن لا يغيب عن بالنا أنه لا يختلف عن الطريق الصحراوى من أيلة الى يثرب، فبينما المسافة من أسوان الى ساحل البحر الأحمر كانت لا تزيد عن خمسة عشر يوما ، كانت القوافل من الفسطاط الى الحجاز تحتاج الى زمن يصل الى أربعين يوما ، ولا عبرة بالمسافة اللازمة للسفر من الفسطاط الى أسوان ، فقد كان النيل خير سبل النقل واقلها مشقة (٩٥) .

ولم يكن الطريق النيلى هو الطريق الوحيد الذى سلكه الحجيج من مصر الى أسوان فى القرون الاسلامية الاولى ، وخاصة عندما تعطل طريق البر الشمالى ، بل استعمل الحجاج الطريق البرى الذى يربط بين مصر وأسوان ، ويتمثل ذلك الطريق فى الجسور التى على مجرى النيل من الجانبين (٩٦) . وقد استخدم ابن بطوطة الطريق البرى عندما عقد نيته على تأدية فريضة الحج ، اذ سافر من مصر حتى وصل الى أدفو شمالى أسوان ، ومنها الى عيذاب (٩٧) .

وكان الحاج الذى يسلك طريق عيذاب يؤدى ضريبة قدرها سبعة دنانير مصرية ونصف ، تدفع عند عيذاب أو جدة ، ومن لم يؤد تلك الفريضة منع من الحج ، وعذب ، وقد أبطل صلاح الدين الايوبى تلك الضريبة فى عام ٥٧٢ هـ ، وعوض أمير مكة عنها بألفى دينار ، وألف اردب قمح ، سوى

---

(٩٤) أبوالفدا : تقويم البلدان ص ١٢١ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٧ .

(٩٥) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ٢٩١ ـــ ص ١٩٢ .

(٩٦) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٤١ ، محمد حمدى المناوى : نهر النيل في المكتبة العربية ص ٣٥ .

(٩٧) مهذب رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٣٦ ـــ ص ٤٣ .

اقطاعات بصعيد مصر وباليمن (٩٨) . ولابد أن هذا الاجراء الذى اتبعه صلاح الدين الايوبى ، قد سهل على حجاج بيت الله الحرام تأدية فريضة الحج ، وخفف عن كاهلهم نفقات الرحلة الطويلة الشاقة التى ينفقونها فى سبيل الله .

وما زال طريق عيذاب طريقا للحج منذ القرن الاول للهجرة ، وصار الطريق الوحيد الذى سلكه الحجاج لمدة قرنين من الزمان من ٤٥٠ هـ / ١٠٥٢ م حتى ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م عندما كسا السلطان الظاهر بيبرس الكعبة ، وعمل لها مفتاحا ، ثم أرسل قوافل الحج برا ، وبذلك قل استخدام طريق عيذاب مسلكا للحجاج (٩٩) .

أما عن التشيع فى أسوان ، فقد ذكر الادفوى : « ولما كانت البلاد للعبيدين (الفاطميين) غلب على أهلها التشيع ، وكان بها قديما أيضا ، وقد قل ذلك واضمحل » (١٠٠) . ويثير انتباهنا على وجه التحديد قوله أن التشيع كان منتشرا فى أسوان قبل مجىء الفاطميين الى مصر عام ٣٥٧ هـ . والحقيقة بخلاف ذلك ، فأسوان لم يكن التشيع بها سائدا فى القرون الاسلامية لمصر خلال عصر الولاة والدولة الطولونية والدولة الاخشيدية . فشواهد القبور العديدة التى عثر عليها فى الحفريات التى أقيمت بأسوان لم يوجد من بينها غير شاهد واحد لسيدة نستبين منه أنها كانت تعتنق المذهب الشيعى ، فقد جاء فى ذلك الشاهد ما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى على خير الوصيين ، وعلى الائمة من ذريتهم الطاهرين ، وارحم أسما بنت حسن بن محمد بن أحمد

---

(٩٨) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٤ .
(٩٩) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ٢٠١ ، البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٤٤ .
(١٠٠) الطالع السعيد ، ص ٣٤ .

الطرانى ، توفيت فى مستهل جمادى الاولى عام ٤٢٠ هـ (١٠١) . فلو كان التشيع موجودا فى أسوان قبل العصر الفاطمى ، لكنا عثرنا على شـواهد قبور تدعم ذلك الرأى . وربما قصــد الأدفوى الأشراف العــلويين الذين استوطنوا أسوان ، فقد كشفت الحفائر عن وجود أشراف علوية منهم زينب ابنة على بن عيسى بن عبد الله التى ينتهى نسبها الى على بن أبى طالب ، والمتوفاة فى منتصف القرن الثالث الهجرى (١٠٢) ، ومنهم محمد بن اسماعيل بن القسم بن ابراهيم الذى ينتهى نسبه الى على بن أبى طالب ، والمتوفى فى ٦ شعبان عام ٣١٥ هـ (١٠٣) . ومنهم ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن محمد الذى ينتهى نسبه الى جعفر بن أبى طالب والمتوفى عام ٣٨٥ هـ (١٠٤) ، ومن الاشراف العلوية الذين أتخذوا من أسوان مقرا لهم ، آمنة بنت الحسين بن

---

(١٠١) حفريات عبد الرحمن عبد التواب ، لم تنشر حتى الآن .

قام الاستاذ عبد الرحمن عبد التواب مدير الآثار الاسلامية والقبطية بمصلحة الآثار المصرية بعمل حفريات في جبانة اسوان . وقد أعطانا ــ مشافهة ــ سيادته فكرة شاملة عن حفريات جبانة أسوان : « يمتد مقبرة أسوان في الصحراء شرق المدينة الحالية ، وهى تبدأ شمال حى القطانية ، ثم يمتد الى جنوب هذا الحى ، فتستمر بطول جانبى الطريق الموصل الى خزان أسوان حتى حوالى ٦٠٠ متر شمال المقبرة الانجليزية . وأقصى اتساع للمقبرة من الشمال الى الجنوب هــو حوالى ١٨٠٠ متر وأقصى عرض لها حــوالى ٥٠٠ متر . وقــد اتجهت انظار هواة الآثار وأهالى أسوان الى الشواهد المكتوبة بالخط الكوفي في الربع الأخير من القرن التاسـع عشر الميلادى ، وأخذوا في نزعها لاستعمالها في مبانيهم أو كمورد للرزق (لبيعها لتاجر الآثار) . وقد نبه ذلك المسئولين الى ضرورة المحافظة على تلك الشواهد ، الا أن الاجراء الذى اتخـذ بنزع الشواهد بغية المحافظة عليها قد أضر بالجبانة ضررا بالغا . فبدلا من عمل مخطط للجبانة توقع عليه المقابر وتأخذ أرقام توضع على الشواهد بعد نزعها ، وفي هـذا ولاشك حفظ لتاريخ المقابر نفسها . وقد قام Jrébout عام ١٨٨٨ م و De Morgan عــام ١٨٩٦م بنزع الشواهد دون أية دراسة أو ترقيم لها بالنسبة للمقابر الخاصة بها وقد لاحظ ذلـك Mouneret de Villard الذى لم يعثر في هذه الجبانة الشاسعة الا على مقبرة واحدة عليها شاهد مؤرخ عام ٤١١ هـ . وأثرت عوامل التعرية في هــذه المقبرة ، ولم يستطع الاستاذ كريزويل تمييزها لانه كما ذكر لم يضعها مونريت على خريطته . وقد عــثر الاستاذ عبد الرحمن عبد التواب في ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٦٠ على هذه المقبرة بشاهدها وعلى ثلاث مقابر أخرى مؤرخة أثناء دراسته النهائية للجبانة قبل بدء الحفائر التى أجراهــا من ديسمبر ١٩٦٠ الى منتصف ١٩٦٣ م ، وهى الحفائر التى لم يجرى قبلها حفائر اسلامية في جبانة أسوان . وقد أنفق على هذه الحفائر محافظة أسوان ومصلحة الآثار .

(١٠٢) Wiet : Catalogue général du Musse Arabe du Caire. Stéle funéraires, Vol. VIII., p. 42.

(١٠٣) Wiet : Op. Cit., Vol. IV., p. 180,

(١٠٤) Weit : Op. Cit., Vol., p. 3.

الحسن بن أحمد التى ينتهى نسبها الى على بن أبى طالب، والمتوفاة عام ٤٨٤ هـ (١٠٥) ، والشريفة رقية ابنة معلا بن على بن الحسن بن ابراهيم التى ينتهى نسبها الى على بن أبى طالب والمتوفاة عام ٤٩٥ هـ (١٠٦).. ومنهم الشريف أبا الحسن محمد بن حيدره الذى ينتهى نسبه الى على بن أبى طالب والمتوفى عام ٥٣٢ هـ (١٠٧) . واذا كانت تلك الشواهد التى ينتمى أصحابها الى الاشراف والتى كشفت عنها حفائر أسوان ، فان الادفوى يقول عن الاشراف فى أسوان : « وأخبرنى من وقف على مكتوب فيه أربعون شريفا خاصة ، وأن مكتوبا آخر فيه سبعون شريفا دون غيرهم ، ووقفت أنا على مكتوب فيه قريب من أربعين ، وفيه جمع كبير من بيت واحد مؤرخ بما بعد العشرين وستمائة (١٠٨) .

ولو فرض أن اسوان كان يوجد بها شيعة قبل العصر الفاطمى ، فانها فى ذلك مثل بقية المدن المصرية التى كان بها شيعة ، ففى الحقيقة أننا لا نستطيع القول أن المصريين شغلتهم الآراء الشيعية التى شغلت شيعة العراق وفارس ، وكذلك فانهم لم يعتنقوا مذهبا شيعيا كغيرهم من فرق الشيعة الاخرى ، ولم يتخذوا التشيع طريقا للعبادة العملية كما فعل غيرهم ، وانما كان هو أهم مع على بن أبى طالب وأهل بيته ، ولكنهم لم يجاهروا كما جاهر الشيعة فى الاقطار الاخرى ، ولم يفلسفوا عقيدتهم ، بل اكتفوا بالقول بتفضيل على ، وحرصوا على حبهم لاهل البيت ، يكرمون الاحياء ، ويتبركون بالاموات ، حتى دخل القائد جوهر الصقلى مصر (١٠٩) .

---

(١٠٥) Wiet : Stéles funeraires, Vol., VI., p. 172.

(١٠٦) Wiet : Op. Cit., Vol. VI., p. 177

(١٠٧) Wiet : Op. Cit., Vol. VI., p. 190.

(١٠٨) الطالع السعيد ص ٢٩ — ص ٣٠ .

(١٠٩) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٧ — ص ١٨ ، التشيع فى الشعر المصرى ص ٥٧ .

وعندما جاء الفاطميون الى مصر ، واتخذوها مقرا لدولتهم ، جاءوا معهم بالمذهب الشيعي المخالف لمذهب السنة الذى يعتقده أهل مصر . وعملوا على انتشار مذهبهم عن طريق عدد من الدعاة انبثوا بين الناس ، وما زالوا بهم حتى أقبل على دعوتهم عدد كبير ، واعتنقوا المذهب الشيعي رغبة او رهبة . غير أن ذلك الأنتشار لم يكن له اثر فى الحياة الفكرية ، فقد ظل أكثر المصريين على مذهب اهل السنة يختلفون فيما بينهم بين آراء مالك والشافعى ، وقل أن نجد بينهم من كان على مذهب ابى حنيفة أو من يقول بمقالات المعتزلة أو الشيعة (١١٠) . وفى تصورنا أن التشيع الذى انتشر فى مصر أبان عهد الدولة الفاطمية اتخذ صفة سياسية ، ولم يتغلغل فى عقيدة المصريين . ومما يؤيد ذلك ان الدولة الفاطمية عندما دالت ، وحلت محلها الدولة الأيوبية السنية ، فان الاخيرة عملت على محاربة التشيع بنفس الاسلوب الـــذى استخدمه الفاطميون عن طريق فتح المدارس السنية فى مدن مصر ، وتشجيع حركة التصوف (١١١) . واذا كان اهل اسوان قد اعتنقوا المذهب الشيعي خلال الحكم الفاطمى كما ذكر الأدفوى ، فانه من الأولى أن تعتنق قبيلة بنى الكنز ذلك لمذهب ، لما يربطها من مصالح مع الدولة الفاطمية الاولى ، خاصة فى عهد حاكم بأمر الله . ولكن تلك القبيلة لم تكن متشيعة ، بدليل أن شواهــد القبور التى عثر عليها لبنى الكنز (١١٢) لا نستخلص من نقوشها انهم كانوا يعتنقون مذهب الشيعة فى حياتهم . فقد جاء على شـــواهد قبورهـــم بعد البسملة ، جملة نصها : « اللهم صلى على محمد النبى وآله الطاهرين » . وهذه الجملة كتبت على غالبية شواهد القبور ابتداء من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، اى قبل مجىء الفاطميين الى مصر — سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) — بأكثر من نصف قرن . هذا فى حين ان شواهد القبور التى ينتمى

---

(١١٠) محمد كامل حسين : التشيع في الشعر المصرى ص ٥٨ .

(١١١) محمد كامل حسين : المرجع السابق ص ٨٧ .

(١١٢) حفريات عبد الرحمن عبد التواب ،

Wiet . Op. Cit., Vol. 10. p. 105.

اصحابها الى المذهب الشيعى ، نقش عليها بعد البسملة ، جملة نصـــها : « اللهم صلى على محمد خاتم النبيين ، وعلى على خير الوصيين ، وعلى الأئمة من ذريتهم الطاهرين » . كما أن ابيات الشعر القليلة التى قالها شعراء اسوان فى مدح بنى الكنز لا نستشف منها انهم كانوا على المذهب الشيعى . وبالاضافة الى ذلك ، فان الأدفوى أورد لنا فى كتابه الطالع السعيد (١١٣) أكثر من ثمانين ترجمة شخصية ينتمى اصحابها الى أسوان ، لم نلحظ فيها من كان عقيدته المذهب الشيعى .

على اية حال ، فان زوال الدولة الفاطمية اعقبه ضعف التشيع فى مصر ، ويشير المقريزى الى ان منذ تولى صلاح الدين الايوبى امور مصر عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) أختفى مذهب الشيعة والاسماعيلية والامامية حتى فقد من أرض مصر كلها (١١٤) . والنهاية السريعة للمذهب الشيعى فى مصر ، تدل على أن ذلك المذهب لم يتغلغل فى عقيدة المصريين .

(جـ) الحياة الأدبية :

ازدهرت الحياة الادبية فى اسوان ازدهارا قلما نراه فى احدى مـــدن مصر زمن العصور الوسطى . هذا وان كان الشعر قد نشط فى اســوان ، وحاز مكانة اعظم من النثر . وبرز من اسوان شعراء موهوبون اضافوا الى مكتبة الادب فى مصر العصور الوسطى شيئا جديدا ، اذ خاضوا فنون الشعر العديدة ، وأعطونا ابعادا شاملة عن معانيه الواسعة . وسنرى فى دراستنا كيف أن الشعر فى أسوان خطا خطوات واسعة .

ومن الملاحظ ان بعض العائلات فى أسوان ، قد نبغ العديد من أفرادها فى نظم الشعر . ومن امثلة ذلك بنو عرام ، فمن شعراء بنى عرام الشـــاعر

---

(١١٣) أماكن متفرقة .
(١١٤) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ص ٣٤٢ .

علي بن أحمد بن عرام الاسواني (توفى في حدود عام ٥٨٠ هـ) ، تخطت شهرته أسوان ، ووصلت الى مصر ، فسأل عنه العماد الاصفهاني عام ٥٧٣ هـ وطلب شعره ، فأحضر له بعض اصدقائه من أسوان ديوانه ، فلما قرأه العماد قال عنه : « فوجدته حاكيا في سماء السحر كيوانه ، فجمعت شارد حسنه وغبطت عليه أسوانه ، وجلوت بكر نظمه وعوانه ، ووضعت لمأدبة أهل الادب من اخوانه خوانه (١١٥) . ويعزى للعماد الفضل في حفظ شعر ذلك الشاعر ، فلولا ما أورده لنا من مختارات شعره في الغزل والهجاء والرثاء والحكمة لضاع تراثه . وله من شعر الغزل (١١٦) :

كم ليال نعمت فيها بخود ... فاقت البدر في السنا والسناء
ذات جيد كالريم حلاه عقد ... حل فيه بحل عقد عزائي
وترشفت من رضاب برود ... فاق طعم السلافة الصهباء

وقوله أيضا (١١٧) :

كم قد تصبرت عنه ... فما أطلقت سلوه
أرى الصلاح لقلبي ... اذا نظرت دنوه

ومثل (١١٨) :

الا من مبلغ سعدى بأني ... ظمئت الى مراشفها العذاب
وأني والمهيمن مذ تناءت ... من الشوق المبرح في عذاب

وله تهنئة بمولود (١١٩) :

قد أطلع الله لنا كوكبا ... أضاء شرق الأرض والمغربا
قادم سعيد يقتضي سعده ... سعادة الوالد اذ أنجبا
والأصل ان طاب ثرى غرسه ... أنبت فرعنا مثمرا طيبا

---

(١١٥) العماد الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ج ٢ ص ١٦٥ ، الطالع السعيد ص ٣٧١ .

(١١٦) العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، ج ٢ ص ١٦٦ ، الطالع السعيد ص ٣٧٢ .

(١١٧) العماد : خريدة القصر ج ٢ ص ١٦٦ .

(١١٨) الطالع السعيد : ص ٣٧٢ .

(١١٩) العماد : خريدة القصر ج ٢ ص ١٦٧ ، الطالع السعيد ص ٣٧٣ .

ولعلى بن عوام الاسوانى فى المدح شعر كثير ، فقد مدح بنى الكنز فى أسوان وغيرهم من الشخصيات ، ولكن الشعر الذى قيل فى مدح بنى الكنز لم يذكره لنا العماد فى الخريدة . وربما يرجع سبب أهماله ذلك الشعر لما اظهره بنو الكنز من عداء لصلاح الدين الايوبى عندما قامت الدولة الايوبية فى مصر ، اذ من المعروف أن العماد الاصفهانى كان فى خدمة صلاح الدين الايوبى ومن المقربين اليه . وقد ذكر الادفوى قصيدة لابن عوام الاسوانى يمدح فيها كنز الدولة بن المتوج ، وقد بدأ الشاعر قصيدته بأبيات فى الغزل ، ثم أورد لنا أبياتا يصف فيها بستانا وبركة وسواقى نستشف منها ما يبذله كنز الدولة بن المتوج من عطاء للشعراء ، وهى (١٢٠) :

كأن خرير الماء فى جنباته ... أنين لمهجور يحن الى وصل

جداوله تجرى عيونا كأنها ... نصول سيوف لامعات من الصقل

وقد غردت أطياره فكأنها ... قيان تطارحن الغناء على مهل

تصب على فسقية ذوب فضة ... تفيض كما فاضت يمينك بالبذل

وله من قصيدة يمدح فيها مبارك بن منقذ ، وهو من شخصيات العصر الفاطمى (١٢١) :

فديتك فاشرب من مديحى قهوة ... تلذ لذى سمع ونشوان شارب

على امتداحى للكرام مناصبا ... فذلك أحلى من غناء الجنائب

يقول له من جاء يطلب رفده ... ونجدته أنعش بالندى وتدارك

ويشك فى ماله كل قاصد ... ولكنه فى المجد غير مشارك

وعندما قامت الدولة الايوبية فى مصر عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، مدح الشاعر أصحابها ، من ذلك نظم قصيدة مدح فيها شمس الدولة توران شاه ،

---

(١٢٠) الطالع السعيد ص ٣٧٧ — ص ٣٧٩ .
(١٢١) العماد : خريدة القصر ج ٢ ص ١٦٨ — ص ١٦٩ .
(١٢٢) الطالع السعيد ص ٣٨٠ .

فى الوقت الذى أهتم فيها بمدح صلاح الدين الايوبى . ومن تلك القصيدة قوله (١٢٣) :

وما الملك الا لائق بأخيكم — وغاربه الا له غير مركوب
فأنتم نجوم وهو كالشمس ضوءها — ملى بتشريق يعم وتغريب
أيوسف مصر انما انت يوسف — فأنت ابن أيوب وذاك ابن يعقوب
وما برحت مصر قديما حياتها — ببعث من القطر الشامى مجلوب

وله فى قصيدة يمدح فيها الملك العادل سيف الدين أبى بكر الايوبى اخى صلاح الدين يوسف بن ايوب ، عندما انتصر على كنز الدولة وقتله (١٢٤) :

فأين ينجو هائب هارب — من نكبة شنعاء ذات احتياج
انى وظهر الأرض مع بطنها — لناصر الاسلام فى بطن راح

وقال يمدح عز الدين موسك الناصر والى قوص وأسوان فى العصر الايوبى (١٢٥) :

بلغت بسعد الجد اسنى المراتب — فتاج اذا ماشئت زهر الكواكب
نزعت الى جرثومة من خئولة — نمتك واعمام كرام المناصب
اذا وعدوا اوفوا وان اوعدوا عفوا — وان سئلوا اعطوا جزيل المواهب

ونظم الشاعر قصائد فى الهجو ، ففى احداها يقول (١٢٦) :

عناصر الانسان من اربع — وخالد عنصره واحد
فمن كثيف الأرض تكوينه — فهو ثقيل يابس بارد

وفى قصيدة اخرى يقول (١٢٧) :

شاعرنا ذو لحية — قد عرضت وانفسحت
لحية تيس صلحت — لفقحة قد سلحت

---

(١٢٣) العماد : خريدة القصر جـ ٢ ص ١٦٩ — ص ١٧١ .
(١٢٤) العماد : خريدة القصر جـ ٢ ص ١٧٣ — ص ١٧٥ .
(١٢٥) العماد : خريدة القصر جـ ٢ ص ١٦٧ ؛ الطالع السعيد ص ٣٨١ .
(١٢٦) الطالع السعيد ص ٣٨٠ .
(١٢٧) العماد : خريدة القصر جـ ٢ ص ١٧٢ ؛ ألطالع السعيد : ص ٣٨٠ .

كما نظم الشاعر أبياتا للرثاء : فمن قصيدة له يرثي فيها ابن عمه هبة الله بن على بن عرام الأسوانى المتوفى عام ٥٥٠ (١٢٨) :

من لسود الخطوب غيرك يجلو ـها وقد غاب منك بدر منير
من يحوك القريض مثلك يسد به على خبرة به ويشير
ليس فى العيش بعد فقدك خير حبذا وافد الردى لا يزور

كما تدم الشاعر لنا أيضا قصائد فى الحكمة ، ففى احداها يقول (١٢٩) :

من لم يمت فى يومه مات غده لابد من منهله أن يرده
من ينخذ العلم خدينا عضده وحاطه فى دينه وأيده
فأنس به تكف شرور الحسده وبن من الناس وكن على حده

وفى قصيدة اخرى يقول (١٣٠) :

وما المرء الا من وقى الذم عرضه وعز فلا ذام لديه ولا غش
وليس بمن يرضى الدناءة والخنا طباعا ولا من دابه الهجر والفحش

ويبدو أن اقامة الشاعر بأسوان ضاقت بها احلامه ، وقد عبر عن تبرمه وضيقة بها ، وتاقت نفسه لعاصمة البلاد ، حيث المجتمع الاوسع ، والحياة اكثر لينا ، والفرص فى متناول يده ، فمن قصيدة له يقول فيها (١٣١) -

وما الحظ منقوصا بقوص وانها اجل محط للغريب وللسفر
واسنى بلاد الله ابسنا لساكن وخير من الكل الرحيل الى مصر
فلست على اسوان اسوان بعدها وما انا مجرد ذكرها لى على فكر

وفى قصيدة اخرى يمدح بها الامير مبارك بن منقذ ، جاء بها بيت ينم عن ضيقة بأسوان وان لا خير يرجى من بقاءه فيها :

---

(١٢٨) الطالع السعيد : ص ٣٧٤ — ص ٣٧٥ .
(١٢٩) العماد : خريدة القصر ، ج ٢ ص ١٧٥ .
(١٣٠) العماد : خريدة القصر ج ٢ ص ١٧٧ .
(١٣١) العماد : خريدة القصر ج ٢ ص ١٧٦ .

وفى غير أسوان مراد ومذهب فلا تجعلى شر النواحى قرارك
فخير بلاد الله ما صان من أذى وأضحى محلا للأمير مبارك (١٣٢)

وعجل الشاعر برغبته فى الرحيل عن أسوان ، لامر ما كره البقاء من أجله فى تلك المدينة . ويبدو انه تعرض للاذى من بعض قوم فى اسوان ، اذ يقول فى قصيدة له شاكيا (١٣٣) :

لا تطيلى على الرحيل ملامى فلأمر امر كرهت مقامى
أى خير فى بلدة يستوى ذو النقص فيها بفاضل الأقوام
انفى الأرض غير اسوان فاهرب من أذاهم الى الشآم
فالرحيل الرحيل عنهم سريعا فهم من لئام هذا الآنام

ومن بنى عرام نبغ الشاعر هبة الله بن على بن عرام الاسوانى (ت ٥٥٠ هـ) ، وهو ابن عم الشاعر على بن أحمد بن عرام الاسوانى . كان له ديوان شعر نقحه بنفسه ، وقفى قوافيه على ترتيب الحروف الابجدية ، وقد تمكن العماد الاصفهانى من الحصول على ديوانه فقال عنه : « وقلدت الخريدة منه كل قلادة ، تزين كل غادة ، وأوردت فى الجريدة من شعره ما يشعر بافادة واجادة » . كما جاء فى الخريدة أن هبة الله « كان أشعر من ابن عمه » على بن احمد بن عرام الاسوانى (١٣٤) . وبالرغم أن هبة الله كان من أسوان ، الا ان غزله كان متأثرا بالحياة الناعمة التى عرفت بها مصر ، ولا سيما انه وفد على القاهرة ، ومدح بها الوزير رضوان وغيره من رجال الدولة الفاطمية ، فأسهم مع غيره من شعراء مصر فى التغزل فى الاوزان السهلة الخفيفة والالفاظ والصور الشعبية فهو يقول (١٣٥) :

---

(١٣٢) العماد : خريدة القصر ج ٢ ص ١٨٠ ، الطالع السعيد ص ٣٨٠ .
(١٣٣) العماد : خريدة القصر ج ٢ ص ١٨٣ — ص ١٨٤ .
(١٣٤) العماد : خريدة القصر ، ج ٢ ص ١٨٦ ، الطالع السعيد ص ٧٠١ .
(١٣٥) محمد كامل حسين في أدب مصر الفاطمية ص ٢٧٥ .

من معينى على اقتناص غـزال ... نـافر عـن حبـائلى رواغ
قلبه قسـوة كجلمـود صـخر ... خـده رقـة كزهر البـاغ
كلمـا رمت أن أقبـل فـاه ... لدغتنى عقـارب الأصـداغ

وقوله أيضا (١٣٦) :

لدغتنى عقارب الصـدغ منـه ... فسـلوه من ريقـه درياقـا
اننى عاشـق له ، وهو مـذكا ... ن ظلـوم لا يرحـم العشـاقا

وله أيضا فى الغزل (١٣٧) :

يـا لائـمى فى غـزال ... قـلبى رهـين يديـه
لا تطمـعن فى سـلوى ... فـلا سـبيل اليـه
كـم لامنى فيـه قـوم ... وعنفـونى عليـه
حتى اذا أبصـروه ... خـروا سـجودا لـديه
فاحفـظ فـؤادك فالمـو ... ت فى ظبـا مقلتيـه

وفى فن المدح نظم الشاعر عدة قصائد يمدح بها رضوان الوزير ، اذ كان من خواصه وجلسائه (١٣٨) . وحدث أن كان رضوان بن الولخشى والى الغربية ، فاستنجد به المسلمون ضد بهرام الارمنى ، فهـزم بهرام عـام ٥٣١ هـ ، فمدحه بقصيدة قال فيها (١٣٩) :

لا زلت غيثـا للعفـاة مريعـا ... ابـدا وليثـا للعـداة مريعـا
بل اصبح الاسلام طلقا ضاحكا ... والعيش غضا والزمان مريعـا
يا فارس القلم الذى بهر الورى ... نظما ونثرا كيف شـاء بديعـا
اظهرت دين الله بعـد خموده ... وحفظت ما قدم كان منه أضيعا

---

(١٣٦) المرجع السابق : ص ٢٧٥ .
(١٣٧) العماد : خريدة القصر جـ ٢ ص ١٩٥ .
(١٣٨) العماد : خريدة القصر جـ ٢ ص ١٩٥ .
(١٣٨) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ١٩ ص ٢٨٤ .
(١٣٩) الطالع السعيد : ص ٧٠٤ — ص ٧٠٥ .

وقال أيضا فى المديح (١٤٠) :

لو زرتــه فى اليــوم ما زرتــه   أوسعني جودا واســدى يــدا
كأنــه اقســـم أن لا يــرى   شخصى الا جــاد لى بالنــدى

وله فى الحكمة (١٤١) :

نميل مع الاميال وهى غــرور   ونصغى لدعــواها وذلك زور
وتخدعنا الدنيــا القليل متاعها   وللموت فينــا واعــظ ونذيــر
ونزداد فيها كل يوم تنافســــا   وحرصــا عليها والمتــاع حقير
ويطمــع كل ان يؤخــر يومــه   وللمــوت منــا اول واخيــر

وله ايضا فى الحكمة (١٤٢) :

إذا حصل القوت فاقنــع بــه   فــإن القناعــة للمــرء كنـز
وصن ماء وجهــك عن بذلــه   فــإن الصــيانة للوجــه عــز

وله فى الهجاء ابيات كثيرة ، منها قوله (١٤٣) :

فلو كان من يساوى الهجــاء   اذن لهجـــوت وداخلتــــه فى
قد يحى وهجــوى كفيــلان لى   برفع الوضيع ووضع الشريف

وقوله ايضا (١٤٤) :

يا من دعــوه الرئيس لا عــن   حقيقــة بــل عــن مجــاز
لست اكافيــك عــلى قبيـــح   منــك بهجــو ولا اجــازى
ومــا عسى تبلـــغ الأهــاجى   مــن رجـــل كلــه مخــازى

---

(١٤٠) العماد : الخريدة ج ٢ ص ١٨٩ .
(١٤١) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٨٥ .
(١٤٢) العماد : ألخريدة ج ٢ ص ١٩٠ ؛ الطالع السعيد ص ٧٣ .
(١٤٣) العماد : الخريدة ج ٢ ص ١٩٢ .
(١٤٤) الطالع السعيد : ص ٧٠٣ .

وله فى الرثاء (١٤٥) :

لبيك بنـــو الآداب طـــرا اديبهم ... وفارسهم فى حلبة النظم والنثر
ولا يطمعوا من دهـــره بنظيره ... فهيهات ان يأتي بمثل إبى الغمر

وكان لهبة الله ابنا شاعرا يدعى ابو الحسين ، توفى شابا بالقاهـــرة عام ٥٧٠ هـ ، وقد ذكر العماد الاصفهانى ترجمة شخصية شديدة الايجاز لابى الحسين فى الخريدة عندما استعرض شعراء اسوان ، الا انه لم يذكر اي شيء عن شعره ، ولم يورد لنا أى نماذج منه (١٤٦) :

ومن شعراء تلك الأسرة ايضا احمد بن عبد الرحمن بن الحسين بن احمد ابن الحسين بن عرام الاسوانى ، مدح سراج الدين جعفر بن حسان الأسبنائى، احـــد اعيان اســـنا المتوفى عام ٦١٠ هـ (١٤٧) ، ومن قصـــيدته التى يمدحه فيهـــا (١٤٨) :

صـــل المعنى بلا قطل فان له ... دمعـــا تبين منه كل مكنـــون
ومهجـــة حرها لا ينطفىء أبدا ... كأنما خلقت من نـــار ســـجين

ومن شعراء بنى عرام فى أسوان ، الشاعر عيسى بن أحمد بن الحسين بن عرام الأسوانى ، وصفه الأدفوى (١٤٩) بأنه « أديب شاعر » ولم يذكر لنا شيئا من شعره سوي ابيات قليلة فى المدح منها :

يا قلب ان الدهر احسن مرة ... فأحلنى منكم بأعـــذب مورد
وتحققت نفسى الحيـــاة بقربكم ... اذ كنت قبل الى لقائكم صدى
وظفـــرت منكم بالذى املتـــه ... وتمسكت بعزيمة منكم يـــدى

وقد أنجبت اسوان شاعرين اخوين عظيمين ، هما الحسن بن على بن ابراهيم الأسوانى المعروف بالقاضى المهذب المتوفى عام ٥٦١ هـ ، واحمد بن على

---

(١٤٥) العماد : الخريدة جـ ٢ ص ١٩٠ .
(١٤٦) المرجع السابق : ص ١٩٥ .
(١٤٧) الطالع السعيد ص ٧٩ ، ص ١٧٨ .
(١٤٨) الطالع السعيد ص ٨٠ .
(١٤٩) الطالع السعيد ، ص ٤٦٠ — ص ٤٦١ .

بن ابراهيم الأسوانى المعروف بالرشيد المتوفى عام ٥٦٣ هـ . والشاعران العظيمان بلغا مرتبة فى الأدب فى العصر الفاطمى لم يصل اليها غيرهما . وربما يرجع الفضل فى ما وصل اليه الشاعران من مكانة سامية فى الأدب الى نشأتهما . فوالدهما على بن ابراهيم بن الزبير الأسوانى (ت ٥٢٥ هـ) ، « كان فاضلا شاعرا رئيسا ، وحدث بشىء من شعره » (١٥٠) .

أما القاضى المهذب ، فقد رحل من أسوان الى القاهرة ، وجالس الوزراء والأمراء ، وقدمه القاضى عبد العزيز بن الحباب المعروف بالجليس الى طلائع بن رزيك بعد أن مدحه ، فنال الحظوة عنده ، وحصل له منه الأموال الوفيرة التى لم ينل مثلها أحد غيره (١٥١) . ثم أوفد القاضى المهذب فى سفارة الى اليمن، وهناك استطاع أن يطلع على كتب الأنساب ، فاستوعبها استيعابا جيدا ؛ وجمع منها ما لم يجتمع عند أحد غيره ، وهناك أيضا تمكن من تصنيف كتاب كبير فى الأنساب ، جعله فى عشرين مجلدا سماه « كتاب الأنساب » (١٥٢) . وقد اتيحت لياقوت الحموى فرصة الاطلاع على بعض أجزاء ذلك الكتاب فوصفه قائلا : « فوجدته مع تحققى هذا العلم وبحثى عن كتبه غاية فى معناه لا مزيد عليه ، يدل على جودة قريحة مؤلفه ، وكثرة اطلاعه ، الا أنه حذا فيه حذو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى ، وأوجز فى بعض أخباره عن البلاذرى ، الا انه اذا ذكر رجلا ممن يقتضى الكتاب ذكره ، لا يتركه حتى يعرفه بجهده من ايراد شىء من شعره وخبره (١٥٣) » ، وبذلك جمع المهذب بين العلم والشعر (١٥٤) . وكان الملك الصالح طلائع بن رزيك يجيد نظم الشعر ، الا انه

---

(١٥٠) الطالع السعيد ص ٣٦٤ .
(١٥١) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ٩ ص ٤٧ .
(١٥٢) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ٩ ص ٤٩ .
(١٥٣) معجم الادباء ج ٩ ص ٤٩ .
(١٥٤) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٠٤ .

كان يعرض شعره على المهذب لاصلاحه وتقويمه قبل عرضه على الناس (١٥٥) . ويصف العماد الأصفهانى (١٥٦) شعر المهذب قائلا : « محكم الشعر كالبناء المشيد ، وهو أشعر من أخيه ، وأعرف بصناعته واحكام معانيه ، . . . لم يكن فى زمانه أشعر منه أحد وله شعر كثير ، ومحل فى الفضل أثير » . والمهذب الى جانب شعره كان عف اللسان محترم لنفسه ، متجنبا بذلك هجاء زملائه من الشعراء ، وهو يعتبر من فحول شعراء العربية ، وليس من المبالغة فى شىء اذا قلنا أن مصر الاسلامية منذ دخلها العرب ، ومنذ عرفت الشعر العربى ، لم تنجب شاعرا له مثل شاعرية المهذب وقوة شعره وحسن ديباجته ، وقد أعاد المهذب بشعره الى الأذهان ذكرى الشعر العربى الرصين واشراق ديباجته ، فلم يخدعه بهرج اللفظ ، ولم يسرف فى المحسنات البديعية (١٥٧) . ومن قصائده نستدل منها على أن فن الشاعر قريب من شعراء فحول الأيوبيين والعباسيين ، كما أنها توضح لنا مدى ما لشعره من جزالة وفخامة لا نجد لها مثيلا بين شعراء مصر الفاطمية (١٨٥) . وربما يرجع ذلك الى بيئته أسوان التى نشأ فيها المهذب ، فهى بيئة اكثر محافظة من بيئة القاهرة أو الفسطاط ، وهى الى البداوة أقرب ، لبعدها عن بقية بلاد مصر ولبيئتها الجغرافية التى جعلت منها بلدا يتميز بجو خاص ، فتربتها خليط من أقسام صحراوية وثالثة خصبة ، فالذين يعيشون فى هذا البلد أو ينشأون فيه يمتازون بأنهم أقرب الى البداوة منهم الى الحضر ، فلعل هذا هو السبب فى أن نرى شعر المهذب وأيضا شعر أخيه الرشيد رصينا جزلا لا نجد فيه طراوة شعر اهل القاهرة والفسطاط ، ولا نعومة شعراء العصر الفاطمى (١٥٩) . ومن قصائده التى تدل

---

(١٥٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣١٣ — ص ٣١٤ ، محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٢٣٨ .

(١٥٦) العماد الأصفهانى : خريدة القصر جـ ٢ ص ٢٠٤ .

(١٥٧) محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ص ٢٠٤ — ص ٢٠٥ .

(١٥٨) محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ص ٢٠٥ — ص ٢٠٨ .

(١٥٩) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

على قوة شعره وجزالته ، قصيدته التى أرسلها الى داعى اليمن عندما قبض على الرشيد ، يمدحه ويستعطفه حتى اطلق سراحه . ففيها يقول (١٦٠) :

يا ربع أين ترى الأحبــة يمموا
هل انجدوا من بعدنا ام اتهموا ؟
رحلوا وقد لاح الصباح وانما
يسرى اذا جن الظــلام الأنجم
وتعوضت بالأنس روحى وحشة
لا أوحش الله المنــازل منهــم
لولاهم ما قمت بــين ديــارهم
حــيران استــناف الديار والثم
امنازل الأحبــاب اين هم وأين
الصبر من بعــد التفرق عنهم ؟

وحدث أن اتصل الرشيد شقيق المهذب بصلاح الدين يوسف بن أيوب خلال حصاره لمدينــة الاسكندرية ، فقبض شــاور — ظلما — على المهذب وحبسه ، فكتب المهذب شعرا كثيرا ليستعطفه ولكنه فشل فى ذلك ، فالتجأ الى ابنه الكامل ، ومدحه وهو فى الحبس بأشعار كثيرة ، حتى أخرجه من حبسه واصطنعه ، فمن ذلك قوله من قصيدة (١٦١) :

أيا صاحبى سجن الخزانة خليــا
نسيم الصبا يرسل الى كبدي نفحا
فان تحبســا فى النجــوم تجبرا
فلن تحبسا منى له الشكر والمدحا

---

(١٦٠) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ ٩ ص ٤٩ — ص ٥٠ .
(١٦١) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ ٠ ص ٥٨ — ص ٦٠ .

ومما قاله في الكامل ايضا (١٦٢) :

اذا أحرقت في القلب موضع سكناها
فمن ذا الذي من بعد يكرم مثواها ؟
وان نزفت ماء العيون بهجرها
فمن اى عين تأمل العيش سقياها ؟

ومنها (١٦٣) :

ولو لم يجد يوم الندى فى يمينه
السائلة غير الشبيبة اعطاها
تيسا ملك الدنيا وسائس اهلها
سياسة من قاسى الأمور وقاساها
ومن كلف الأيام ضد طباعها
فعاين اهوال الخطوب فعاناها
عسى نظرة تجلو بقلبى وناظرى
صداه فانى دائما اتصداها

ومن شعره ايضا من قصيدة ، مدح بها الصالح بن رزيك أولها (١٦٤) :

أقصر فديتك عن لومى وعن عذلى
أولا فخذلى أمانا من ظبا المقل
من كل طرف مريض الجفن ينشدنى
يارب رام بنجد من بنى ثعل
ان كان فيه لنا وهو السقيم شفا
فربما صحت الأجسام بالعلل

---

(١٦٢) المرجع السابق ج ٩ ص ٦١
(١٦٣) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ٦ ص ٦٣ .
(١٦٤) المرجع السابق ج ٩ ص ٦٧ — ص ٦٨ ، الطالع السعيد ص ١٩٥ .

ومن الملاحظ أن الشاعر ضمن فى البيت الثانى اشارة أمرىء القيس الى بنى ثعل (مشهورون بجودة الرمى) ، وقول أمرىء القيس (١٦٥) :

رب رام من بنى ثعل
فخرج كفيه من ستره

كما ضمن المهذب فى البيت الثالث عجز بيت للمتنبى من قوله (١٦٦) :

لعل عتبك محمود عواقبه
فربما صحت الأجسام بالعلل

ومن قوله يرثى صديقا له ، تصادف وقوع المطر يوم موته (١٦٧) :

بنفسى من أبكى السموات فقده
بغيث ظننناه نوال يمينه
فما استعبرت الا أسى وتأسفا
والا فما ذا القطر فى غيره حينه

ونه فى الغزل (١٦٨) :

يعنفنى من لو تحقق ما الهوى
لكان الى من قد هويت رسولى
بنفسى بدر لو رآه عواذلى
على الحب فيه فاد كل عذول

---

(١٦٥) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٠٨ .
(١٦٦) نفس المرجع والمكان .
(١٦٧) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ ٩ ص ٦٨، — ص ٦٩.
(١٦٨) نفس المرجع : جـ ٩ ص ٦٦ — ص ٦٧.

وله فى الغزل أيضا (١٦٩) :

يظل جنى العناب فى صـــحن خــده
عن الورد ماء النرجس الغض يمسح

وقد مدح المهذب بنى الكنز فى أسوان ، ومن قوله فيهم (١٧٠) :

وينجده ان خانه الدهر أوســطا
أناس اذا ما أنجــده الدهر أتهموا
اجاروا فما تحت الكواكب خائف
أجازوا فما فوق البسيطة معــدم
لئن جهــل المداح طــرق مديحكم
فانـــى فى كتم الشـــــهادة أظلم
وهل لى حمد فى الذى قلت فيكم
ونعماكــم عنــــدى التى تتكلم

وأجازه كنز الدولة على تلك القصيدة بألف دينار ، ووقف عليه ساقية تساوى ألف دينار (١٧١) .

وله فى وصف شمعة (١٧٢) :

ومصفرة لا عن هوى غير أنهــا
تحوز صــفات المستهام المعــذب
شجوا وســـقما واصطبارا وأدمعا
وخفقـــا وتســـهيدا وفرط تلهب
اذا جمشتها الريح كانت كمعصم
يرد ســـلاما بالبنـــان المخضـــب

---

(١٦٩) العماد : خريدة القصر ، جـ ٢ ص ٢٠٤ .
(١٧٠) الطالع السعيد : ص ٢٠٣ .
(١٧١) ألطالع السعيد ص ١٩٧ .
(١٧٢) العماد : الخريدة جـ ٢ ص ٢٢٥ .

أما ثانى الأخوين الشاعرين فى العصر الفاطمى ، فهو أحمد بن على بن ابراهيم الأسوانى الملقب بالرشيد . واذا كان المهذب أشعر من الرشيد ، فان الأخير كان أعلم منه ، فقد ضرب بسهم وافر فى الفقه واللغة والنحو والتاريخ والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والنجوم ، كما كان جيد النثر ، وله تصانيف منها كتاب « منية الألمعى ، وبلغة المدعى » وكتاب « المقامات » على نسق مقامات الحريرى ، ومن أشهر تصانيفه كتاب « جنان الجنان ، وروضة الأذهان » الذى تحدث فيه عن شعراء مصر ومن طرأ عليها ، وجعله ذيلا على يتيمة الدهر للثعالبى وهو الكتاب الذى أخذ عنه العماد فى أكثر مادة القسم الخاص بمصر من كتابه الخريدة ، كما له كتب أخرى منها كتــاب « الهدايا والطرف » وكتاب «شفاء الغلة فى سمت القبلة» ، ومجموعة رسائله ، وديوان شــعره (١٧٣) . والرشــيد على ذلك النحــو عالم شــاعر أفاد المصريين وغيرهم (١٧٤) . ويذكر العماد أن محمد بن عيسى اليمنى أخذ عن الرشيد علم الهندسة (١٧٥) . ونال الرشيد مكانه سامية فى الدولة الفاطمية ، وسبب ذلك أنه هاجر من أسوان الى مصر بعد مقتل الخليفة الظافر ، وحضر المــأتم مع الشعراء ، فقام وأنشد قصيدته التى مطلعها :

ما للرياض تميــل ســكرا
هــل أســقيت بالمزن خمرا

الى أن وصل الى قوله :

أفــكربلاء بالعــــــراق
وكربــلاء بمصر أخــــرى

---

(١٧٣) العماد : الخريد ج ٢ ص ٢٠٢ ، ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ٤ ص ٥١ ، ص ٥٤ ، الطالع السعيد : ص ٩٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٠٣ ، السيوطى : بغية الوعاة ج ١ ص ٣٣٧ .

(١٧٤) محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ص ٢١٠ .

(١٧٥) العماد : الخريدة ج ٢ ص ٢٠١ .

فضج القصر بالبكاء ، وانهالت عليه الهبات والعطايا ، ومن هنا بدأت صلته بالقصر والوزراء ، فمدحهم وتقدم عندهم (١٧٦) .

وفى عام ٥٣٩ هـ أنفذه الخليفة الحافظ عبد المجيد الفاطمى الى اليمن داعيا له ، ثم قلد قضاءها ، ولقب بقاضى قضاة اليمن وداعى دعاة الزمن (١٧٧) واستفاد من علمه باليمن جماعة كثيرة (١٧٨) . وقيل أن نفسه سمت الى مرتبة الخلافة فى اليمن ، وأجابه قوم اليها ، ونقشت له السكة ، وكان نقش السكة على أحد الوجهين « قل هو الله أحد ، الله الصمد » ، وعلى الوجه الآخر : « الامام الأمجد ، أبو الحسين أحمد » ، فقبض عليه وانفذ الى قوص مكبلا فى القيود . ثم أطلق الملك الصالح طلائع بن رزيك سراحه (١٧٩) . ويبدو أن ذلك القول خاطئا ، فمن غير المعقول أن شاعرا مثل الرشيد وصل الى مرتبة سامية فى العلم ، يبلغ به الأمر ن أيدعى الامامة فى الوقت الذى أنكرت فيه امامة الحافظ والفائز والظافر والعاضد ، ودعى فيه للامام المستور ، فضلا عن أن مركز الدعوة للامام المستور قد انتقل من مصر الى اليمن منذ مقتل الآمر بأحكام اله ، فكيف يمكن لرشيد ان يدعى الامامة فى اليمن والكل يعرف شروط الامامة التى من أهمها أن يكون الامام من نسل النبى صلىالله عليه وسلم ولعل حكام مصر فى ذلك الوقت لم يكونوا من الغباء لدرجة العفو عن مثل هذا الرجل الدعى ، ولا سيما ابان حكم الملك الصالح طلائع بن رزيك وهو من أشد وزراء ذلك العصر تعصبا للمذهب والامامة (١٨٠) . ومما يؤيد ذلك الرأى قول الأدفوى (١٨١) فى كتابه الطالع السعيد : « وقد وقفت على محضر كتبه

---

(١٧٦) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ٤ ص ٥٧ — ص ٥٨ ، محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢١٠ .

(١٧٧) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ٤ ص ٥٥ ، الطالع السعيد : ص ١٠٢ .

(١٧٨) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ١٦٧ .

(١٧٩) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ٤ ص ٥٥ — ص ٥٧ .

(١٨٠) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢١١ — ص ٢١٢ .

(١٨١) ص ١٠٢ .

باليمن ، فيه خط جماعة كثيرة ، أنه لم يدع الخلافة ، وأنه مواظب على الدعوة للخليفة ، رايت المحضر بأسوان » . ويبدو أن سبب القبض على الرشيد فى اليمن مدحه الأمير على بن حاتم الهمدانى بقصيدة منها :

لقد أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا
فلست أنال القحط فى أرض قحطان
وقد كفلت لى مأرب بمآربى
فلست على أسوان يوما بأسوان
وان جهلت حقى زعانف خندف
فقد عرفت فضلى غطارف همدان

فحسده داعى عدن ، وكتب بهذه الأبيات الى مصر ، فكانت سببا فى غضب حكام مصر عليه ، كما غضب أولو الأمر بعدن ، فأخذ الرشيد وحبس ثم صفح عنه (١٨٢) .

واتصل الرشيد بال رزيك ثم بالوزير شاور وابنه ، وولى النظر على الدواوين السلطانية بغير رضاه عام ٥٥٩ هـ ، ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبى أثناء محاصرته بالاسكندرية ، فكان ذلك سبب غضب شاور عليه ، فاختفى بالاسكندرية ، وظل مختفيا الى أن قبض عليه واشهر على جمل وعلى رأسه طرطور ووراءه من ينال منه ، فكان الرشيد ينشد وهو على هذه الحال :

ان كان عندك يا زمن بقية ... مما تهين به الكرام فهاتها

ثم صلب شنقا ودفن حيث شنق عام ٥٦٣هـ (١٨٣) .

وقد وصف ياقوت الحموى (١٨٤) الشاعر الرشيد قائلا : « كان على جلالته وفضله ، ومنزلته من العلم والنسب ، قبيح المنظر ، أسود الجلدة ،

---

(١٨٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ ١ ص ١٤٧ ، محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ص ٢١٢.

(١٨٣) ياقوت الحموى : معجم جـ ٤ ص ٦٠ — ص ٦٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٤٥ .

جهم الوجـه ، سمح الخلقة ، ذا شـفة غليظة ، وأنف مبسـوط ، كخلقة الزنوج ، قصيرا » . وقـد دفعت تلك الصفات الشـعراء المعاصرين على هجاءه ، فيروى أنه اجتمع ليلة عند الملك الصالح هو وجماعة من الشعراء ، فألقى الصالح مسألة فى اللغة فلم يجب عنها بالصـواب سـوى الرشيد ، فأعجب به الصالح ، فقال الرشيد : ما سئلت قط عن مسألة الا وجدتنى فيها ، فارتجل الشاعر ابن قادوس (١٨٥) :

ان قلت : مـن نـار خلقت
وفقت كل النـاس فهمـا
قلنـا صـدقت ، فما الذى
أطفـاك حتى صرت فحمـا

ويروى أن الرشيد ولى على المطبخ ، فقال ، الشريف الأخفش يخاطب الصالح ابن رزيك (١٨٦) :

يولى على الشيء أشـكاله
فيصبح هـذا لهـذا أخـا
اقام على المطبخ ابن الزبير
فولـى على المطبخ المطبخا

كما يروى ان أمراة شابة جميلة رمقت الرشيد بنظرة تحمل معنى خاص ، فظن انها أعجبت به ، ثم أشارت اليه بطرفها ، فنسى نفسه وسار وراءها ، حتى دخلت دار وأشارت اليه فدخـل ، ثم نادت : يا ست الدار ، فنزلت اليها : « لا أعدمنى الله فضلك يا سيدنا القاضى » ، فخجل الرشيد !

---

(١٨٤) معجم الادباء : جـ ٤ ص ٥٨ .
(١٨٥) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٤ ص ٦٠ .
(١٨٦) نفس المرجع : جـ ٤ ص ٥٦ .

وخرج من الدار والخزى يملاه (١٨٧) . ولعل ســواده ودمامته وقصر قامته كانت من الأسباب التى جعلته يكثر من ذم الدهر والناس ، وأن يظهر فى شعره سمة حزن لعدم وفاء الأخوان وغدرهم به ، فقد انشد وهو فى اليمن (١٨٨) .

لئن خــاب ظنى فى رجــائــك بعــدمــا
ظننت بــأنى قــد ظفــرت بمنصــف
فــانــك قــد ولدتنى كــل منــة
ملكــت بهــا شكرى لــدى كــل موقف
لأنــك قــد حــذرتنى كــل صــاحــب
واعلمتنى ان ليس فى الأرض من يفى

كما أنشد فى مصر (١٨٩) : ــ
تواصى علــى ظلمى الأنــام بــأسرهم
واظــلم من لاقيت أهــلى وجيرانى
لكــل امــرىء شــيطان جــن يكيــده
بســؤ ولى دون الــورى ألف شيطان

ولما قبض على الرشيد باليمن ، كتب اليه أخاه المهذب قصيدة طويلة مطلعها :
يا ربــع أين تــرى الأحبة يممــوا
هــل أنجدوا مــن بعــدنــا أم أتهموا

---

(١٨٧) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٠٣ ، السيوطى : بغية الوعاة ج ١ ص ٣٣٨ ، ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ٤ ص ٥٨ ـــ ص ٦٠ .

(١٨٨) العماد الاصفهانى : خريدة القصر ج ١ ص ٢٠١ ، محمد كامل حسين : في أدبيب مصر الفاطمية ص ٢١٤ .

(١٨٩) العماد الاصفهانى : خريدة القصر ج ١ ص ٢٠٢ .

فاجابه الرشيد بقصيدة طويلة ، أولها (١٩٠) : —

يا ربع أين ترى الأحبة يمموا
رحلوا ، فلا خلت المنازل منهم
وسروا ، وقد كتموا الغداة مسيرهم
وضياء نور الشمس مالا يكتم
وتبدلوا أرض العقيق عن الحمى
روت جفونى أى أرض يمموا
نزلوا العذيب ، وانما فى مهجتى
نزلوا ، وفى قلب المتيم خيموا

وقد خلف الرشيد ولدا شاعرا هو على بن أحمد بن على الأسوانى ، وقد روى العماد الأصفهانى ، أنه رآه واقفا ينشد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى قصيدة يمدحه فيها عام ٥٧٣هـ ، بغية التزلف اليه والتقرب اليه ، وقد كشفت تلك القصيدة — كما يروى العماد — عن ضعف شعره ، غير أنه أوردها فى كتابه الخريدة كونه ابنا للشاعر الكبير ، منها (١٩١) :—

تخضر أكتاف أرض أن نزلت وان
نازلت تحمر أرض السهل والجبل
مازلت أسرى دجى الليل التمام سرى
ونور وجهك يهدينى الى السبل

كما كان للرشيد ابن آخر شاعرا ، يدعى ابراهيم بن أحمد الأسوانى ، ولد عام ٥٦١هـ ، أى قبل وفاة أبيه بسنتين ، وتقلب فى الخدم الديوانية ، ومن شعره الذى أنشده (١٩٢) : —

(١٩٠) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٠٤ — ص ٢٠٥ ، ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ٤ ص ٦٢ — ص ٦٣ .

(١٩١) العماد الأصفهانى : خريدة القصر ، ج ١ ص ٢٠٢ ، الطالع السعيد : ص ٣٦٩ — ص ٣٧٠ .

(١٩٢) الطالع السعيد : ص ٤٩ — ص ٥٢ .

لله در ليالينا بذى سلم
ومسرح الطرف من سلع ومن أضم
وفى الزمن بوصل فى معالمها
وطائر البين قبل البين لم يحم
اذا تذكرت أياما لنا سلفت
بالرقمتين قرعت السن بالندم

وفى العصر الفاطمى مدح الشعراء بنى الكنز ، وقصدوهم بغية العطاء ، وقد وضع الشاعر على بن أحمد عرام (المتوفى فى حدود عام ٥٨٠هـ) سيرة عدد فيها مناقبهم وأسماء من مدحهم من الشعراء (١٩٣) ، ولا يهمنا فى هذا الصدد الشعراء الذين مدحوا بنى الكنز من غير أبناء أسوان ، وسنكتفى بذكر من مدحهم من أبناء أسوان . فمنهم أحمد بن محمد الأسوانى الذى مدح كنز الدولة بن متوج بقصيدة أولها : (١٩٤) .

هل المجد الا ما اقتنته الصوارم
أو الجد الا ما بنته المكارم
أو العز الا ما أشاد مناره
وقائع يبقى ذكرها وملاحم
أو الفخر الا ما المتوج لابس
حلاه وراق فى علاه وراقم
اذا أخلفت سحب فغيث مساجم
وان شجرت حرب فليث صارم

(١٩٣) الطالع السعيد : ص ١٩٧ ، ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ج ٥ ص ٣٤ .
(١٩٤) الطالع السعيد : ص ١٣٠ — ص ١٣١ .

ومن شعراء أسوان الذين مدحوا بنى الكنز محمد بن رائق أبو عبد الله الأسوانى (توفى فى حدود أواخر المائة السادسة للهجرة) ، عالم فاضل ، أديب شاعر ومن قصيدته التى مدح بها بعض الكنز أولها(١٩٥) :ـ

بالسفح من ربع سلمى منزل دثرا
فاسفح دموعك فى ساحاته دررا
واستوقف الركب واستسق الغمام له
والثم صعيد ثراه الأذفرا العطرا
واستخبر الدار عن سلمى وجيرتها
ان كانت الدار تعطى سائلا خبرا
وكيف تسأل دارا لم تدع جلدا
لسائليها ولا سمعا ولا بصرا

ومنهم عبدالله بن أحمد الأسوانى (عاش فى المائة السادسة للهجرة) ذكره ابن عرام فى مداح بنى الكنز ، ولم يكن ذلك الشاعر جيد النظم ، اذ أن بدائحه خالية من الروح ، فيما عدا قصيدة واحدة اتهمه فيها ابن عرام وهى (١٩٦) :ـ

لا تطلبن هوى بغير شهية
فتروم صعبا منه غير ذلول
ان الشباب لدولة محمودة
لو انها سلمت من التبديل

ومنها (١٩٧) :ـ
ومديح كنز الدولة ابن متوج
سبب المراد وغاية التأميل

---

(١٩٥) الطالع السعيد : ص ٥٢٠ ــ ص ٥٢١ .
(١٩٦) الطالع السعيد : ص ٢٧٧ .
(١٩٧) نفس المرجع والمكان .

ذى الهمة العلياء والمجد الذى
طاب الفروع له بطيب اصول
من قاس جودك بالغمام فانما
ساوى ضياء الشمس با لقنديل

ومن الشعراء الذين مدحوا بنى الكنز ، الشاعر أحمد بن محمد الروزبى الأسوانى ، عاش فى المائة السادسة للهجرة ، وقرض الشعر بعد اكتهاله (١٩٨) . وكذلك الشاعر عبد الله بن محمد بن زريق الأسوانى (١٩٩) ، والشاعر سهل الأسوانى الذى قال قصيدة فى كنز الدولة نذكر منها (٢٠٠) : —

الا هكذا يعزى الى الملك من يعزى
فيغدو له أن ذل ناصره عزا
وقد كان بهرام يظن مراسه
شديدا الى أن مارس الملك الكنز

جرى الله خيرا من حمى الدين سيفه
وكل امرىء يوما بأفعاله يجزى

وله ايضا قصيدة (٢٠١) : —
أيا كنز دولة آل النبى
ومن ذب عن حوزيتها وحامى
بهرت الأنام بمجد اشم
سبقت الى غايتيه الكرام

---

(١٩٨) الطالع السعيد ص ١٢٨ — ص ١٢٩ .
(١٩٩) الطالع السعيد ص ٢٨٠ — ٢٨١ .
(٢٠٠) الطالع السعيد ص ٢٥٦ .
(٢٠١) الطالع السعيد ص ٢٥٧ .

ومن مداح بنى الكنز الشاعر أبو اسحاق بن شعيب الأسوانى ، من اهالى القرن السادس الهجرى (٢٠٢)، والفقيه العالم الأديب النحوى الشاعر على بن محمد بن النضر الأسوانى ، ذكره ابن عرام فى سيرة بنى الكنز ، واثنى عليه العماد الأصفهانى اذ قال عنه « من الأفاضل الاعيان ، المعدودين من حسنات الزمن » (٢٠٣) ، ومن شعره (٢٠٤) : —

يا نفس صبرا واحتسابا انهـا
غمرات أيام تمر وتنجلى
فى الله هلكت ان هلكت حميدة
وعليه أجرك فاصبرى وتوكلى
لا تيأسى من روح ربك واحذرى
أن تستغرى بالقنوط فتخذلى

ومن الشعراء الأسوانيين فى القرن السابع الهجرى الشاعر الحسين بن محمد الانصارى الأسوانى ، وصفه الأدفوى قائلا : « كان فاضلا أديبا له النظم الحسن والنثر الجيد ، ويكتب خطا حسنا ، غير أنه لم يذكر لنا شيئا من شعره ، وتوفى ذلك الشاعر بعد عام ٦٧٠ هـ (٢٠٥) . ومنهم أيضا الشاعر عمر بن عبد العزيز الأسوانى (ت ٦٩٢هـ) ، رحل من أسوان الى قوص ثم الى القاهرة لتزويد نفسه بالعلم ، وكانت الكتب تأتى اليه من أهله فلا يقرؤها ، حتى « حصل مقصوده من العلم »(٢٠٦) . ولم يكن ذلك الشاعر ينظم الشعر فقط ، بل كان أيضا فقيها نحويا أديبا ، ومن شعره الذى أنشده ارتجالا عندما سأله احد الأدباء عن حاله :

---

(٢٠٢) الطالع السعيد ص ٧٢٦ .
(٢٠٣) الطالع السعيد ص ٤٠٨ — ص ٤٠٩ ، السيوطى : بغية الوعاة جـ ٢ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .
(٢٠٤) الطالع السعيد ص ٤١٠ .
(٢٠٥) الطالع السعيد ص ٢٢٩ .
(٢٠٦) الطالع السعيد ص ٤٤٠ — ص ٤٤١ .

ان كنت تسـأل عـن عرضى فـلا دنس
أو كنـت تسـأل عـن حـالـى فلا حـال
قـد ضيـع المجـد مـال ضيعتـه يـدى
مـا اضيـع المجد ان لم يجمعه المـال

ومن شعراء القرن السابع الهجرى أيضا الشاعر عثمان بن عبد المجيد الأسوانى (توفى فى حدود السبعمائة للهجرة) ، ويبدو ان ذلك الشـاعر لم يكن مكثرا فى شعره ، فما قال عنه الأدفوى فى ترجمته الشخصية « له شـعر » (٢٠٧) .

وهكذا نرى شعراء أسوان فى القرن السابع الهجرى ، لم يكن لهم شعرا يهز الأعماق مثلما كان لأخوة لهم من قبل فى العصر الفاطمى .

أما فى القرن الثامن للهجرة ، فلم تذكر المراجع المعاصرة عن أبناء أسوان الذين نظموا الشعر سوى شاعرين ، أولهما عبد الرحيم بن محمد بن عبد الرحيم البمبانى (ت ٧٠٥ أو ٧٠٦ هـ) ، كان فقيها فاضـلا نحويا أديبا شاعرا ، ومن قصيدة له امتدح بها « طقصبا » والى قوص ، شـاكيا فيها — فى الوقت نفسـه — حال أسوان ، فهو يقول فى تلك القصيدة التى احتفظ لنا الأدفوى منها ببيتين (٢٠٩) : —

لعلا جنابك كل امـر يرفع	واليك حقا كل خطب يرجع
ما كان يفعله الشجاعى سالفا	فى مصر فى أسوان حقا يضع

وقد تميز ذلك الشاعر بخفة الدم ، فضلا عن انه نظم البلاليق الى

---

(٢٠٧) الطالع السعيد ص ٤٤١ — ٤٤٣ .
(٢٠٨) الطالع السعيد ص ٣٥٠ — ص ٣٥١ .
(٢٠٩) الطالع السعيد ص ٣١١ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٧١ — ص ٤٧٢ .

جانب الشعر ، ويروى أن سكينة ضاعت منه ، فوجدها مع ابـن المصوص الأسنائى ، فما كان منه الا أن نظم فى ذلك « بليقة » أولها (٢١٠) : ـ

أنك قد أرى فى اللصـوص   يـا بـن المصـوص
خنجـرى كان فى الطبـق   ومنتصر فى القـول صدق
وأنت أخـذتـه بالسـبق   لعـب الـغصـوص

أما الشاعر الثانى ، فهو ابراهيم بن احمد بن طلحة الأسوانى (ت ٧٣٥هـ) ، وصفه الأدفوى قائلا : « الشاعر المشهور ، الأديب المذكور ، .... له ديوان شعر يدل على فضله ، ويشهد بنبله » ، ومن شعره (٢١١) :ـ

أرى كل مـن أصـفيتـه الود مقبـلا
على بـوجـه وهـو بـالقلب معـرض
حـذارا من الاخـوان أن شـئت راحـة
فقـرب بنى الدنيـا لمـن صـح ممرض
بلـوت كثيرا مـن أنـاس صـحبتهـم
فمـا مهنـم الا حسـود وبغـض

أما فى القرن التاسع الهجرى ، فقد خمدت حركة الشعر فى اسـوان ومما يدل على ذلك أن السخاوى (ت ٩٠٢ هـ) مؤرخ القرن التاسع الهجرى ، لم يرد فى كتابه « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » تراجم لشـعراء من أسوان ، فيما عدا شاعر واحد هو عمر بن عبد الله الانصارى الأسوانى (ت ٨٢٦هـ) . ولد ذلك الشاعر بأسوان ، وقدم فأقام بها مدة ، ثم توجه الى دمشق حيث درس الأدب بها ، وبعد أن انتهى من دراسته عاد الى القاهرة واستوطنها (٢١٢) . ومن صفات ذلك الشاعر انه كان متعاظما

---

(٢١٠) الطالع السعيد ص ٣١٢ .
(٢١١) الطالع السعيد ص ٤٦ — ص ٤٨ .
(٢١٢) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٦ ص ٩٥ .

معجبا بنفسه ، يرى أنه يتمتع بموهبة فى الشعر حرم العالم منها ، وأن على الناس تعظيمه واكباره ، وبذل أموالهم له ، وعندما وجد أن الناس لم تكترث به هجاهم (٢١٣) فمن ذلك قوله (٢١٤) : —

أن دهرى لقد رمانى بقوم   هم على بلوتى أشد حثيثا
أن آفه بينهم بشىء أجدهم   لا يكادون يفقهون حديثا

واذا كان المقريزى قد وصف شعره بأنه أقل ممايدعى ، فان ابن خلدون « كان يطريه ، ويشهد بأنه أشعر أهل عصره بعد خطيب ابن داريا » (٢١٥) . ومن المحتمل أن انعدام الشعر والشعراء الأسوانيين فى القرن التاسع الهجرى ، يرجع الى ما أصاب أسوان من فساد وخراب نتيجة ثورات العربان التى سبق أن تحدثنا عنها من قبل .

ومهما كان الأمر ، فان ميدان الشعر فى أسوان كان خصيبا . واذا كانت أسوان قد انجبت عددا هائلا من الشعراء أثروا الحياة الأدبية ، وبلغوا شأوا بعيدا ، الا اننا نلاحظ أن ما أنتجه أدبائها فى فن النثر قليل . وممن بلغوا منزلة رفيعةفى الأدب — من أبناء أسوان — كاتب الانشاء فخر الدولة ابراهيم بن محمد الأسوانى (ت ٥٨١هـ) ، ابن أخت الشاعرين المشهورين الحسن بن على ابراهيم الملقب بالمهذب ، وأحمد بن على بن ابراهيم الملقب بالرشيد ، وهو أول من كتب الانشاء للسلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب ، ثم من بعده لأخيه الملك العادل سيف الدين أبى بكر الأيوبى (٢١٦) . ومن قبيل النثر ايضا كتابات المؤرخ عبد الله بن سليم الأسوانى ، الذى كان له الفضل فى القاء الضوء على تاريخ النوبة . فقد بعثه القائد جوهر الصقلى بكتاب الى قيرقى (جورج الثانى) ملك النوبة

---

(٢١٣) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٧ ص ١٧٥ .
(٢١٤) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٧ ص ١٧٥ .
(٢١٥) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٦ ص ١٩٦ .
(٢١٦) الطالع السعيد : ص ٦٤ — ص ٦٥ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٩٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ص ٢٤٢ .

يعرض عليه فيه الاسلام ، ويطالبه بأداء ما عليه من متأخر ضريبة البقط ، فدعاه الى الاسلام بحضرة شاهدين كانا معه ، فكبر ذلك على ملك النوبة وجمع علماءه وأساقفته لمناظرة ابن سليم (٢١٧) . والجدير بالذكر أن ابن سليم صنف كتابا سماه « أخبـــار النوبة والمقــرة وعلوه والبجة والنيل ومن عليه وقرب منه من غيرهم » وصفه المقريزى قائلا : « وفيه فوائد كثيرة » وللأســـف الشـــديد فان ذلك الـــكتاب قـــد ضاع ، واحتفظ لنا المقريزى بشذرات منه فى كتابه المواعـــظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، أفادتنا فى معرفة بعض أحوال النوبة فى العصور الوسطى .

وعلى كل حال ، فان أسوان ساهمت بنصيب وافر فى الحياة الأدبية فى مصر العصور الوسطى ، وما تركه علماؤها خير دليل على ذلك .

(د) أسوان معبر رئيسى لنشر الاسلام فى السودان :

ومن المعروف أن مصر تتصل بالســـودان اتصالا وثيقـــا منذ أقدم العصور ، فلا توجد حواجز طبيعية تعوق الاتصال بينهما . ويكفى أن نهر النيل ربط بين القطرين الشقيقين وجعل منهما وطنا واحدا . ولا ينبغى أن ننسى ما قام به نهر النيل من دور رئيسى فى سريان الحضارة المصرية القديمة الى بلاد الســـودان ، فالصلة بين القطرين قديمة قدم الحضارة نفسها . وخير دليل على ذلك أن المسيحية عندما دخلت مصر وانتشرت بها ، انتقلت بدورها الى بـــلاد النوبـــة .

وعندما اتم العرب فتح مصر ، وجعلوا منها أحدى البلاد الخاضعة للدولة العربية الاسلامية ، استلزم الأمر أن يدافعوا عن حدودها الجنوبية . واذا كان ذلك الدفاع قد أتخذ صورة علاقات عدائية بين مصر الاسلامية

---

(٢١٧) المقريزى : المقفى ص ٢٠ .

(٢١٨) المقريزى : المقفى ص ٢١ .

ومملكة النوبة المسيحية فى العصور الوسطى ، الا أنه لم يقطع الصلة الحضارية التى كانت بين البلدين من قبـــل .

ولعبت أسوان دورا بارزا فى حلقة العلاقات الحربية والحضارية بين مصر وبلاد السودان فى العصور الوسطى . اذ أنها كانت أحد المـــدن الاستراتيجية الهامة التى تركز فيها العرب منذ أوائل الفتح العربى لمصر ، للدفاع عنها ضد مملكة المسيحية . كما كانت ملتقى طرق القوافل التجارية الآتية من النوبة والبحر الأحمر ، يتبادل فيها التجار السلع والبضائع . وعلى الرغم أن منطقة الشلال الاول كانت تمثل خط الحدود المعترف بـــه بين البلدين كما سبق أن أوضحنا ، الا أن ذلك الخط كان متذبذبا . وبعبارة أخرى كانت الحدود بين مصر الاسلامية والنوبة المسيحية متداخلة ، فقد استطاع العرب أن يتواغلوا سلميا جنوب أسوان على الرغم من وجود علاقات عدائية بين البلدين . وخير دليل على ذلك أن مساحة الارض التى تقع بين الشلال الاول والشلال الثانى كانت منطقة مفتوحة للقبائل والجماعات العربية . تلك المنطقة التى سماها العرب بأرض المريس ، وعرف حاكمها بصاحب الجبل وهو موظف من قبل ملك النوبة ، أما جنوب وادى حلفا فهى منطقة مغلقة أمام العرب ، ومسئولية حاكم الجبل تنحصر فى عدم السماح لأى شخص بالمرور الا اذا كان لديه ترخيص بذلك (٢١٩) . وفى منطقة المريس استطاع العرب أن يتحركوا فى نطاقها تحركا سليما ، وزاولوا فيها نشاطهم التجارى .

ولكن كيف انتقل الاسلام والثقافة الاسلامية من مصر الى بلاد النوبة ؟ الواقع ان الاسلام سلك طريقه الى السودان بقوتين رئيسيتين سارتا جنبا الى جانب : القوة الاولى تتمثل فى الهجرات العربية ، أما القوة الأخرى

---

(٢١٩) Trimingham : Islam in the Sudan, pp. 64-65.

فتتمثل فى التجارة .

والهجرات العربية التى نزحت من مصر الى السودان التزمت ضفافه النيل ، متخذة من أسوان نقطة انطلاق لها الى وادى حلفـــا فدنقلة ، وقد كان لذلك الطريق النيلى الفضل الاكبر فى نشر العروبة فى السودان ، اذ كان طريقا مألوفا للجماعات الصغيرة سلكته منذ السنوات الاولى للاسلام فى مصر ، هذا وان كانت القبائل العربية التى اندفعت الى السودان فى شكل اعداد ضخمة التزمت ايضا نهر النيل من جنوب اسوان الى كرسكو أو قبلها ، ثم اخترقت صحراء العتمور مباشرة الى أبى حمد ، حيث اتصلت بالنهـــر مرة أخرى ولازمته نحو الجنوب ، وميزة الطـــريق الاخير أنه أقصر من الطريق الاول ، واذا كان قد غلب عليه الوعورة والجفـــاف ، الا أنه جنب القبائل العربية الاحتكاك بالحكومة المنظمة المقيمة على ضفاف النهر ، وابعدها عن دفع أية ضرائب لها (٢٢١) . وبوصول المؤثرات العربية الى أبى حمد ، يمكنها أن تسلك طريقين : أحدهما باتجاه الجنـــوب الشرقى ، والاخرى باتجاه الجنوب الغربى ، وكلاهما يلتزم النهر ، الذى يرسم من أبى حمد طريقين : نحـــو عطبرة والخرطوم من جهة ، ونحو مروى والدبة والبلاد الجنوبية من جهة أخرى ، وكلا الطريقين كان معروفا منذ العصور القديمة (٢٢٢) .

ويمثل الفتح العربى لمصر البداية الحقيقية لتغلغل العرب فى شمال بلاد النوبة ، بعد أن اتخذوا من أسوان مستقرا لهم ، ومنطلقا لهم الى تلك البلاد . واذا وضعنا فى الاعتبار أن أسوان كانت أحد الثغور الاسلامية المعـــدة للرباط فى سبيل الله تعالى ، ويخشى عليها من مهاجمـــة النوبة المسيحية المجاورة لها ، لتصورنا مدى اندفاع القبائل العربية فى ركاب الجيوش العربية الى اسوان وتركيزها فيها ، طمعا فى ثواب الله تعالى .

---

(٢٢٠) محمد عوض محمد : الســـودان الشمالى ص ١٦٠ — ص ١٦١ ، الشـــيوطى : السيوطى : حسن المحاضرة ١ ص ٢٤٢ .

(٢٢١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ص ١٦٢ .

وليس أدل على ذلك من قول المسعودى (٢٢٢) : « ومدينة أسوان يسكنها كثير من العرب من قحطان ونزاربن معد بن ربيعة ومضر وخلق من قريش ، وأكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره » . كما يروى المقريزى أن الكثرة والغلبة ببلاد الصعيد كانت لست قبائل هى : بنو هلال ، وبلى ، وجهينة ، وقريش ، ولواته ، وبنوكلاب ، وكان ينزل معهم عدة قبائل أخرى من الانصار ، ومن مزينه ، وبنى دراج ، وثعلبة ، وجذام (٢٢٣) .

وقد أدت القبائل العربية التى استقرت فى أسوان منذ الفتح العربى دورا عظيما فى نشر الاسلام والثقافة العربية فى بلاد السودان . فبفضلها تسربت العروبة الى تلك البلاد حاملة معها مقوماتها الثلاثة الأساسية وهى : الدم العربى ، واللغة العربية ، والديانة الاسلامية . وقد أتاحت معاهدة البقط التى عقدها عبد الله بن سعد بن أبى سرح مع النوبيين عام ٣١هـ ، الفرصة لهجرة القبائل العربية الى بلاد النوبة فى صورة أفراد أو جماعات . وجاء نص فى تلك الاتفاقية يقول : « وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم » (٢٢٤) . وطبقا لهذا النص الذى ضمن للمسلمين السلام والامان ،نزحت القبائل العربية الى النوبة ، مستوطنة نطقة المريس التى صارت جبهة مفتوحة أمامها . وتحدد لنا تلك المعاهدة طريقة انتشار الاسلام فى النوبة ، فلم يكن انتشارا بطريق الغزو أو العنف ، بل تسربا تم فى بطء وهدوء ، وبمعنى آخر فان ملوك النوبة عندما وافقوا على تلك المعاهدة ، فتحوا الباب على مصراعيه لتسرب القبائل العربية الى السودان ، تلك القبائل التى غيرت المصير الاجتماعى والدينى للنوبة (٢٢٥) .

وهناك من الظروف التى جعلت بعض القبائل العربية تأخذ طريقها الى جنوب مصر فى أسوان ، ومنها الى بلادالنو به ناشدة سبل المعيشة .

---

(٢٢٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٢ .
(٢٢٣) خطط المقريزى جـ ١ ص ١٨٩ .
(٢٢٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٩ .
(٢٢٥) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ص ٢٨٣ — ص ٢٨٤ .

من تلك الظروف حرمان العرب من الامتيازات التى كانوا يحصلون عليها فى مصر ، ففى بداية القرن الثالث الهجرى عام ٢١٨ هـ صدر قرار الخليفة المعتصم باسقاط العرب من ديوان العطاء (٢٢٦) . وبقطع اعطياتهم ، انهارت السيادة التى كانت تمارسها القبائل العربية فى مصر ، وضاعت الامتيازات التى كانت تحصل عليها . وبدا منذ ذلك الوقت اتجاه كثير من القبائل العربية فى حركات مطردة نحو صعيد مصر ، تم نحو حدود النوبة ، ثم داخل بلاد النوبة ، وأهم هذه الهجرات هجرة قبيلة جهينة اليمنية التى استقر بها المقام فى بادىء الامر بأواسط الصعيد ، ثم نزحت الى أسوان ومنها الى بلاد النوبة (٢٢٧) .

والجدير بالذكر هنا ، أن ملك النوبة المسيحى كان فى استطاعته طرد أية جماعة اختارت الاقامة الدائمة فى بلاده وخاصة منطقة المريس . لأن الاقامة الدائمة مخالفة لشروط معاهدة البقط التى وقعها عبد الله بن سعد بن أبى سرح التى جاء فيها : « على أن تدخلوا بلدنا مجازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجازين غير مقيمين فيه » (٢٢٨) . ولكن ملك النوبة المسيحى لم يمنع الافراد او الجماعات التى وفدت الى بلاده من العيش فى سلام ووئام مع رعيته من النوبيين . وفى تصورى أن ذلك التصرف الذى قام به ملك النوبة كان اول مسمار يدقه فى نعش المسيحية فى بلاد النوبة . وخير دليل على ذلك أن أهالى أسوان من المسلمين كان لهم ضياع كثيرة داخل ارض النوبة ، يؤدون خراجها الى ملك النوبة ، وقد ابتاعوا تلك الضياع من اهالى النوبة فى صدر الاسلام ، فى دولة بنى أمية وبنى العباس (٢٢٩) .

---

(٢٢٦) سيدة كاشف : مصر في عصر الولاة ص ١٣٨ .
(٢٢٧) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ص ١٠٤، ١٠٥
(٢٢٨) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٩ .
(٢٢٩) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٢ .

ومن القبائل العربية التى استقرت فى أسوان وادت دورا حيويا فى نشر العروبه فى بلاد النوبه ، قبيلة ربيعة . وقد سبق أن قلنا ان قبيلة ربيعة وفدت الى مصر فى خلافة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) ، واستوطنت أسوان على حدود بلاد النوبة ، فارضة نوعا من السيادة الارستقراطية على القبائل العربية فى اسوان ، وخاصة بعد ان تمكن زعيمها ابو المكارم هبة الله من أخماد ثورة قامت ضد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، فمنحه لقب كنز الدولة تكريما له ، وصار ذلك اللقب وراثيا ، كما أصبحت القبيلة تسمى بنو الكنز .

وعندما اتصل بنو الكنز ببقايا الشيعة والجند الفاطميين ، الذين نفاهم صلاح الدين الأيوبى الى أقاصى الصعيد ، بسبب رغبتهم فى اعادة الدولة الفاطمية ، حدث صدام بين بنى الكنز والجيش الأيوبى بقيادة الملك العادل سيف الدين أبى بكر الأيوبى ، انتهى بهزيمة ساحقة لحقت ببنى الكنز عام ١١٧٦م ، وتقهقرت فلولهم الى منطقة المريس فى شمال النوبة (٢٣٠) . وفى منطقة المريس استعاد بنو الكنز نفوذهم ، واندمجوا مع السكان النوبيين .

وبانتهاء الفترة الزمنية للدولة الأيوبية استطاع بنو الكنز السيطرة على الجزء الشمالى لبلاد النوبة ، وهناك حقيقة يجب الا تغيب عن البال وهى أن الأيوبيين ساهموا بطريق غير مباشر على تقوية نفوذ الاسلام فى منطقة النوبى السفلى ، لأنهم ، اجبروا بنى الكنز على النزوح الى تلك المنطقة من النوبة (٢٣١) .

ومن المرجح أن النفوذ الفعلى لملك النوبة على منطقة المريس قد زال بعد أن نزح اليها اولاد الكنز ، وصبغوها بالصبغة العربية . ويدل على

---

(٢٣٠) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٧ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ١٨٧ — ص ٢٨٨ .

(٢٣١) سر الختم عثمان على : العلاقات بين مصر والسودان في العصور الوسطى ص ١٨٣ .

ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس عندما أرسل حملة على النوبة عام ٦٧٤هـ (١٢٧٥م) كان صاحب الجبل — حاكم منطقة المريس — يحمل اسما عربيا ، هو قمر الدولة (٢٣٢) . وقد اظهر قمر الدولة هذا حمدا ميزا في ... دة الحملة المماليكية ، وامدادها برجال كلما إحتاجت الى ذلك . ... تلك الحملة من فتح بلاد النوبة ، ثم العودة الى القاهرة حيث احتفل السلطان بيبرس بقدومها احتفالا كبيرا (٢٣٤) .

ومن المسلم به أن فتح النوبة في عهد السلطان الظاهر بيبرس مد حدود مصر الاسلامية جنوبي اسوان ، مما افاد القبائل العربية في هجرتها الى بلاد النوبة ، واعطاها حرية التحرك أكثر من قبل . على أن الظاهر بيبرس اذا كان قد تمكن من اخضاع بلاد النوبة لنفوذ المماليك في مصر ، فـان المسيحية لم يضعف شأنها في تلك البلاد الا بعد أن أقام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ملكا مسلما على عرشها بدلا من ملك مسيحي (٢٣٤) . وقد استفاد بنو الكنز من تلك السياسة التي انتهجها الناصر محمد بن قلاوون ، فاستطاع كنز الدولة اغتصاب عرش النوبة عام ٧٢٣هـ (١٣٢٣م) بعد أن تحـدى السلطان ، على الرغم من الحملات التي ارسـلها المماليك لتحول دون أن يعتلي عرش دنقله ملك مسلم ينحدر من أصل عربي صريح (٢٣٥) . واذا كان كنز الدولة قد استغل حقه المشروع في اعتلاء عرش النوبة طبقا لنظام وراثة الأم عند النوبيين الذي يمنح حق الارث لابن الأخت دون ولد الصلب ، فان ذلك لم يكن يفيده في كثير أو قليل ، لولا ما اجتمع اليه من قوة العرب المهاجرين الذين التفوا حوله (٢٣٦) .

---

(٢٣٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٦٢١ — ٦٢٣ .

(٢٣٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٧٩ — ص ٨٠ .

(٢٣٤) جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ١٥٥ .

(٢٣٥) سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٩٣ — ص ٩٦ ،

Arkell : A Hist. of the Sudan., p. 198.

(٢٣٦) مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ص ١٧٤ .

ومنذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادى اخذت القبائل العربية تتدفق صوب الجنوب بعد سقوط مملكة دنقلة . ومن تلك القبائل قبيلة جهينة التى اندفعت الى بلاد النوبة ، وتزوجت من النوبيين ، ونجحت فى كسر شوكة ملوك علوه ، وقد حاول ملوك علوه أن يقفوا فى وجه جهينة ولكنهم لم يتمكنوا ، اذ دهم علوة التفتت والانقسام،وعانت الكثير منغارات الزغاوة والمنحدرين من برنو عبر دارفور ، ولم يجدوا بدا من أن يصهروا الى زعماء جهينة كما اصهر بنو الكنز الى ملوك دنقلة (٢٣٧) . ويوضح ما كما يكل الطريق التى سلكتها جهينة وفزارة وغيرهما من القبائل العربية . فيبدو أن البعض منهم اندفع فى اتجاه الجنوب الشرقى من أسوان وكورسكو نحو بلاد البجة ، حيث الزرع القليل ، ولكن ذلك الطريق يتميز بصعوبته ، فالماء نادر والكلا قليل ، هذا وان كانت الغالبية العظمى من القبائل العربية قد سلكت الطريق النيلى المؤدى الى دنقلة حيث استقر البعض فيها (٢٣٨).وتحركت جموع أخرى من العرب صوب الجنوب والجنوب الغربى من كورتى بحذاء وادى المقدم ، ومن ديه بحذاء وادى الملك فى كردفان ، ومن هناك انتشر العرب على شكل مروحة فى دارفور الى الغرب ، وبحذاء النيل الأبيض عبر صحراء بودا ، والنيل الازرق جنوب شرقى حدود الحبشة (٢٣٩) . ومما لا شك فيه — كما يرى ما كما يكل — أن العرب وجدوا مقاومة من الأهالى ، فضلا عن حدوث حرب متفرقة لسنوات عديدة ، وانتهى الامر الى التصاهر والاندماج ووقوع سهول السودان الشمالية والوسطى فى أيدى العرب (٢٤٠).وعلى أية حال فان بلاد النوبة أضحت منذ القرن الرابع عشر الميلادى وطنا ليس للنوبيين فقط ، بل شاركتهم فيه قبائل عربية كثيرة من غير بنى الكنز ، ولم يعد

(٢٣٧) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٢٩ ، حسن محمود : الاسلام والثقافة ص ٢٩٨ — ص ٢٩٩ .

(٢٣٨) MacMichael : The Coming of the Arabs to the Sudan., p. 55.

(٢٣٩) MacMichael : Op. Cit., pp. 55 - 56.

(٢٤٠) MacMichael : Op. Cit., p. 56.

الشلال الثانى حاجزا يمنع تدفق القبائل العربية نحو الجنوب (٢٤١) . وكان انهيار مملكة مقرة المسيحية مما فتح البـاب أمام هذه القبـائل لتمضى فى توغلها نحو الجنـوب ، مضت جنوبا حتى منطقة النيل الأزرق ، بل مضى عرب جذام غربا، واجتاحوا مملكة الزغاوة وسيطروا على دارفور واتخذوا من هذه المنطقة قاعدة لشن غاراتهم على ما جاورها من أقاليم ، ووصـل بهم تجوالهم حتى مملكة برنو ، بدليل ما جاء من شكوى سلطان برنو الى السلطان الظاهر برقوق عام ٧٩٤هـ من هؤلاء الأعراب (٢٤٢) .

واذا كانت اسوان هى القاعدة الوحيـدة التى عبرتها العروبـة منطلقة مـن مصر الى بـلاد النوبة والسودان ، فأنها كانت أيضا أحـد المعابر الرئيسية التى أوصلت الاسلام والثقافة الاسلامية الى بلاد البجة (البجة) فى الصـحراء الشرقية . فمناطق البجة الحـالية — كما أسلفنا القـول — لم تكن تشغل المسـاحة التى احتلتها مواطن البجا القديمة ، تمتد حـاليا من البحر الأحمر شرقا الى نهر عطبرة ثم النيل الاكبر غربا ، ومن المنحدرات الشمالية لهضبة الحبشة فى الجنوب الى نهاية محافظة اسـوان شمالا (٢٤٣) . وسـكان البجة لهم اتصال شديد بأهل مصر من الأزمنة القديمة ، ومن اجل هذا كـانوا يتأثرون بسرعة بكل تطور يحدث مصر (٢٤٤) .

وقد اعتبر المسلمون شعوب البجة فى صدر الاسلام قبائل وثنية ، غير جدير بالتحالف معها ، ولم تبدا المفاوضات معها الا فى أوائل القرن الثانى للهجرة عندما عقد معها عبد الله بن الحبحاب اتفاقا تجدد فى أيام الخليفة

---

(٢٤١) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ص ٥٨ .

(٢٤٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ص ١١٦ — ص ١١٧ ، حسن محمود . والثقافة العربية ص ٥٨ .

(٢٤٣) محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله ص ٢٣ .

(٢٤٤) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ص ٣١٥ .

المأمون العباسى (٢٤٥) . أما الاتصال بين القبائل العربية وقبائل البجة فقد حدث عندما بدأ العرب يفدون الى أسوان ومنها الى أرض البجة ، بعد أن سمعوا بمعادن الذهب الموجودة بها ، وخاصة منطقة العلاقى التى كان أقرب طريق اليها يبدأ من أسوان . وفى ذلك يقول المسعودى : « وأقرب العمارة اليه (معدن الذهب بالعلاقى) مدينة أسوان » (٢٤٦) . على أن مناجم الذهب بالعلاقى لم تكن الوحيدة فى الصحراء الشرقية ، بل وجدت مناجم أخرى كثيرة متناثرة يفضى اليها من المدينة أسوان (٢٤٧) .

ولعل أول معاهدة هامة عقدت بين البجة ومصر الاسلامية ، عقدت عام ٢١٦هـ (٨٤١م) ، ويتضح منها أن الاسلام قد شق طريقه الى مواطن البجة قبل بداية القرن الثالث الهجرى ، لأن وجود المساجد ودخول المسلمين لقبض صدقات من اسلم لخير دليل على انتشار الاسلام ، سواء كانوا من العرب الذين استقروا هناك او من البجة الذين اعتنقوا الدين الاسلامى نتيجة اختلاطهم بالعرب (٢٤٨) . ولا بد أن عدد المسلمين فى ذلك الوقت كان كبيرا جدا ، وكانوا منتشرين انتشارا واسعا ، لأن عمال أمير المؤمنين ينتقلون لقبض دراهم معدودة من افراد قلائل (٢٤٩) . ويبدو أن جماعات من قبائل بلى وجهينة قد خرجوا لغرض التجارة فى بلاد البجة ، أو جذبتهم معادن الذهب عقب الفتح الاسلامى لمصر (٢٥٠) . وعندما انهارت الخلافة الأموية ، وأعمل العباسيون السيف فى بنى أمية ، هربت جماعة منهم الى بلاد البجة ، واستقر بعضهم فى ميناء باضع ، ودلت الكشوف الأثرية على وجود شواهد قبور اسلامية يرجع تاريخها الى منتصف القرن الثامن الميلادى (٧٦٠)

---

(٢٤٥) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة البجة ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٩٤ .

(٢٤٦) مروج الذهب ، ص ٢٦ ، ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ص ٢٥٥ .

(٢٤٧) اليعقوبى البلدان ص ٣٣٤ — ص ٣٣٥ .

(٢٤٨) مكى شبيكة : السودان عبر القرون ص ٢٧ .

(٢٤٩) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ص ٣١٥ — ص ٣١٦ .

(٢٥٠) مكى شبيكة : السودان عبر القرون ص ٢٧ .

كما دلت الأبحاث الأثرية على وجود مسجد فى سنكات يرجع تاريخ بنائه الى عام ٨٣١م (٢٥١) .

وقد شهد القرن الثالث الهجرى نزوح اعداد هائلة من الجماعات العربية والمغامرين الى أوطان البجة ، جريا وراء الذهب الذى تسامع به الناس فى انحاء الدولة الاسـلامية (٢٥٢) . وقد لعبت تلك الجماعات العربية والمغامرين دورا بارزا فى نشر الاسـلام فى أوطان البجة . ومن الشخصيات الفـذة التى أدت دورها كاملا فى هـذا الصدد ، شخصية عبد الله بن عبد الحميد العمرى الذى أثاره خبر المعدن ، فاشترى عبيدا للعمل بالمناجم ، وسار الى أسوان على سبيل التجارة ونزل بها ، وجالس شيوخها وعلماءها (٢٥٣) . ثم دخل أرض البجة عام ٢٥٥هـ ، ومعه ربيعه وجهينة وغيرهم من العرب ، ولابد أن عددهم كان هائلا ، بدليل ما قاله المقريزى : « فكثرت بهم العمارة فى البجة حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة (المؤن الغذائية) اليهم من أسوان ستين ألف راحلة (٢٥٤) وبعد مقتل العمرى ، استطاعت قبيلة ربيعه أن تتغلب على من خالفها من القبائل العربية الأخرى ، وتزوج رجالها من بنات رؤساء البجة (٢٥٥) . ويذكر المسعودى أن أمير البجة فى وقته — وهو عام ٣٣٢هـ — أبو مروان بشر بن اسحاق وهو من ربيعة ، يتحكم فى جيش قوامه ثلاثة آلاف فارس من ربيعة ومن حالفها من العرب ، وثلاثين الف من الحدارية على الابل (٢٥٦) . وقد أحدثت المصاهرة تفتتا كبيرا فى العصبية المحلية لقبائل

---

(٢٥١) مكي شبيكة : السودان عبر القرون ص ٢٧ — ص ٢٨ مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ص ١١٨ .

(٢٥٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٩٥ .

(٢٥٣) المقريزى : المقفى ص ٤ .

(٢٥٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٩٥ .

(٢٥٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٩٥ — ١٩٦ ، المسـعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٨ .

(٢٥٦) المسعودى : تنتى المرجع والمكان .

البجة (٢٥٧) . والواقع أن العرب فى أراضى البجة ظهروا كعنصر ارستقراطى فرض زعامته على شعوب البجة ، وقد نتج عن مخالطتهم واندماجهم فيهم انصهارفى السلالة من ثمرتهفى الوقت الحالى العبابدة والبشاريين والهدندوة وبنى عامر ، ومن المشاهد أن البجـة الذين اعتنقوا الدين الاسلامى احتفظوا بلغتهم القديمة (٢٥٨) . واذا كان البجة تدا احتفظوا بلغتهم القديمة التى تسمى « التبداوية » وهى لغة حامية غير مكتوبة ، فقد تسرب اليها قدر كبير من الألفاظ العربية ، كما اثرت اللغة العربية فى بعض الصـيغ النحوية لتلـك اللغة (٢٥٩) . وتؤلف قبائل بنى عامر والهدندوة والبشارية والعبابدة وحـدة متجانسة من الناحيتين الفسيولوجية واللغوية ، ويشملهم جميعا اسم البجة الذى أطلقة العرب عليهم (٢٦٠) .

وتبع انتشـار الاسلام بين شعوب البجة تغيير شامل فى عاداتهـم ومعتقداتهم فغيروا أسماء أبنائهم واستبدلوها بأسماء مسلمة مثل محمد ، كما صـاروا يدفنون موتاهم على الطريقة الاسلامية بأن وجهوا رؤوس موتاهم تجاه مكة (٢٦١) وقد حدث ذلك التغيير حوالى ١٠٠٠ — ١٣٠٠م ، وينسب الى تلك الفترة ايضا أبراج الحراسة الساحلية المبنية من الحجر ، والمقابر التى تأخذ شـكل ذيل السمكة فى أركويت ، وجبانة الموتى فى مامان (شمال كسلة) (٢٦٢) .

ومما لا شك فيه ، أن طريق الحج الذى كان يبدأ من اسـوان ، مخترقـا الصحراء الشرقية ، الى أن يصل ميناء عيذاب على ساحل البحر

(٢٥٧) MacMichael : The Coming of the Arabs to the Sudan, p. 52.

(٢٥٨) MacMichael : Op. Cit. pp. 52-53.

(٢٥٩) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ص ٣٦ .

(٢٦٠) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ٢٢٢ .

(٢٦١) Newbold : The Beaj tribes of Red Sea Hinterland, p. 149.

(٢٦٢) Newbold : Op. Cit., p. 149.

الأحمر ، ومنها الى جدة ، ذلك الطريق كان من العوامل التى ساعدت على انتشار الاسلام بين شعوب البجة . ففى تصورنا ان من بين الحجاج علماء مسلمين ، عملوا على نشر التوعية الاسلامية بين الوثنيين من البجة ودعوهم الى الاسلام .

أما التجارة ، فانها لعبت دورها الهام فى نشر الاسلام بين النوبيين والبجة ، ذلك الدور الذى لا يقل أهمية عن الدور الذى قامت به هجرة القبائل العربية الى تلك البلاد . واذا عرفنا أن أسوان كانت أحد الثغور الهامة لتجارة مصر الخارجية فى العصور الوسطى ، لتصورنا مدى مساهمة أسوان فى الدور الذى لعبته التجارة لنشر الاسلام والدعوة اليه .

ويرى توماس أرنولد أن الدعوة الى الاسلام كانت الى حد كبير فى ايدى التجار ، فمهنة التجارة تنأى بصاحبها عن مواضع الشك والريبة ، بخلاف الأجنبى الذى يثير الشبهات ، كما أن التاجر فى نشره للدعوة الاسلامية لا يقع فى المساوىء التى تعرقل مهمة الداعى المحترف (٢٦٣) . ويرى بعض الباحثين أن نشر الدعوة الاسلامية واجب ملقى على عاتق كل مسلم أينما كان فى الأرض عملا بالآية الكريمة « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » ، ويأتى التاجر فى مقدمة صفوف العاملين فى هذا الميدان فى عصور سابقة لم تكن تعرف رسالة الجمعيات التبشيرية التى نشاهدها فى العصر الحديث (٢٦٤) .

وقد حرص عبد الله بن سرح على وضع شرط فى معاهدة البقط يضمن للتجار المسلمين حرية المرور والتجول داخل بلاد النوبة ، لتصريف السلع الاتية من مصر ، وابتياع سلع بلاد النوبة ، فهذا الشرط يقول « على أن

---

(٢٦٣) توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٣٥٠ .

(٢٦٤) قسطنطين زريق : التجارة الاسلامية وأثرها في الحضارة ص ٥٤٧ — ص ٥٤٨ .

تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه (٢٦٥) ونستشف من ذلك الشرط أن التجار المسلمين قد زاولوا مهنة التجارة فى بلاد النوبة قبل ابرام تلك المعاهدة . وهناك ما يؤيد ذلك ، فقد جاء فى نص كتاب الأمان الذى كتبه عمرو بن العاص الى أهالى مصر بعد أن أمضوا الصلح ، وجاء فيه ذكر النوبة ما يلى « ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة » (٢٦٦) . اذا لم تكن تلك المعاهدة تضع أساسا للمستقبل بقدر ما كانت تقرر حقيقة موجودة من قبل (٢٦٧) . كما يؤيد ذلك أيضا نص جاء فى معاهدة البقط يتضمن صيانة مسجدالمسلمين والمحافظة عليه ، اذ يقول ذلك النص « وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفضاء مدينتكم ، ولا تمنعوا منه مصليا ، وعليكم كنسه واسراجه وتكرمته » (٢٦٨). ويبدو من المحال أن الحملة السريعة التى قام بها عبد الله بن سعد بن سرح على النوبة قد قامت ببناء مسجد للمسلمين فى الفترة القصيرة التى مكثتها . ومن المرجح أن ذلك المسجد قد بناه تجار المسلمين من قبل ، لأداء شعائرهم الدينية .

ومن المؤكد أن قوافل التجار المسلمين التى ترددت على بلاد النوبة لم تنقطع فى وقت ما ، ويزداد نشاطهم التجارى والدينى كلما نمت العلاقات بين مصر الاسلامية والنوبة المسيحية ، تلك العلاقات التى بلغت الغاية من النمو فى القرن الثالث عشر الميلادى ، كما أن التجار النوبيين المنحدرين الى بلادهم من مصر — عبر أسوان — كانوا يتحدثون عن أحوال البلاد الدينية والثقافية ويتأثرون بما يرون من معالم الحضارة والرقى (٢٦٩) . ولا ريب أن مناطق الحدود غالبا ما تكون مصدر اشعاع حضارى وفكرى يستقى منه .

---

(٢٦٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٩ .
(٢٦٦) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٧ ص ٩٨ .
(٢٦٧) حسن محمود : الإسلام والثقافة ص ٢٨٦ .
(٢٦٨) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٩ .
(٢٦٩) حسن محمود : الاسلام والثقافة ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .

ومن السلع التى كانت تلقى رواجا واسعا فى أسواق مصر تجارة الرقيق ، فقد اشتد الطلب على الرقيق منذ درج الولاة على تجنيدهم فى جيش مصر الاسلامية ، فانخرط النوبيون فى سلك الجندية منذ أيام الطولونيين ، واستمرت الحاجة اليهم فى عهد الأخشيديين ، ثم ازداد عددهم فى عهد الفاطميين ، وهؤلاء الجند كانوا يعتنقون الديانة الاسلامية ، ومنهم من كان يعود الى مسقط رأسه ، وليس من المستبعد أن يكون من بينهم أحسن الدعاة الاسلام بين مواطنيهم (٢٧٠) . ولا شك أن تجارة الرقيق سهلت الهجرة العربية الى بلاد النوبة ، فجلب العبيد من بلاد السودان حرم تلك البلاد من العنصر الشاب فيها ، مما فتح الطريق للقبائل العربية ، كما أن التجار المسلمين بتوغلهم فى بلاد النوبة والسودان عرفوا مسالك الطريق ، وفى ترحالهم من منطقة الى أخرى داخل السودان كانوا خير دعاة للاسلام (٢٧١) .

وعلى أية حال ، يمكننا القول أن اسوان كانت بمثابة عنق الزجاجة التى مرت منها القبائل العربية الى السودان منذ أوائل الفتح العربى لمصر ، حاملة معها الدم العربى والديانة الاسلامية . كما أن دورها فى تجارة النوبة والصحراء الشرقية ساهم بنصيب وافر فى نشر الاسلام . واذا كانت هجرة القبائل العربية والتجارة هما القوتان الأساسيتان اللتان سارتا جنبا الى جنب من أجل نشر الاسلام جنوب اسوان ، فلا ينبغى لنا أن ننسى الدور الذى قامت به بقايا الجيوش المتحاربة والفارين من الضغط السياسى فى نشر الاسلام والثقافة العربية .

---

(٢٧٠) حسن محمود : الاسلام والثقافة ، ص ٢٨٦ — ص ٢٨٧ .

(٢٧١) يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية في الهجرة العربية الى السودان ص ١١٤ — ص ١١٥ .

الفصل الرابع

البناء الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى

نزوح العرب الى أسوان — أسباب ذلك — دور شواهد القبور فى معرفة البناء الاجتماعى لأسوان — مناقشة بعض الآراء حول شواهد القبور — عروبة مصر تبدأ بالفتح العربى — القبائل العربية التى ساهمت فى الفتح — انقسام العرب فى أسوان الى عدنانيين وقحطانيين .

(أ) القبائل العدنانية التى سكنت أسوان : قريش — العباسيون — الطالبيون — الأشراف — الجعافرة — بنو أمية — العمريون — البكريون — بنو سهم — بنو مخزوم — بنو زهرة — ربيعة (بنو الكنز) — بنو عنزة — بنو شيبان — مضر — قيس عيلان — بنو هلال — بنو تميم — بنو ضمرة .

(ب) القبائل القحطانية التى سكنت أسوان : جهينة — بنو كلب — الأزد — الأنصار — خولان — بنو النخع — مراد — لخم — تجيب — المعافر — الصدف — الكلاع — خزاعة — غافق — بنو جعد — بنو أجدع .

قبائل من المرجح أنها سكنت أسوان : سعد العشيرة — بلى — بهراء .

القبائل العربية أوجدت النظام القبلى بأسوان — الهجرات الفردية من خارج مصر الى أسوان — هجرة الأفراد من داخل مصر الى أسوان — طبقة الموالى — شعوب البجة بالصحراء الشرقية — أوطان البجة — اختلاط العرب بالبجة — قبائل البشارية — قبائل العبابدة — النوبيون الخلص — التكاررة (التكارنة) — طبقة العبيد — العناصر السكانية التى وفدت الى أسوان أواخر العصور الوسطى : المهاجرون من عرب الأندلس — المماليك — الأتراك .

تعقيب — الطابع العام للبناء الاجتماعى فى أسوان العصور الوسطى .

حفلت مدينة أسوان فى العصور الوسطى بعناصر سكانية عديدة ومتباينة ، ينتمي معظمها الى الجنسين السامى والحامى ، فضلا عن أجناس أخرى أقل نقاوة . وتتمثل تلك العناصر التى تلاقت على أرضها ، فى القبائل العربية التى احتلت قمة الهرم الاجتماعى ، والنوبيين ، والبشارية ، والعبابدة، بالاضافة الى الوافدين من مختلف مدن مصر الاسلامية ، والتكاررة (التكارنة) ، والعبيد ، والمماليك ، والمهاجرين المسلمين من الأندلس ، والأتراك ، وغيرهم .

وقد حدث فى أعقاب الفتح العربى لمصر مباشرة ، أن نزحت أعداد غفيرة من القبائل العربية الى أسوان ، اذ تضافر أكثر من سبب جعل العرب يندفعون اليها ، على الرغم من مناخها القارى ، وبيئتها النائية شبه المنعزلة . من ذلك ما سبق أن اشرنا اليه من أنها كانت تعتبر أحد الأربطة التى رابط المجاهدون فيها ، بغرض صد هجمات مملكة النوبة المسيحية على حدود مصر الجنوبية . ومن المعروف أن أولئك المجاهدين ، تألفوا من القوات العربية المحاربة ، التى وقع على كاهلها عبء حماية الثغور والأطراف فى الدولة العربية الاسلامية . فلم يسمح لهم فى بادىء الأمر بممارسة أية مهنة ، فيما عدا مهنة الحرب ، فمنعوا من الزراعة ، « فلا يزرعون ولا يزارعون »(١) . لذلك فانهم تقاضوا مرتبات ، منحت لهم من ديوان العطاء ، وهو الديوان الذى بلغ عدد المقيدين فيه من العرب فى مصر — زمن معاوية بن أبى سفيان — أربعين الف(٢) . هذا الى أن تجارة الرقيق التى اشتد التكالب عليها فى البلاد الاسلامية ، جعلت بعض العرب يندفعون الى أسوان للمشاركة فيها . ولا ينبغى أن ننسى أن اسوان كانت مسلكا للحجيج الى مكة المكرمة فى القرون الاسلامى الأولى .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢١٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١، ص ٦٧ — ص ٦٨ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٤٦ .

وثمة دليل مادى هام ، اعتمدنا عليه فى وصف التركيب الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى ، الى جانب ما سبق أن عرضناه فى ثنايا الفصول السابقة ، من حوادث تتصل بالحياة السياسية والاقتصادية والأدبية والثقافية لتلك المدينة . ذلك الدليل هو شواهد القبور(٣)التى أسفرت عنها الحفريات التى أجريت فى جبانة أسوان وقد جعلتنا تلك الشواهد نلمس بشكل واضح ، ان علم الآثار يأتى فى مقدمة العلوم التى تخدم التاريخ . وقد حفرت على تلك الشواهد ، نقوش توضح تاريخ الوفاة لشخصيات من جنسيات متعددة ، عاشت فى اسوان منذ الفتح العربى لمصر . ومن الملاحظ أن الكتابة نقشت على الأحجار والرخام بالخط الكوفى ، اما حفرا واما بارزا .

ويرى بعض الباحثين ، أن اسم المتوفى فى معظم شواهد القبور التى عثر عليها فى مقابر أسوان ، يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة . أما فى غضون القرن الثالث ، فقد لوحظ أن اسم القبيلة ، حل محلها اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب اليه المتوفى ، فيكتب فلان الكوفى أو المصرى

---

(٣) قام الاستاذ عبد الرحمن عبد التواب مدير الآثار الاسلامية والقبطية بمصلحة الاثار المصرية ، باجراء حفريات في جبانة أسوان في المدة من ديسمبر ١٩٦٠ حتى منتصف عام ١٩٦٢ . وأسفرت تلك الحفريات عن اكتشاف العديد من شواهد القبور التى لم ينشر شىء عنها في كتاب حتى الآن . وقد أطلعنا سيادته — مشكورا — على مسودة تلك الشواهد ، التى سننشر عند الرجوع اليها في دراستنا . وثمة ملاحظة أدلى بها الينا سيادته — مشافهة — لمن يبغى دراسة شواهد القبور التى عثر عليها في مقابر أسوان من قبل . فمن المعروف أن كتاب Stéles Funéraires الذى يحتوى على نقوش لشواهد قبور عثر عليها في مقابر مصر الاسلامية ، خاصة مقابر الفسطاط وأسوان ، يقع ذلك الكتاب في عشر أجزاء ، الف الجزء الأول والثالث منه حسن الهوارى وحسين راشد ، أما بقية الأجزاء فقد ألفها العلامة جاستون فييت . وقد جاء في مقدمة ذلك الكتاب أن ٢٥٠ شاهدا أصلها من مدافن أسوان ، وردت لمتحف الفن الاسلامى بتاريخ ١٤ يناير عام ١٩٠٤ م ، وتحمل تلك الشواهد رقم ٣١٥٠ . أما شواهد القبور الموجودة بمتحف الفن الاسلامى حاملة رقم ١٥٠٦ وعددها ١٠٠٠ شاهد ، فهى هدية من مصلحة الآثار المصرية وأصلها من مدافن نائوجه القبلى ، وقد أكد الاستاذ عبد الرحمن عبد التواب بعد الدراسة التى استخلصها الكتالوجات ولمحاضر اللجنة الدائمة للآثار الاسلامية أن غالبيتها وردت أصلا من أسوان . وينطبق ذلك أيضا على شواهد القبور التى تحمل رقم ٢٧٢١ والتى جاء في ذكر مصدرها : وجدت بمخازن المتحف .

... الخ (٤) . كما يرى البعض أنه بدراسة نسب المتوفين فى تلك الشواهد يتضح أن اغلبهم ينتمون الى القبائل التى جاءت الى مصر مع الجيش الفاتح ، والقليل منهم نسب الى الموطن ، ولم يبتدىء عادة الانتساب الى المواطن فى تلك الشواهد الا بعد سنة ٢٠٠ هـ (٥) . وعلى أية حال ، فقد لاحظنا أثناء دراستنا لشواهد قبور جبانة أسوان ، أن كتابة اسم المتوفى منتسبا الى قبيلته لا يقف عند نهاية القرن الثانى الهجرى : بل يمتد حتى القرن الخامس الهجرى . فعلى سبيل المثال لا الحصر : أبو راشد سعيد بن ميمون بن يحيى بن سوار التجيبى (ت٢٤٧ هـ) (٦) ، وأحمد بن محمد بن عيسى القرشى (ت٢٥٧ هـ) (٧) ، وفاطمة ابنة مروان بن عبد الملك الخولانى (ت ٣٢٨ هـ) (٨) ، والحسين بن الفضل أحمد بن سليمان العباسى (ت ٤٠٢ هـ) (٩) وأحمد بن صدقة بن أحمد ابن سيار بن أحمد المخزومى (ت ٤١٠ هـ) (١٠) ، ومحمد بن سليمان الأنصارى (ت ٤٢١ هـ) (١١) . كما لاحظنا ايضا ، أن شواهد عديدة مصدرها الأصلى أسوان ، ذكر فيها اسم المتوفى ، خاليا من الانتساب الى قبيلته أو موطنه . أما عن شواهد القبور التى جاء بها اسم المتوفى فلان الأسوانى ، فمن المرجح أنها لشخص من أسوان توفى بعيدا عنها فى مكان ما ، وبعد أن تم دفنه ذكر اسمه على الشاهد منسوبا الى موطنه أسوان . ومثال ذلك الشاهدين الوحيدين اللذين عثر عليهما فى مقابر عين الصيرة ، فالأول

---

(٤) Wiet : Precis de l' Histoire d'Egypte., Tom. 11, P. 219 &
سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٥٨

(٥) Catalogue général du Musée Arabe. Stéles funéraires, Vol. 1. par Hassan Hawary et Hussein Rached.

(٦) Wiet : Stéles fuméraire , Vol. 11, P. 111.

(٧) Hawary et Rached : Op.Cit., Vol. 111, P. 78.

(٨) Wiet : Op. Cit., Vol. V, P. 34.

(٩) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

(١٠) Wiet : Op. Cit., Vol. VI, P. 57.

(١١) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

لعبد الله ابن محمد بن زكريا الأسوانى (ت ٢٥١ هـ) (١٢) والآخر لعمر بن ابراهيم الأسوانى (ت ٢٧٥ هـ) (١٣) . هذا وان كنا فى حالات نادرة وجدنا شواهد قبور مصدرها الأصلى أسوان ، جاء بها ذكر المتوفى منتسبا الى وطنه أسوان (١٤) . وثمة شواهد قبور عثر عليها فى جبانة أسوان ، يرجع تاريخها الى القرن الثالث الهجرى وما يليه ، جاءت خلوا من ذكر اسم قبيلة المتوفى أو الاقليم الذى ينتمى اليه ، وبدلا من ذلك جاء بها اسم المتوفى مضافا اليه نوع المهنة التى مارسها فى حياته ، سواء كان خياطا أو عطارا أو نجارا أو منها : أحمد بن نادى الخباز (ت ٢٤٤ هـ) (١٥) ، وعلى بن حسن بن سويد لبناء (ت ٣٥٠ هـ) (١٦) ، والحسن بن محمد بن ابراهيم بن سلمة الصانع (ت ٤٢٧ هـ) (١٧) . ونخلص من ذلك الى أن ذكر اسم قبيلة أو وطن المتوفى فى شواهد قبور جبانة أسوان ، ابتداء من القرن الثالث الهجرى ، ليس قاعدة عامة نستطيع أن نسير عليها ونطبقها عند دراسة وتصنيف تلك الشواهد .

ومما لاشك فيه ، أن الفتح العربى لمصر ، وضع اللبنة الأولى فى عروبتها الحقيقية ، فقد تألف الجيش الفاتح من نحو اثنى عشر ألف مقاتل ، غالبيتهم من القبائل العربية المختلفة . وقد ذكر ابن عبد الحكم (١٨) أسماء القبائل العربية التى هبطت مصر وقت الفتح ، واتخذت لها خططا حول المسجد الجامع (جامع عمرو بن العاص) ، أهمها : قريش — الأنصار — أسلم — غفار — بنو جمع — بنو الليث — جهينة — ثقيف — المعافر — بنو معاذ — عنزة من ربيعة — بلى — الأزد — مهرة — غافق — الصدف — تجيب — مراد — خولان — مذحج — حمير — بنو وائل — الكلاع — بنو بحر — بنو فهم —

---

(١٢) Wiet : Op. Cit., Vol. 11, P. 185.

(١٣) Wiet : Op. Cit., Vol. IV, P. 33.

(١٤) Stéles funéraires., Vol.. 1, P. 127, 161, 174, Vol. 111, P. 100; Vol 1V, P. 8; Vol. VIII, P. 46.

(١٥) Wlet : Op Cit.,Vol. 11, P. 61.

(١٦) Wiet : Op. Cit., Vol. V, P. 350.

(١٧) Wiet : Op. Cit., Vol. VI P. 113.

(١٨) فتوح مصر والمغرب ص ١٤١ — ص ١٧٥ .

يرفا — شجاعة — هذيل — جذام — غنث — حضر موت — يحصب — لخم —

ولم يقف تيار الهجرات العربية الى مصر عند مرحلة الفتح ، بل وفد اليها بالتدريج كثير من القبائل والجماعات العربية فى القرون التالية . ولا نستطيع متابعة كل الهجرات النازحة الى مصر عقب الفتح لأن ذلك يخرج بنا عن طبيعة الدراسة التى نحن بصددها . وسنهتم فقط بالقبائل العربيـــة التى وهبت اسوان عروبتها .

من الواضح أن عددا من القبائل العربية ممن شهدت فتح مصر ، رابطت فى ثغر أسوان ، للدفاع عنه — كما قلنا من قبل — ضد غزوات مملكة النوبة المسيحية ، فضلا عن اشتراكها فى الحملات التى صار ولاة مصر يبعثون بها ، لغزو تلك المملكة المتاخمة لحدود مصر الجنوبية . وخير دليل على ذلك شواهد قبور من أسوان ، يرجع تاريخهـا الى أوائل القرن الأول الهجرى ، ففى احداها كتب اسم عبد الله الحجازى الأنصارى ، وعلى آخـر كتب اسم محمد بن عبد شمس الطائفى الأنصارى ، والاثنان من قبيلة الأنصار التى اشتركت فى معارك الفتح ، وسبق لهما القتال فى جيش خالد بن الوليد ابان خلافة عمر بن الخطاب (١٩) . كما عثر على شاهد قبر من الحجر الجيرى ، عليه كتابة باسم ابن حجر الأســوانى مؤرخ ٣١ هـ (٢٠) . ومعنى ذلك أن أسوان سكنها أقوام من العــرب من القــرن الأول الهجرى ، ممن عاصروا الرسول عليه الصلاة والسلام (٢١) .

وفى دراستنا للقبائل العربية التى سكنت أسوان فى العصور الوسطى ، نرى القحطانيين والعدنانيين ممثلين تمثيلا قويا فى تركيبها . وفى هذا الصدد لابد أن نذكر أن العرب فى بلادهم الأصليـــة ، كانوا ينقسمون الى قسمين

(١٩) De Villard : La Musulman a di Aswan., PP. 1-2.

(٢٠) سعاد ماهر : محافظات الجمهورية في العصر الاسلامى ص ٨٥ .

(٢١) المرجع السابق ، ص ٨١ — ص ٨٢ .

عظيمين هما : عرب الجنوب وعرب الشمال ، أى سكان اليمن وما يليها من الأقطار فى الجنوب ، والحجاز ونجد فى الشمال (٢٢) . وكان يطلق على عرب اليمن العرب العاربة ، وهم بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليهم السـلام (٢٣) . أما عرب الحجاز ، فكان يطلق عليهم العرب المستعربة ، وهم بنو عدنان ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام (٢٤) . ولعل تسمية العرب العاربة والعرب المستعربة ، باسم قحطان وعدنان ، أنسب من لفظى الجنوبيين والشماليين ، لا سيما بعـد أن هاجرت القبائل اليمنية ، وانتشرت فى بقاع مختلفة من الحجاز ونجـد وعلى حـدود الشام والعراق ، فأصبح وصفهم بأنهم جنوبيون وشماليون لا ينطبق على الأوضاع الجغرافية (٢٥) . ومن الأوفق أن نلتزم التقسيم التى كانت عليه القبائل العربية فى شبه الجزيرة العربيـة ، فنتحدث عن القبائل العدنانية والقحطانية ، كل منهما على حدة .

(أ) القبائل العدنانية :

هبطت غالبية تلك القبائل أرض مصر زمن الفتح ، وسكن منها أعـداد هائلة أرض أسوان . وليس أدل على ذلك من قول المسعودى (٢٦) الذى زار مصر عام ٣٣٢ هـ : « ومدينة أسوان يسكنها كثير من العرب ، من قحطان ونزار بن معد بن ربيعة ومضر وخلق من قريش ، وأكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره » وأهم هذه القبائل التى نزلت أسوان هى :

١ ـ قريش :

تتمثل تلك القبيلة التى سكنت أسوان بفروع عديدة لها ، نذكر منهـا

---

(٢٢) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية ص ٣١٨ .
(٢٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣١٥ .
(٢٤) المصدر السابق ، ص ٣٣٦ .
(٢٥) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية ص ٣١٨ .
(٢٦) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ٢ ص ٢٢ .

العباسيين ، والطالبيين ، والبكريين أولاد أبى بكر الصديق ، والعمريين ممن ينتمون الى عمر بن الخطاب . وقد عثر فى جبانة أسوان على شواهد قبور ، يحمل أصحابها أسماء يجىء فى نهايتها كاملة القرشى مثل : عمارة بنت موفق ابن يحيى بن عبد الله القرشى المتوفاة فى سنة ١٩٠ هـ ، وآمنة بنت عبد الله القرشى المتوفاة فى سنة ١٩٨ هـ (٢٧) ، وحسين بن يوسف بن يعقوب القرشى المتوفى سنة ٢٥٠ هـ (٢٨) ، ورحيمة ابنة خالد بن عبد الله بن خلد انقرشى المتوفاة سنة ٢٥٢ هـ ، وأحمد بن محمد بن عيسى القرشى المتوفى سنة ٢٥٧ هـ (٢٩) .

٢ – العباسيون :

هم ابناء عمومة النبى صلى الله عليه وسلم . ولم تكشف الحفاتر التى اجريت فى أسوان حتى الآن الا عن شاهدين لقبرين ، جاء بهما كلمة العباسى ، الأول منهما يحمل اسم طاهر بن حديج بن عبد الواحد ابن كامل بن مينا بن الفرج بن ماهان بن عبد الله مولى عبيد الله بن الشهريج العباسى (ت ٢٠٧ هـ) (٣٠) . والآخر يحمل اسم الحسين بن الفضل بن أحمد بن سليمان العباسى (ت ٣٧٧ هـ) (٣١) . ومن العباسيين تفرعت مجموعة الجعليين ، ممن ينتسبون الى جد اكبر يسمى ابراهيم ولقبه الجعل . وتنسب الروايات ذلك الجد الى سعد بن فضل بن عبد الله بن العباس عم الرسول عليه الصلاة والسلام (٣٢) . وتمثل مجموعة الجعليين شعبا عظيما فى السودان ، والدلالة على ذلك ، فانها تشتمل على عدد كبير من القبائل التى

(٢٧) Hawary et Rached : Op. Cit., Vol. 1, P. 15; P. 25.
(٢٨) Wiet : Op. Cit., Vol. 11, P. 178.
(٢٩) Hawary et Rached : Op. Cit., Vol. 111, PP. 12-13; P. 78
(٣٠) Hawary et Rached : Op. Cit., Vol. 111, PP. 177-178.
(٣١) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .
(٣٢) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ص ٣٠١ .

انضوت تحتها ، مثل الشـــايقية والرباطاب والبديرية والميرافاب والركابيـــة والجوابرة والجموعية والجمعة والجعليين الخلص (٣٣) . ومن الواضـــح أن الجعليين كانوا يقيمون فى أسوان قبل أن ينطلقوا منها الى السودان ، فقــد عثر على شاهدين لقبرين فى مدافن أسوان يحملان كلمة الجعلى نسبة الى جعل ، الأول باسم بركات برشبان مولى يحيى بن محمد الجعلى المتوفى فى رجب عام ٣٤٢ هـ والثانى باسم ابنة عياد بن .... القوى بن محمد الجعلى المتوفاة فى رمضان عام ٣٨٥ هـ (٣٤) . وعلى أية حال ، فان عددا كبيرا من سلالة العباسيين لايزال يعيش فى قرى أسوان ونجوعها ، اختلط البعض منهم بالنوبيين ، وتعلموا رطانتهم .

٣ ـ الطالبيون :

من البيت الهاشمى ، ممن ينتمون الى ابى طالب عم الرسول عليـــه الصلاة والسلام . وقـــد كان لأبى طالب ثلاثة أولاد هم : على ، وجعفر ، وعقيل (٣٥) . ويتمثل الطالبيون الذين عاشوا فى أسوان العصور الوسطى فى ذرية على وجعفر أبناء أبى طالب ، التى وصفت فى المراجع المعاصرة بقبائل الجعافرة ، أما ذرية عقيل بن أبى طالب ، فلم يرد فى المراجع المعاصرة أية اشارة تفيد هجرة البعض منهم الى مصر فى العصور الوسطى .

ومن ذرية على بن أبى طالب التى عاشت فى أسوان أحفاد الحســـن والحسين ، من فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد عرف أحفاد الحسن بالحسنيين ، أما أحفاد الحســـين عرفوا بالحسينيين . ويبدو أن الحسنيين ممن عاشوا فى أســـوان كانوا قلة . فان الحفائر التى أجريت فى أسوان لم تسفر الا عن شاهد واحد ، يحمل اسما ينتمى الى الحسن بن على

---

(٣٣) نفس المرجع ، ص ٣٠١ ــ ص ٣٠٤ .

(٣٤) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

(٣٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٥٩ .

ابن أبى طالب ، صاحبه محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن اسماعيل، ابن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب (ت ٣١٥ هـ) (٣٦) أما الحسينيون أحفاد الحسين بن على بن أبى طالب ، فقد ذكر القلقشندى أن جماعة من الجعافرة بنى جعفر الصادق (ت ١٤٨ هـ) من ولد الحسين بن على سكنوا صعيد مصر ، وكانت مساكنهم تمتد من بحرى منفلوط الى سمالوط غربا وشرقا ، ومن بطونهم الحيادرة ، وهم أولاد حيدرة ، والسلاطنة ، وهم أولاد ابى جحيش (٣٧) . وثمة شواهد قبور من أسوان ، ينتمى أصحابها الى جعفر الصادق من أحفاد الحسين بن على ، تدل دلالة قاطعة على أنهم استقروا فى أسوان فى العصور الوسطى . على أن ثمة ملاحظة جديرة بالانتباه ، فقد لفت نظرى أثناء دراسة تلك الشواهد أن الأسماء التى تنسب الى الحسين بن على ابن أبى طالب يسبق معظمها كلمة الشريف أو الشريفة ، ويبدو أن أحفاد الحسين هم الذين عرفوا بالأشراف دون غيرهم من ذرية على بن أبى طالب . ومن رواية للقلقشندى (٣٨) ، ترجح أن لقب الأشراف قد اقتصر على أحفاد الحسين بن على دون غيرهم ، فقد روى أن جماعة من أولاد جعفر الصادق من أحفاد الحسين ، يعرفون بأولاد الشريف قاسم سكنوا أسيوط ، كما أن دروة سربام من الأشمونين عرفت بدروة الشريف (ديروط الشريف) نسبة الى الشريف حسن الدين بن تغلب الذى ينحدر من أولاد جعفر الصادق . ومن أسماء الشواهد التى يسبقها لقب الشريف أو الشريفة : الشريفة رقية ابنة معلا بن على بن الحسن بن ابراهيم بن الحسن بن الحسين بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله الباهر بن على زين العابدين ابن السبط الشهيد الحسين بن الامام الوصى على بن أبى طالب (ت ٤٩٥ هـ) ، والشريف أبا الحسن محمد بن حيدرة بن الـ .... بن الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن ... محمد بن عبد الله الباهر

---

(٣٦) Wiet : Op. Cit., Vol. IV, P. 180.

(٣٧) القلقشندى : صبح الأعشى جـ١ ص ٣٥٩ .

(٣٨) صبح الأعشى ، جـ ١ ص ٣٥٦ .

ابن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب (ت ٥٣٢ هـ) (٣٩) .
أما اسم الشاهد الذى لم يسبقه ذلك اللقب ، فهو لآمنة بنت الحسين بن
الحسن بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن
عبد الله الباهر بن الامام السجاد زين العابدين على بن الإمام السبط الشهيد
الحسين بن الامام الوصى أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ت ٤٨٤ هـ) (٤٠) .
ولا جدال فى أن أولئك الأشراف من أبناء الحسين بن على قد تضاعف عددهم فى
أسوان ، خاصة فى أوائل القرن السابع الهجرى ، ففى ذلك يقول الأدفوى (٤١)
(ت ٧٤٨ هـ) : « وأخبرنى من وقف على مكتوب فيه أربعون شريفا خاصة ،
وأن مكتوبا آخر فيه سبعون شريفا دون غيرهم ، ووقفت أنا على مكتوب فيه
قريب من أربعين ، ومنه جمع كبير من بيت واحد ، مؤرخ بما بعد العشرين
وستمائة » . ولا يزال باقيا الى وقتنا هذا فى أسوان ، بعض الطوائف القليلة
التى ترى أنها من نسل الأشراف .

كما عثر فى جبانة أسوان على شاهد قبر لشخصية تنتمى الى ذرية على
ابن أبى طالب من ولده محمد الملقب بابن الحنفية (ت ٢٠٠ هـ) ، تلك الشخصية
هى زينب ابنة على بن عيسى بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن جعفر بن
محمد بن على أبى طالب ، المتوفاة فى اسوان حوالى منتصف القرن الثالث
الهجرى (٤٢) .

أما الجعافرة الذين ينحدرون من جعفر الطيار بن أبى طالب ، فقد نزحوا
الى مصر فى القرن العاشر الميلادى ، بعد أن أقصتهم بعض القبائل من مكة (٤٣) ،
وسكنوا أسوان منذ ذلك التاريخ . ومما يدل على ذلك شواهد القبور التى

---

(٣٩) Wiet : Op. Cit., Vol. VI, PP. 177-178; P. 190
(٤٠) Wiet : Op. Cit., Vol. VI, P. 172.
(٤١) الطالع السعيد : ص ٢٩ — ص ٣٠ .
(٤٢) Wiet : Op. Cit., Vol. VIII, P. 42.
(٤٣) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٣٢ .

عثر عليها فى مقابر أسوان ، وأصحابها هم : ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن يحيى بن ابراهيم بن محمد بن جعفر بن ابراهيم بن محمد بن على ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب (ت ٣٨٥ هـ) (٤٤) ، وجوهرة مولاة أم الحسين المعروفة ببليانة ابنة محمد بن ابراهيم بن محمد بن يحيى بن ابراهيم بن محمد بن جعفر بن أبى طالب (ت ٤٥٥ هـ) (٤٥) . وثمة شاهد يحمل اسم محمد بن ياسين بن محسن بن محمد بن محسن الجعفرى (ت ٣٤٥ هـ) (٤٦) ، قد يكون صاحبه من بنى جعفر بن أبى طالب . وفى زمن ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) ، نجدهم يسكنون بين أسوان وقوص مع بنى الكنز . وغالبية الجعافرة الموجودين بأسوان اليوم ، ممن ينتسبون الى جعفر بن أبى طالب (٤٧) .

٤ — بنو أمية :

بطن من بطون قريش . ومن المعروف أنه عندما انهارت الخلافة الأموية عام ١٣٢ هـ ، تعقب العباسيون بنى عمومتهم بالقتل والنفى والتشريد ، وهربت جماعة من بنى أمية الى بلاد النوبة والبجة فرارا من المذابح (٤٨) . ومما لا شك فيه أن بنى أمية قد اتخذوا من أسوان منطلقا لفرارهم ، ولا نستبعد أن البعض منهم قد استقر فى أسوان وقراها ، ليكون فى مأمن من السلطة المركزية فى مصر . وثمة شاهد عثر عليه فى جبانة أسوان يحمل اسم محمد بن حنون بن حفص الأموى المتوفى سنة ٢٥٤ هـ (٤٩) .

---

(٤٤) Wiet : Op. Cit., Vol. VI, P. 3.

(٤٥) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

(٤٦) Wiet : Op. Cit., Vol. V, P. 90.

(٤٧) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية ص ٣٣ .

(٤٨) مكى شبيكة : السودان عبر القرون ص ٢٧ .

(٤٩) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

٥ — العمريون :

هم الذين ينتسبون الى عمر بن الخطاب ، بالاضافة الى أنهم بطن من بطون قريش ، ترجع الى بنى عدى بن كعب بن لؤى بن غالب (٥٠) . وقد سبق أن رأينا الدور الكبير الذى قام به أبو عبد الرحمن العمرى ، فى نشر الاسلام والثقافة العربية فى النوبة وبلاد البجة من الصحراء الشرقية ، وينحدر العمرى من ذرية عمر بن الخطاب ، فهو عبد الله بن عبد الحميد بن عبد الله الناسك بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطـاب ، ويكنى بأبى عبد الرحمن العمرى العدوى القرشى (٥١) ، وقد نزح العمرى الى أسوان فى منتصف القرن الثالث الهجرى بحثا عن معدن الذهب . ومن المحتمل أن ذريته قد استقرت فى أسوان ، لأننا عثرنا على شاهد قبر نقش عليه اسم ام أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن العمرى المتوفاة سنة ٢٥٩ هـ (٥٢) .

٦ — البكريون :

من أولاد أبى بكر الصديق ، وقد ذكر القلقشندى أن أبا بكر الصديق ينتمى الى بنى تيم بن مرة بن كعب ، بطن من بطون قريش ، وسكنت جماعة من بنى عبد الرحمن وبنى محمد ولدى أبى بكر الأشمونين والبهنسائية من صعيد مصر (٥٣) . وتدل شواهد القبور على أن بعضا من بنى عبد الرحمن عاشوا فى أسوان ، اذ عثر على شاهد يحمل اسم ... هاشم بن أبى بكر (ت ٢٦٤ هـ) (٥٤) .

---

(٥٠) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٥٥ .

(٥١) المقريزى : المقفى ص ٤ .

(٥٢) Hawary et Rached : Op. Cit., Vol. III, P .92.

(٥٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٥٤ .

(٥٤) Hawary et Rached : Op. Cit., Vol. III, p. 130.

٧ — بنوفهر :

اصل من اصول قريش ، ينسب الى فهـر بن مالك (٥٥) . وعثر على شاهد نستدل منه أن جماعة من بنى فهر سكنت اسوان فى العصور الوسطى، ويحمل ذلك الشاهد اسم مطرف بن أحمد بن مطرف بن يحى بن أحمـد بن مطرف بن منقذ بن طحيم الفهرى المتوفى فى أسوان عام ٤٤١ هـ (٥٦) .

٨ — بنو سهم :

ينسبون الى قبيلة هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب ، ومن بنى سهم عمرو بن العاص ، نزلوا مصر مع الجيش العربى الفاتح ، واتخذوا لهم خطة بمدينة الفسطاط حول جامع عمرو بن العاص (٥٧) . ومما يدل على أن جماعة من بنى سهم أقاموا فى اسوان ، شاهد القبر الذى يحمل صاحبه اسم أحمد ابن زيد بن أبى زيد السهمى المتوفى عام ٢٨٢ هـ (٥٨) .

٩ — بنو مخزوم :

ينسبون الى مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب ، وبه اشتهرت القبيلة دون أبيه يقظة لكثرة عقبه ، والى تلك القبيلة ينسب خالد بن الوليد ، وابو جهل والعاص ولدى هشام اللذين قتلا فى موقعة بدر (٥٩) . ومن بنى مخزوم سكنت جماعة بصعيد مصر بالأشمونين ، عرفت بالشدة والبأس . وقد عثر على شواهد قبور فى اسوان لأفراد من بنى مخزوم ، مما يؤيد أن جماعة منهم سكنت تلك المدينة . من بينهم احمد بن صدقة بن أحمـد بن سيار بن أحمد المخزومى المتوفى سنة ٤١٠ هـ (٦٠) .

---

(٥٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٥٢ .
(٥٦) Wiet : Op. Cit., Vol. VI, P. 138.
(٥٧) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٥٣ .
(٥٨) Wiet : Op. Cit., Vol. IV, P. 68.
(٥٩) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٥٥ .
(٦٠) Wiet : Op. Cit., VI, P. 57.

١٠ — بنو زهرة :

ينسبون الى زهرة بن كلاب بن مرة ، وقد خرج من تلك القبيلة سعد ابن أبى وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، كلاهما من العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب الرسول عليه السلام ، كما خرج أيضا منها آمنة بنت وهب أم رسول الله ؛ واستقرت جماعة من بنى زهرة ببلاد الأشمونين بصعيد مصر (٦١) . وقد عثر على شواهد قبور فى أسوان ، ينتمى أصحابها الى بنى زهرة، نذكر منهم : سهر فتى محمد بن أمية بن ميمون بن يحيى بن مسلم ابن الأشج الزهرى المتوفى سنة ٢٤٧ هـ ، وأم ابراهيم ابنة عبد الرحمن بن موسى بن يونس الزهرى المتوفاة سنة ٢٤٩ هـ (٦٢) ، من ذلك نستدل أن جماعة من تلك القبيلة نزحت الى أسوان ، وأقامت فيها .

١١ — ربيعة (بنو الكنز) :

تأتى قبيلة ربيعة فى مقدمة القبائل العدنانية التى لعبت دورا هاما فى الاحداث التى ألمت بمدينة أسوان فى العصور الوسطى . وتتفرع تلك القبيلة مباشرة من نزار بن معد بن عدنان ، وديارها كانت بلاد نجد وتهامة فى شبة الجزيرة العربية (٦٣) . ثم وقعت الحرب بين ربيعة ، مما كاد يؤدى الى هلاكها ، فتفرقت ، وارتحلت بطونها الى بقاع مختلفة ، فسكن بعضهم البحرين ، وهجر ، وظواهر بلاد نجد ، والحجاز ، واليمامة ، والكور الواقعة بين الجزيرة والعراق (٦٤) . أما عن ربيعة التى نزلت اليمامة شرقى الجزيرة العربية ، فقد اجبرها بنو الاخيضر الى الجلاء عنها ، فنزحت الى مصر فى عهد المتوكل على الله العباسى عام ٢٤٠ هـ على وجه التقريب ، فى

---

(٦١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٥٥ .

(٦٢) Wiet : Op. Cit., Vol. II, P. 99; P. 158.

(٦٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٣٦ ، عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب جـ ٢ ص ٤٢٤ .

(٦٤) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣١ ، عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب جـ ٢ ص ٤٢٤ .

أمداد كثيرة ، ثم سارت الى أسوان حيث استقرت أول الامر فى مكان يسمى المحدثة بظاهر أسوان ، واستطاع زعيم ربيعة فى اسوان أبو المكارم هبة الله ، أن يظفر بالثائر أبى ركوة الذى خرج على الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، فأكرمه أكراما عظيما ، ولقبه كنز الدولة ، وصارت القبيلة تعرف ببنى الكنز (٦٥) ومن شواهد القبور التى عثر عليها فى جبانة أسوان ، أمكننا التأكد من اى بطن من بطون ربيعة انحدر بنو الكنز . فالشاهد الاول جاء به اسم كريمة ابنة أحمد المعروف بقسطنطين مولى هبة الله بن محمد على بن محمد بن أبى يزيد الحنفى ، المتوفاة فى مستهل ربيع الاول سنة ٤١٩هـ (٦٦) واسم هبة الذى جاء فى الشاهد هو نفسه أبو المكارم هبة الله الذى منحه الخليفة الفاطمى لقب كنز الدولة . أما الشاهد الثانى ، فهو يحمل اسم يوسف بن الحسين بن سلامة مولى محمد على بن أبى يزيد الحنفى (٦٧)، ولانعرف تاريخ وفاته . ومحمد بن على هذا هو الذى أنجب أبا المكارم هبة الله . وثمة شاهد ثالث يرجع تاريخ وفاة صاحبه الى النصف الاول من القرن الرابع حتى الخامس الهجرى وجد عليه أسم عباس بن عبد الأحد مولى الامير كنز الدولة أبو الحسن على بن الامير كنز الدولة بن محمد الحنفى . . الأول . . (٦٨) ونلاحظ هنا أن كلمة الحنفى التى ذكرت فى الشواهد الثلاث ، تنسب الى بنى حنيفة بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن جديلة بن اسد أحد ولدى ربيعة .

وعلى أية حال ، فان بنى الكنز خرجوا على صلاح الدين الأيوبى ، فارسل اليوم جيشا كثيفا بقيادة أخية الملك العادل ، التقى بهم فى معركة ،

---

(٦٥) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٣١ ، المقريزى : البيان والاعراب ص ٤٤ — ص ٤٦ ، MacMichael : A Hist. of the Arabs in the Sudan, Vol.1, P. 149.

(٦٦) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

(٦٧) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

(٦٨) Wiet : Op. Cit., Vol. x, P. 105.

انتهت بمقتل زعيمهم كنز الدولة فى صفر سنة ٥٧٠هـ (سبتمبر ١١٧٤م) ، وفرار فلولهم الى شمال النوبـــة ، حيث تركزوا بصفة خاصة فى منطقة المريس . وهناك اختلطوا بأهالى النوبة ، وتزوجوا من بنات زعمائهم . وفى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين علا نفوذ الكنز فى بلاد النوبة ، ولم تفلـــح الحكومة المركزية فى مصر فى كسر شوكتهم ، الى ان تمكنوا فى النهاية من الاستيلاء على أسوان عام ١٣٨٥م ، ومع أنهم فقدوا أسوان عام ١٤١٢م عندما دمرتها قبيلة هوارة ، الا أنهم ظلوا اقوى قبيلة على الحدود الســـودانية المصريـــة ، حتى وقعت مصر فريســـة فى أيـــدى العثمانيين عام ١٥١٧ (٦٩) .

والواقع أن الأيوبيين ساهموا بطريق غير مباشر فى تعريب جزء كبير من بلاد النوبة ، ففرار بنى الكنز الى شمال النوبة ادى الى تسرب الدماء العربية الى النوبيين المقيمين فى تلك المنطقة ، الامر الذى أدى الى ظهور سلالة جديدة ، يعرف أفرادها حتى الان بالكنوز . وقد عرفت المنطقة التى كان يسكنها الكنوز قبل بناء السد العالى (٧٠) ، بمنطقة الكنوز ، وهى تمتد الى مسافة تبدأ من جنوبى أسوان حتى كيلوا ١٤٥ جنوبا ، حيث توجد سبع عشر قرية تبدأ بقرية دابود شمالا . وتنتهى بقرية المضيق جنوبا (٧١) . ولما كان بناء

---

(٦٩) MacMichael : Op. Cit., Vol. 1, P. 149.

(٧٠) في يوم ٩ يناير ١٩٦٠ فجر الزعيم الخالد جمال عبد الناصر كمية الديناميت في موقع بناء السد العالى كاشارة لبدء العمل في ذلك المشروع الضخم . والسد العالى عبارة عن سدا ركامى كبير يقفل المجرى القديم لنهر النيل على بعد ٧ كيلو متر جنوبى خزان أسوان ، ليحول المياه الى مجرى جديد عن طريق قناة تحويل مكشوفة يتوسطها ستة أنفاق . وداخل الانفاق مزودة ببوابات حديدية للتحكم في كمية المياه التى تمر بها . ويتفرع كل نفق قبل نهايته الى فرعين . وتصب الفروع الاثنى عشر في محطة الكهرباء ليغذى كل واحد منها وحدة توليد مائية . وتبلغ حجم المواد الداخلة في بناء السد العالى حوالى ٤٣ مليون متر مكعب معظمها من ركام الجرانيت . أما طول السد العالى فيبلغ ٤٨٠٠ متر منها ٧٠٠ متر بين ضفتى النهر ويمتد الباقى على هيئة جناحين على جانبى النهر ، ويبلغ طول الجناح الايمن ٢٤٠٠ متر على الضفة الشرقية ، وطول الجناح الايسر ٧٠٠ متر على الضفة الغربية .

(٧١) محافظة أسوان (كتيب أصدرته وزارة الارشاد القومى .

السد العالى أقتضى تهجير النوبيين ، لانه أدى الى غـــرق بلادهم ، لذلك قامت الحكومة المصرية بتهجيرهم الى منطقة كوم أمبو بمحافظة أسوان ، ويعيش الكنوز حاليا فى قراهم الجديدة شمالى كوم أمبو .

ونتيجة لأن الكنوز ينحدرون من أصل عربى صريح ، فان شكلهم الطبيعى فى غالبية الأحيان لا يكاد يختلف عن سكان الوجه القبلى فى مصر ، كما نجد بينهم أشخاصا يمتازون بالمـــلامح العربية الوسيمة (٧٢) .

١٢ ـــ بنـــو عـــنزة :

أحد فروع ربيعة ، وقد ذكر القلقشندى أن منازل بنى عنزة بن أسد ابن ربيعـــة ، كانت خيبر من ضواحى المدينة (٧٢) . وقـــد شهدت قبيلة عنزة معارك الفتح ، واختطت لها خطة حـــول جـــامع عمرو بن العاص (٧٣) . ويبدو أن جماعات أو أفرادا من تلك القبيلة هبطوا أرض أسوان ، فقد وجد شاهد قبر مصدره أسوان ، جاء به أسم على ابنة عبد الملك بن على بن عبد الملك ابن موسى بن ابراهيم بن يزيـــد بن خالـــد بن زيـــد بن الحـــارث العنزى (ت ٤٠٧ هـ) (٧٥) .

١٣ ـــ بنـــو شيبـــان :

بطن من بطون ربيعة ، فهم بنو شـــيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب ابن على بن بكر بن وائل (٧٦) . وقد سكنت جماعات منهم أسوان ، فثمة شاهد نقش عليه اسم حسين بن مقبل مولى بشر بن شعيب بن داود الشيبانى

---

(٧٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ص ٣٠٤ .
(٧٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٣٧ .
(٧٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٦١ .
(٧٥) Wiet : Op. Cit., Vol. VI, P. 49.
(٧٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٣٨ .

المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٧٧) . ومن المحتمل ان بنى شيبان نزلوا أرض المعدن فى أوطان البجة بالصحراء الشرقية ، مع ابناء عمومتهم بنى قيس بن ثعلبة ، ونستدل على ذلك من رواية للمقريزى (٧٨) جـــاء فيها ذكر رؤساء ربيعة فى بلاد البجة عام ٢٥٥هـ ، فهو يقول : « وعلى ربيعة رجل يعرف بأشهب بن ربيعة من بنى حنيفة بن لجيم بن صعب ، وآخر يعرف باياس بن روح ، وآخر يعرف بمحمد بن صريح على بنى قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر ابن وائل وحلفائهم » . ويمثل نزوح بنى شيبان الى أرض المعـــدن ، دليل آخر على أنهم أقاموا فى اسوان مع القبائل العربية الأخرى .

١٤ ـــ مضـــــر :

قبيلة عدنانية تنحدر مباشرة من نزار بن معد بن عدنان كانت منازلهـــا باليمامة شرقى شبه الجزيرة العربية ، غير أنها غادرتها الى مصر ـــ مع قبيلة ربيعة ـــ تحت ضغط بنى الأخيضر ، واستقرت فى اسوان والعلاقى حيث معدن الذهب (٨٠) . ويستفاد مما ذكره المقريزى أن تلك القبيلة دخلت أسوان فى أعداد غفيرة ، ففى منتصف القرن الثالث الهجرى طلب العمرى من مضر أن تساعده فى حربه مع البجة الذين قتلوا أخاه ، ولكنها رفضت وابتعدت عنه ، فنظم قصيدة تناولها فيها بالذم ، منها (٨١) : ـــ

اذا جـــزى اللـــه أقـــوامـــا بعـــاديـــة
فـــلا جـــزى مضرا عنـــا باحســـان
أعنى الـــذيـــن بشـــط النيـــل مســـكنهم
مـــا بين قـــوص الى ســـاحات أســـوان

(٧٧) Wiet : Op. Cit., Vol. VI, P. 7.
(٧٨) المقفى ص ١٦ ـــ ص ١٨ .
(٧٩) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٢٩ .
(٨٠) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٣١ .
(٨١) المقريزى : المقفى ص ١٦ ـــ ص ١٨ .

علیــا تمیــم ومــا كــانت بخــاذلــة
فی النــائبــات ومــا كــانــوا بدلان

ولا جدال أن البيت الثاني ، يعتبر دليل على أن قبيلة مضر كانت منتشرة فی اسوان وما يليها شمالا . وفضلا عن ذلك ، فـان قبيلة مضر تمتعت بنفوذ قوی فی بلاد البجة ، اذ خامر رئيس من رؤســائها يعــرف بمحمد بن هرون ، على الفتك بالعمری ، عندما قـام الاخير بقتل زعيم ربيعة فی تلك البلاد ، واستطاع قتله غيلة ، ومن ثم حملت رأسـه الى أحمد ابن طولون (٨٢) . وفی المنتصف الاول من القرن الرابع الهجری ، كانت قبيلة مضر ضمن القبائل العربية التی تقيم فی أسوان (٨٣) .

١٥ ــ قيس عيــلان :

لم يتفرع من قبيلة مضر الا فرع واحد جمع عدة قبائل ويسمى ذلك الفرع قيس ، وقد اختلف فی نسبه فقيل قيس بن عيــلان ، وقيل أيضا قيس بن مضر ، ونكثرة بطون قيس ، فان اسمه غلب على سـائر القبائل العدنانية ، حتى جعل فی مقابل اليمن (العــرب القحطانية) ، فيقال قيس ويمن (٨٤) . ونستدل من شاهد قبر عثر عليه فی أسوان أن تلك القبيلة أقامت فی أسوان ، فقــد نقش عليه اســم كامل بن محمد ... بن محمد بن علی بن اسحق بن كامل العيــلانی (ت ٤٣٣هـ) (٨٥) وبالاضافة الى ذلك ، فانها نزلت ارض المعــدن فی منتصف القرن الثالث الهجری ، بحثا عن الذهب ، ولكن نزاعا شب بينها وبين الشاميين انصــار أبی عبد الرحمن العمری ، فاتهمه الشاميون دون وجه حــق ، أنه انحاز لقيس عيلان (٨٦) .

---

(٨٢) المقريزی : المقفی ص ١٩ .
(٨٣) المسعودی : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٢ .
(٨٤) القلقشندی : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٣٩ .
(٨٥) Wiet : Op. Cit., Vol. VI, P. 126.
(٨٦) المقريزی : المقفی ص ٨ .

١٦ ـ بنو هلال :

تعتبر قبيلة بنى هلال من اشهر القبائل العدنانية التى سكنت أسوان فى العصور الوسطى ، وهى تنسب الى هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية ابن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان (٨٧) . وقد انتشر بنو هلال انتشارا واسعا فى مصر فى بلاد الصعيد كلها ، فضلا عن المنازل التى كانت لهم فيما بين مصر وافريقية (تونس) (٨٨) . وفى منتصف القرن الثالث الهجرى ، نعلم أن بنى هلال قد غادروا أرض المعدن الى غربى النيل ، بعد أن دب النزاع بين القبائل العربية (٨٩) . وفى زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، كانت رياسة بنى هلال لماضى بن مقرب ، ولما قام أبو ركوة بثورته العنيفة ضد الحاكم ، بايعه بنو هلال ، فبادر الحاكم بعد أن قضى على أبى ركوة بالانتقام الشديد منهم ، فسلط عليهم الحبوش والعرب فأفنوا الكثير منهم ، وفر من بقى حيا الى المغرب الأقصى (٩٠) . غير أنهم استردوا نفوذهم فى بلاد الصعيد ، « وصار لهم بلاد أسوان وما تحتها » (٩١) .

١٧ ـ بنو تميم :

ينسبون الى تميم بن مر بن مراد بن طابخة بن الياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان ، وكانت منازلهم بأرض نجد والبصرة واليمامة ، وامتدت الى العذيب من ارض الكوفة ، ثم تفرقوا بعد ذلك فى الجواضر الاسلامية ، وورثت مساكنهم قبائل أخرى (٩٢) . وفى اليمامة اجبر بنو

---

(٨٧) المقريزى : البيان والإعراب ص ٢٨ .
(٨٨) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٤١ .
(٨٩) المقريزى : المقفى ص ١٦ ـ ص ١٧ .
(٩٠) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٤١ .
(٩١) نفس المصدر والمكان .
(٩٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٤٦ ـ ص ٣٤٧ .

الأخيضر قبيلة تميم على الجلاء ، فأتخذت طريقها الى مصر فى القرن الثالث الهجرى مثلما فعلت قبيلتى ربيعة ومضر ، وهبطت أسوان حيث ابتنت بها مساكن ، ومن أسوان ترددت على العلاقى بحثا عن الذهب . ويبدوا أن أفرادا من قبيلة تميم فى أسوان ، كانوا من اصحاب التجارة الواسعة فى أسوان ، ويدل على ذلك قول المقريزى : « وكتبه العمرى الى أسوان ، يسأل التجار المساعدة والخروج اليه بالجهاز من طريق المعدن . فخرج اليه رجل يعرف بعثمان بن حنجلة التميمى (٩٣) فى ألف راحلة فيها الجهاز والبر . فقام اليه العمرى وتلقاه وسر بذلك (٩٤) ولما نشبت الحروب بين القبائل العربية فى أرض المعدن (بلاد البجة) ؛ ابتعدت تميم عن خوضها ، وتوقفت عن استخراج الذهب نهائيا وسارت بجموعها الى شرقى النيل حيث استقرت هناك (٩٥) . وعلى أية حال ، فاننا نخرج من ذلك الى أن قبيلة تميم وفدت الى أسوان فى أعداد غفيرة وثمة شاهد عثر عليه فى جبانة أسوان ، نقش عليه اسم ابنة على ابن يحى بن محمد التميمى (ت ٤٠٨ هـ) (٩٦) .

١٨ ــ بنو ضمرة :

أرجع القلقشندى نسب تلك القبيلة الى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن عدنان ، كما ذكر أنها فى صعيد مصر تتركز فى البلاد الاخميمية (٩٧) ويبدو أن جماعة

---

(٩٣) يبدو لنا أن صحة الاسم عثمان بن حنظلة التميمى ، فبنو حنظلة أكبر بطون تميم ، ولا نستبعد أن عثمان هذا ينتمى الى ذلك البطن . وعن بنى حنظلة انظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٤٧ .

(٩٤) المقفى : ص ٧ — ص ٨ .

(٩٥) المقريزى : المقفى ص ١٧ .

(٩٦) Wiet : Op Cit., Vol. VI, P. 51.

(٩٧) القلقشندى : صبح لأعشى : جـ ١ ص ٣٤٨ — ص ٣٥١ .

من تلك القبيلة نزحت الى أسوان ، فقد عثر على شاهد فى أسوان ، يحمل صاحبه اسـم محمدة ابنة أحمد بن عبد الله الضمرى المتوفـاة فى شـعبان سـنة ٣٤٧هـ (٩٨) .

وبعد ، فأن هذا عرض عام للقبائل العربية العدنانية التى عاشت فى أسوان زمن العصور الوسطى ، وأكسبتها عروبتها . وقد أعتمدنا فى هـذا العرض على فتات المعلومات التى جائت فى بطون المراجع من جهة ، وأثبتنـا بعضها من شواهد القبور التى أقام أصحابها فى أسوان من جهة أخرى .

(ب)القبائل القحطانية :

تمثل تلك القبائل عرب الجنوب أو عرب اليمن ، وهى التى يقال فيهـا العرب العاربة . وقد هبطت مصر قبائل قحطانية عديدة مع الجيش الفاتح ثم انتشرت فى أرجاء مصر من أدناها الى اقصاها . وأهم القبائل القحطـانية التى استقرت فى أسوان هى :

١ ـ جهينـــة :

تنسب تلك القبيلة لجهينة بن زيد بن ليث بن سـود بن اسلم بن الحاق ابن قضاعة (٩٩) وقد وفدت الى مصر مع الجيش الفاتح ، واتخذت لها خطة بمدينة الفسطاط (١٠٠) وانتشرت ببـلاد الصعيد ، حتى صارت من القبائل التى كان لها الكثرة والنفوذ ، وقد مر بنا من قبل أن جهينة اشتركت فى الحملات التى طرقت بلاد البجة فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، واقامت فى أراضى المعدن مع القبائل العربية الأخرى . وفى القرن الرابع عشر الميلادى، انطلقت جهينة من أسوان الى بلاد النـوبة ، وانتشرت فيها ، ويقول ابن

---

(٩٨) Wiet : Op. Cit., Vol. V, P 100.

(٩٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١ ص ٣١٦ .

(١٠٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٤١ .

خلدون (١٠١) (ت ١٤٠٦/٨٠٨م) : « انتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكاثروا هناك سائر الأمم ،وغلبوا على بلاد النوبة ، وفرقوا كلمتهم وأزانوا ملكهم ، وحاربوا الحبشة فأرهقوهم » . وفى زمن القلقشندى (ت ١٤١٨/٨٢١ م) ، كان لبنى جهينة بقايا ببلاد الصعيد (١٠٢) . وفى جبانة أسوان أسفرت الحفريات عن شواهد قبور ، ينتمى أصحابها الى تلك القبيلة ، منها مرزوق بن خازم بن أحمد بن خزام بن محرز بن سمرة الجهنى (ت ٣٩٣هـ)، وحسنة ابنة سليمان بن مشمل الجهينى المتوفاة فى الفترة التى تقع حوالى النصف الاول من القرن الثالث للهجرة وبين القرن الرابع للهجرة (١٠٤) .

٢ ـ بنو كلب :

يرجع نسب تلك القبيلة الى كلب بن وبرة بن ثعلبة بن حلوان بن عمران الحافى بن قضاعة (١٠٥) . ومن المحتمل أن جماعة من تلك القبيلة سكنت أسوان فى العصور الوسطى ، لانة تم اكتشاف شاهد قبر نقش عليه اسم عمران بن رحال بن أحمد محمد الكلبى المتوفى فى أسوان فى بئونة (كذا) عام ٣٩٢هـ (١٠٦) .

٣ ـ الأزد :

وفدت تلك القبيلة الى مصر فى ركاب الجيش العربى الفاتح ، واختطت لها حول جامع عمرو بن العاص (١٠٧) وهى تنتمى الى الأزد بن الغيث بن بنت مالك

---

(١٠١) العبر، وديوان المبتدأ والخبر جـ ٢ ص ٥١٦ .
(١٠٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ١٦ .
(١٠٣) Wiet : Op. Cit., Vol. VI, P. 23.
(١٠٤) Wiet : Op. Cit., Vol. VII, P. 50.
(١٠٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣١٦ .
(١٠٦) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .
(١٠٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٦٢ .

ابن ادد بن زيد بن كهلان (١٠٨) . ويستفاد من شـــواهد القبور التى جاءت من أسوان ، أن جماعة من تلك القبيلة أقامت فى أسوان نذكر منها : الحسن بن عاصـــم الأزدى المتوفى فى الفترة التى تنحصر بين نهاية القرنين الثانى والثامن للهجرة (١٠٩) . ورزق فتى يعقوب بن اسحق الأزدى (ت ٢٩٠ هـ) (١١٠) .

٤ ـ الأنصـــار :

تنحدر تلك القبيلة من الأوس والخزرج ابنا حـــارثة الذى ينسب الى قبيلةالأزد القحطانية ، وقد اشتهرت الأوس والخزرج باسم الانصار لانهما نصرا الرسول عليه الصلاة والسلام (١١١) . وقد ساهمت تلك القبيله فى فتح مصر ، واتخذت لها خطة بمدينة الفسطاط . ومنذ القرن الأول الهجرى اقام الأنصار فى أسوان ، فقد عثر دى فيـــار De Villard (١١٢) على شاهدين لرجلين من تلك القبيلة اشتركا فى فتح مصر ، وثمة شـواهـــد أخرى ينتمى أصحابها الى قبيلة الأنصار ، نذكر منها : على بن الحجاج بن فرقد الأنصارى (ت ٢٥٧هـ) (١١٤) . وزينب ابنة ... بن عثمان بن نادى الأنصـــارى (ت ٤٢١ هـ) (١١٦) ولا زالت تعيش فى أسوان حتى وقتنا الحالى قبائل تعرف بالانصـــار .

---

(١٠٨) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١ ص ٣١٨ — ص ٣١٩ .

(١٠٩) Wiet : Op. Cit., Vol. VIII, P. 34.

(١١٠) Wiet : Op. Cit., Vol. IV, P. 98.

(١١١) المقريزى : البيان والاعراب ص ٤٧، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣١٨ — ص ٣١٩ .

(١١٢) La Musulmana di Aswan, PP. 1-2.

(١١٣) Hawary et Rached : Op. Cit., Vol. 1, P. 83.

(١١٤) Hawary et Rached : Op. Cit., Vol. III, P. 71.

(١١٥) Wiet : Op. Cit., Vol. V, P. 109.

(١١٦) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

ه ــ خـــولان :

تنسب تلك القبيلة الى مالك ، بطن بن بطون قبيلة كهلان القحطانية ، وكانت منازلها شرقى اليمن ، غير انها افترقت فى الفتوحات الاسلامية (١١٧) . وهبطت خـولان مصر لأول مرة مع الجيش الفاتـح (١١٨) ويبدو أن عددا كبيرا من تلك القبيلة عاش فى أسوان ، فقد عثر على شواهد قبور عديدة تحمل اسم الخولانى ، نذكر منها على سبيل المثال : محمد بن خالد الصواف الخولانى (ت ٢٠٨ هـ) ، ويعقوب بن يحى الصواف الخولانى (ت٢١٦هـ) (١١٩) وعائشة ابنة محمد بن عيس الخولانى (ت ٣١٧ هـ) وفاطمة ابنة مروان بن عبد الملك الخولانى (ت ٣٢٨ هـ) ((١٢٠) .

٦ ــ بنـو النخـع :

قبلة قحطانية ، ذكر القلقشندى (١٢١) نسبها قـائلا : « وهم بنـو النخع واسمه جسر بن عمرو بن علة بن مذحج ، وسمى النخع لانه انتخع عن قومه أى بعد ، ومنهم الأشتر النخعى أحد تابعى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى ولاه أمير المؤمنين على بن ابى طالب مصر» ويبدو أن طائفة من تلك القبيلة أقامت فى أسوان لأنه عثر على شاهد قبر يحمل اسم ابنة عبد الرحمن بن زيد النخعى المتوفـاة عام ٢١٤هـ (١٢٢) .

---

(١١٧) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٢٦ .

(١١٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٧١ .

(١١٩) Hawary et Rached : Op. Cit., Vol. 1, P. 52; P. 90.

(١٢٠) Wiet : Op. Cit. Vol. V, P. 5; P. 34.

(١٢١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٢٧ .

(١٢٢) Hawary et Rached : Op. Cit., Vol. 1, P. 77.

٧ ــ مــراد :

من القبائل القحطانية التى جاءت مصر زمن الفتح ، ويرجع نسبها الى مالك بن ادد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ومنازلها كانت فى زبيد باليمن ، ومن أجل هذا ينسب الى مراد مؤسس تلك القبيلة كل مرادى من عرب اليمن (١٢٣) . وعلى الرغم من اننا وجدنا شاهد قبر فى أسوان يحمل اسم محمدين احمد بن أعز بن طفيل المرادى ، يرجع تاريخ وفاة صاحبه الى الفترة التى تبدأ من منتصف القرن الثالث حتى نهاية القرن الرابع الهجرى (١٢٤) لكننا نستطيع أن نجزم أن أعدادا هائلة من تلك القبيلة عاشت فى أسوان ، اذ لازال شارعا فى أسوان يعرف حتى الوقت الحاضر بشارع المراداب ، كما أن نجعا بقرية الأعقاب شمالى أسوان بحوالى ١٧ كيلو متر لازال يحمل اسم المراداب .

٨ ــ لـخـــم :

بطـن من بطون كهـلان ، ينسب الى لخم عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهـلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان (١٢٥) . وقد هبط اللخميون مصر وقت الفتح العربى ، واختطوا لنفسهم خطة حول المسجد الجامع (١٢٦) . وذكر القلقشندى أنهم استوطنوا بلاد الصعيد بالبر الشرقى (١٢٧) . ومما يدل على أن قبيلة لخم سكنت أسوان ، شواهد القبور التى نقش عليها كلمة اللخمى ، فمنها فاطمة ابنة اسماعيل اللخمى (ت ٢٠٦ هـ) ، وسليمان بن عبد الله بن عمر بن

---

(١٢٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٢٩ .

(١٢٤) Wiet : Op. Cit., Vol. VIII, P. 32.

(١٢٥) المقريزى : البيان والاعراب ص ٥٩ .

(١٢٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٦٤ .

(١٢٧) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٢٤ .

سليمان بن داود اللخمى (ت ٤٠٢ هـ) (١٢٨) ، وعزام بن عامر اللخمى المتوفى فى الفترة التى تمتد من منتصف القرن الثالث الهجرى حتى الرابع الهجرى (١٢٩) .

٩ ــ تجيب :

من ذرية عدى وسعد ابنى الأشرس بن شبيب بن السكن بن الأشرس بن كندة من بنى كهلان ، وسمى التجيبيون باسم أمهم تجيب ، وقد نزلوا مصر رفقة الجيش الفاتح ، واتخذوا لهم خطة بمدينة الفسطاط (١٣٠) ويبدو أن قبيلة تجيب نزحت الى أسوان ، وعاشت فيها ، ويدل على ذلك شواهد القبور التى جاءت من أسوان ، تحمل أسم التجيبى ، منها أبو راشد سعيد بن ميمون بن يحى بن سوار التجيبى (ت ٢٤٧ هـ) (١٣١) ، وعيس بن سليمان التجيبى المتوفى حوالى الفترة من النصف الاول من القرن الثالث الهجرى حتى القرن التاسع الهجرى (١٣٢) .

١٠ ــ المعافر :

تنسب تلك القبيلة الى يعفر بن مرة بن أدد بن زيد بن يشحب بن عريب بن زيد بن كهلان ، هبطت مصر مع الجيش الفاتح ، واتخذت لها خطة فى مدينة الفسطاط (١٣٣) . وثمة شاهد قبر عثر عليه فى اسوان ، جاء به أسم فاطمة ابنة المبارك بن ابى سلمه المعافرى (ت ٢٦٤ هـ) (١٣٤) ، الأمر الذى يجعلنا نرجح أن جماعة من تلك القبيلة اتخذت من اسوان مقرا لها .

---

(١٢٨) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .
(١٢٩) Wiet : Op. Cit, Vol. VII, P. 58.
(١٣٠) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٥٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٢٨ .
(١٣١) Wiet : Op. Cit., Vol. 11, P. 111.
(١٣٢) Wiet : Op. Cit., Vol. VIII, P. 80.
(١٣٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٩٧ .
(١٣٤) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

١١ ــ الصــدف :

تنحدر تلك القبيلة من مالك بن سهل بن عمرو بن قيس بن حمير ، ساهمت في فتح مصر ، واتخذت لها خطة بمدينة الفسطاط (١٣٥) ومن المحتمل أن جماعة منها أقامت في اسوان ، اذ أسفرت الحفريات عن شاهد قبر لا مراة اسمها أنيسة ابنة يوسف بن داود الصدفي المتوفـاة في أسوان عام ٢٧٣هـ (١٣٦) .

١٣ ــ خــزاعة :

تنسب تلك القبيلة الى غبشان الخزاعي الذي كان بيده مفاتيح الكعبة بمكة ، حتى ارتجعها منه قصي بن كلاب عظيم قريش (١٣٩) . وقد وفدت مع جيش عمرو بن العاصي ، واتخذت لها خطة بمدينة الفسطاط (١٤٠) ويبدو أن جماعة من تلك القبيلة اقامت في أسوان ، ويدل على ذلك شاهدين لقبرين مصدرهما الأصلي أسوان ، نقش على الشاهد الاول اسم خديجة ابنة صالح بن مولى سليمان بن فليج بن سليمان بن المغيرة الخزاعيـة المتوفاة حوالي من النصف الاول للقرن الثالث حتى الرابع الهجري ، ونقش على الثاني اسم أبو سراج وقاد بن بلال الخزاعي المتوفي حوالي الفترة من منتصف القرن الثالث حتى الرابع الهجري (١٤١) .

١٤ ــ غــافق :

نزلت تلك القبيلة مصر مع الجيش العربي الفاتح ، واتخذت لها خطة بمدينـة الفسطاط ، وهي تنسب الى غـافق بن الحـارس بن عك بن

(١٣٥) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٩٧ .
(١٣٦) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .
(١٣٧) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٢٩٧ .
(١٣٨) Wiet : Op Cit., Vol. VII, P. 17.
(١٣٩) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ١ ص ٣٥٥ ــ ص ٣٥٦ .
(١٤٠) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٢٩٦ .
(١٤١) Wiet : Op. Cit., Vol. VIII, P. 20; P. 22.

عدنان بن عبد الله بن الأزد (١٤٢) . ومن المحتمل أنها وفدت الى أسوان لأنه تم العثور على شاهد يحمل صاحبه اسم ميمون بمن هرون الغافقى ، ترجع وفاته الى الفترة الممتدة من النصف الأول للقرن الثالث حتى الرابع الهجرى (١٤٣) .

١٥ ــ بنــو جعــد :

بطن من بطون لخم بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد يشجب بن زيد بن كهلان ، سكنوا بلدة أطفيح من صعيد مصر (١٤٤) . ومن المحتمل أن جماعة منهم نزحت جنوبا الى أسوان ، ونستدل على ذلك من شاهد قبر أصله من أسوان ، نقش عليه اســم ميمونة ابنة ســوار مولاة محمــد بن حميد الجعدى المتوفــاة فى سنة ٣٨٥ هـ .

١٦ ــ بنــو أجــدع :

يرجع نسبهم الى مالك بن عمرو بن الاجدع . أصله من بنى الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج ، كانت ديارهم بنواحى نجران من اليمن (١٤٥) . وقد وجد شاهد قبر فى أسوان نقش عليه اسم مضر بن أحمد بن الأجدعى ، يختلف عن غيره من الشواهد التى دفــن أصحابها فى أسوان ، اذ جاء به أن صاحبه قتل شهيدا عام ٣٤٤هـ (١٤٦) .

ومن المرجح أنه قتل فى ذلك العام ، عندما هجم ملك النوبة المسيحى

---

(١٤٢) ابن عبد الحكم : فتــوح مصر والمغرب ص ١٦٦ ، المقريــزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٧ .

(١٤٣) Wiet : Op. Cit., Vol. VII, P. 22.

(١٤٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٣٤ — ص ٣٣٥ .

(١٤٥) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

(١٤٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٦٨ — ص ١٦٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٢٧ .

على ثغر أسوان فى أواخر عهد الدولة الأخشيدية ، وقتل جمعا من المسلمين بها (١٤٧) . وعلى أية حال فان ذلك الشاهد يثبت أن جماعة من بنى أجدع كانوا مستقرين فى أسوان .

واذا كنا قد توصلنا الى معرفة غالبية تلك القبائل ، عن طريق شواهد القبور التى دفن أصحابها فى أسوان ، الا أننا نرجح أن ثمة قبائل قحطانية اخرى سكنت اسوان فى العصور الوسطى ، ولكن الدليل القاطع يقصنا لاثبات أنها أقامت فى أسوان .

ومن تلك القبائل ، قبيلة سعد العشيرة ، وهم سعد العشيرة بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ، وسمى سعد العشيرة بذلك الاسم ، لأنه لم يمت حتى كان عدد أولاده وأحفاده ثلثمائة رجل ، فكان اذا سئل عنهم يقول هؤلاء عشيرتى خوفا من الحسد ،وأشهر بطون تنحدر من سعد العشيرة بنو أوذ بن مصعب ، وبنو جعفى ، وبنو منبه بن صعب (١٤٩) . ونستدل من حروب أبى عبد الرحمن العمرى مع النوبة فى منطقة المريس ، أن بنى سعد العشيرة أقاموا فى اسوان . ففى منتصف القرن الثالث الهجرى ، شب نزاع بين الشاميين — وهم من سعد العشيرة أنصار العمرى — وبين قيس عيلان ، فاتهم الشاميون العمرى بانحيازه لقيس ، وازاء ذلك انتهز ملك

---

(١٤٧) Wiet : Op. Cit., Vol. V, P. 89.

(١٤٨) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٩٧ .

وقد أفادنا شاهد القبر في معرفة تاريخ هجوم ملك النوبة المسيحى على أسوان تعريفا دقيقا ، وهو ما لم نجده في كتب المؤرخين ، اذ حدث يوم الجمعة ١٤ ذى القعدة سنة ٣٤٤ هـ . وفي رأينا أن ذلك الشاهد يعد نادرا ، لأن ما نقش عليه مغاير لما ألفناه في الشواهد العديدة التى عثر عليها في جبانة أسوان ونصه كالآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما أتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون » . قتل مضر بن أحمد ابن الاجدعى يوم الجمعة لأربع عشر ليلة خلت من ذى القعدة سنة أربع وأربعين وثلثمائة .

(١٤٩) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٢٦ — ص ٣٢٧ .

النوبة الفرصة ، فاستمال الشاميين اليه ، ورد اليهم أراضيهم التى استولى عليها من قبل ، ولم يكتف بذلك ، بل اقطعهم دون الجنادل الأولى من منطقة المريس فى قرية ادندان وما يليها : وخشى العمرى مغبة ذلك التحالف ، فأرسل للشاميين يدعوهم للصلح ، فأقبلوا عليه ، بيد انه أوقع بهم ، وقتل منهم الف وخمسمائة (١٥٠) .

وتعد قبيلة بلى التى تنسب الى بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة (١٥١) من أشهر القبائل القحطانية التى هاجرت الى مصر . فقد نزلت لأول مرة مع عمرو بن العاص — أم أبيه بلوية — ، ووقفت عن يمين رايته خلال معارك الفتح ، ثم اتخذت لها خطة بمدينة الفسطاط (١٥٢) . وفى عهد عمر بن الخطاب وفدت أعداد هائلة منها الى مصر ، وتفرقت فى انحائها ، وأقام فريق ببلاد الصعيد على ضفتى النيل ، امتدت منازله على الضفة الغربية من سوهاج شمالا الى غرب قمولة (بمحافظة قنا) جنوبا ، وعلى الضفة الشرقية من عقبة فاو الخراب شمالا الى عيذاب جنوبا (١٥٣) . وفى زمن القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) كانت بقايا بلى تعيش فى الصعيد الأعلى (١٥٤) . وازاء ذلك كله ، لا يبعد أن جماعة من بلى سكنت أسوان فى العصور الوسطى .

وفى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى أشارت المراجع المعاصرة الى وجود قبيلة بهراء القحطانية التى نجهل تفاصيل احداثها فى مصر قبل ذلك . وكل ما نعلمه عن تلك القبيلة ما قاله القلقشندى (١٥٥) : « بنو بهراء ، بن

---

(١٥٠) المقريزى : المقفى ص ١٣ — ص ١٤ .
(١٥١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٦ .
(١٥٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٦١ .
(١٥٣) المقريزى : البيان والاعراب ص ٢٩ — ص ٣٠ .
(١٥٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٦ .
(١٥٥) صبح الأعشى : ج ١ ص ٣١٧ .

عمرو بن الحاف بن قضاعة ... قال فى العبر : وكانت منازلهم شمالى منازل بلى ، من الينبع الى عقبة ايلة ، ثم جاور بحر القلزم منهم خلق كثير ، وانتشروا ما بين بلاد الحبشة وصعيد مصر ، وكثروا هناك ، وغلبوا على بلاد النوبة ، وهم يحاربون الحبشة الى الآن (اى فى عهد ابن خلدون ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) » . ومن المحتمل أن عددا من بنى بهراء كان يقيم فى أسوان ، قبل القرن الخامس عشر الميلادى .

وهكذا نستطيع أن نؤكد بأن العروبة انتقلت الى اسوان منذ الفتح العربى انتقالا مستمرا . فقد اندفعت القبائل العربية وبطونها الى تلك المدينة ، حاملة معها الدماء العربية واللغة العربية والدين الاسلامى . واذا كانت تلك القبائل قد فرضت فى أول لأمر نوعا من النفوذ والسيادة على الجنسيات الأخرى التى تألف منها التركيب الاجتماعى فى أسوان ، الا أننا لم نسمع عن اى تنازع عصبى حدث بين العدنانيين والقحطانيين مثلما حدثة فى انحاء أخرى من الدولة الاسلامية . وثمة تطور اجتماعى شهدته أسوان اثر نزول القبائل العربية بها ، ذلك أن تلك القبائل أورثت أسوان النظام القبلى ، فصار فيها شيئا عريقا . ومازال ذلك النظام ضاربا بجذوره فى التركيب الاجتماعى . ويمكننا القول ان أسوان بوصفها بيئة شبه صحراوية فى بعض مناطق يغلب عليها البداوة ، من العوامل التى ساعدت على بقاء الشكل القبلى ، خاصة فى قراها .

* * *

ولم يقتصر التركيب الاجتماعى فى مدينة اسوان على تيار الهجرة المستمر للقبائل العدنانية والقحطانية ، بل تسرب اليها هجرات فردية لأشخاص من خارج مصر . وقد تضافرت عدة أسباب جعلت من أسوان مستودعا هائلا لاستقبال هجرات فردية على مسار القرون . منها موقع أسوان التجارى الأمر الذى يهيىء سبل الرزق ، كما انها كانت منفذا للراغبين

فى المعادن النفيسة بأراضى المعدن فى الصحراء الشرقية ، فضلا عن أنها أحد الطرق الرئيسية التى يسلكها الحجاج الى بيت الله الحرام . وربما يكون السبب اختيارها ملجأ أمينا للفارين من الضغط السياسى . وشواهد القبور التى عثر عليها تشير الى كثرة الوافدين الى أسوان فى صورة هجرات فردية، فعلى تلك الشواهد نقرأ نقوشا لأسماء ينتمى أصحابها الى أوطنهم التى أتوا منها مثل المغرب ، والكوفة ، وبغداد ، والبصرة ، والأندلس ، وفاراب ، ومكة ، والمدينة ، وعكا ، واليمن ، وحضرموت ، والموصل ، وخراسان ، وفارس ، وغيرها من المدن الاسلامية . فعلى سبيل المثال لا الحصر : مرزوق ابن عبد الحميد بن محمود المغربى (ت ٣٨٣ هـ) ، ومحمد بن ريان بن سعيد المغربى (ت ٢٠٨ هـ) ، وعباس بن عبد الله مولى عبد الرحمن بن الحسين ابن محمد بن عبد الله بن سعيد نزار النقعى الكوفى (ت ٢٢٧ هـ) ، ومنى ابنة حسين بن أبى بكر بن محمد بن عمر البغدادى (ت ٣٥٢ هـ) ، وحارث ابن ابراهيم الفارابى (ت ٢٧٨ هـ) ، ومرزوق بن حسن مولى الفضل بن سليمان بن الفضل بن الحسن بن جعفر الفـــاسى المتوفى فى أوائل القرن الخامس للهجرة (١٥٦) ، وخديجة ابنة جعفر بن جديد بن حسن البغدادى (ت ٣٨١ هـ) ، وزينب ابنة عيسى المدنى (ت ٣١٦ هـ) (١٥٧) ، وحـــارث ابن ابراهيم الفارابى (ت ٢٧٨ هـ) ، وسيدة ابنة عبد السلام الحضرمى (ت ٢٩٤ هـ) ، وابراهيم بن أبى الحسن الخراسانى (ت ٣٠٩ هـ) (١٥٨) ، وخليدة ابنة خالد البصرية المتوفاة فى الفترة بين نهاية القرن الثانى والثامن للهجرة (١٥٩) وعبادة بن الحسن الأندلسى المتوفى فى الفترة التى تمتد من منتصف القرن الثالث الهجرى حتى الرابع للهجرة (١٦٠) ، واسحق بن يزيد بن عبيده

---

(١٥٦) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

(١٥٧) Wiet : Op. Cit., Vol. V, P. 189; P. 2.

(١٥٨) Wiet : Op. Cit., Vol. IV, P. 48; P. 119; P. 164

(١٥٩) Wiet : Op. Cit., Vol. VIII, P. PP. 35-36

(١٦٠) Wiet : Op. Cit., Vol. VII, P. 42

العكى (ت ٢٢٤ هـ) ، وجابر بن عقبة اليمنى (ت ٢٥٥ هـ) (١٦١) ، وعلى ابن محمد بن مزاحم بن بشير الموصلى (ت ٤٠١ هـ) (١٦٢) .

وفى اعتقادنا أن تلك الهجرات الفردية ، لم يكن لها شأن يذكر فى أسوان لأنها لم تعتمد على عصبية قبلية تحفظ لها كيانها ، مما أدى الى ذوبانها ذوبانا كاملا فى العناصر السكانية الموجودة .

والى جانب ذلك حدثت هجرات داخلية لأسوان ، ونقصد بذلك نزوح افراد من مختلف المدن فى مصر الاسلامية الى تلك المدينة حيث أتخذوها مقرا ومعاشا لهم . وان دل ذلك على شىء فانما يدل على صلابة ابناء الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى . وقد عثر على شواهد قبور فى مدافن أسوان لأشخاص ليسوا من أهلها ، ونسبوا الى مساقط رؤوسهم التى ولدوا فيها ، سواء هم أم آبائهم . وممن نشير اليهم فى هذا الصدد : موسى بن عبد الله الفرابو الواحى (ت ٢٤٤ هـ) (١٦٣) ، وأبو الحسن القسم بن عبد الله البلاقى (ت ٢٦١ هـ) ، ومحمود بن محمد الحوفى (ت ٢٦٥ هـ) ، ويعقوب بن سندر من طلا من كورة أهناس (ت ٢٧١ هـ) (١٦٤) ، ورملة أم ولد عبد الوارث بن يعقوب بن هارون الفيومى (ت ٢٩٣ هـ) (١٦٥) ، وموسى بن هارون الفسطاطى (ت ٢٦٥ هـ) ، وأسماء ابنة حسن بن محمد بن أحمد الطرانى (ت ٤٢٠ هـ) (١٦٦) الخ ...

* * *

(١٦١) Hawary et Rached : Op. Cit., Vol. 1, P. 131; Vol. III, P. 50

(١٦٢) Wiet : Op Cit., Vol. VI, P. 35.

(١٦٣) Wiet : Op. Cit., Vol. II, P. 53

(١٦٤) Hawary et Rached : Op. Cit., Vol III, P. 109; P. 140; P. 193

(١٦٥) Wiet : Op. Cit., Vol. IV, P. 114.

(١٦٦) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

ومن العناصر السكانية التى احتوتها اسوان فى العصور الوسطى ، طبقة الموالى . والموالى ـ كما نعلم ـ هم المسلمون من غير العرب . وقد عرفت مصر الموالى منذ الفتح العربى لمصر ، ففى جيش عمرو بن العاص كان الفرس فى المقدمة ، وبعد أن تم الفتح اتخذوا لهم خطة بمدينة الفسطاط مثلما فعلت القبائل العربية (١٦٧) . ولاريب ان القبائل العربية التى وفدت الى مصر تباعا فى القرون الاسلامية الأولى ، أتى فى ركابها عديد من الموالى ممن ينتمون بالولاء لهم . وفى جبانة أسوان عثر على شواهد قبور عديدة ، يرجع اصحابها الى طبقة الموالى ، عاشت فى كنف القبائل العربيـــة التى استطابت أســـوان . وممن نشـــير اليهـــم على ســـبيل المثال : طائفيـــة جارية امية بن ميمون (ت ٢٠٥ هـ) (١٦٨) ، وكتمان جارية محمد بن موسى ابن هرون بن بـــلال (ت ٢٤٣ هـ) (١٦٩) ، وحسن بن على بن يحى مولى النبى عليه الصلاة والسلام (ت ٣٠٧ هـ) (١٧٠) ، وعائشة ابنة بشارة مولى محمد بن على بن محمد بن شريك الحنفى (ت ٤٠١ هـ) ، وعمر بن يوسف مولى على بن ابى طـــالب (ت ٤١٨ هـ) ، وكريمة ابنـــة أحمـــد المعـــروف بقسطنطين مولى هبة الله بن محمد بن على بن محمـــد بن أبى يزيد الحنفى (ت ٤١٩ هـ) (١٧١) .

ويدخل فى التركيب الاجتماعى لاسوان فى العصور الوسطى ، قبائل البشارية والعبابدة . وحتى يمكننا الوقوف على الأصل الذى انحدرت منه تلك القبائل ، فان الامر يلزم أن نتحدث بايجاز عن شعوب البجة . فالعرب قد اختلطوا بتلك الشعوب مما أدى الى ظهور سلالات جديدة .

---

(١٦٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٧١ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٩٧ .

(١٦٨) Hawary et Rached : Op. Cit., Vol. 1, P. 45.

(١٦٩) Wiet : Op. Cit., Vol. II, P. 31.

(١٧٠) Wiet : Op. Cit., Vol. X, P. 19.

(١٧١) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

من المعروف أن البجة من الشعوب الحامية التى تسكن الصحراء الشرقية جنوبى مصر ، وتمتد أوطانهم الحالية فى منطقة تصل الى اسوان شمالا والى الاطراف الشمالية لهضبة الحبشة جنوبا ، ومن البحر الاحمر فى الشرق الى النيل الاعظم ونهر عطبرة فى الغرب ، وتمثل تلك الأرض الوطن الاصلى لشعوب البجة (١٧٢) . ومن المشاهد أن البجة اذا تنقلوا شمالا أو غربا ، فان ذلك التنقل كان مؤقتا ، اذ سرعان ما يعودون الى أماكنهم الاصلية (١٧٣) . ولعل اختلاف التضاريس فى مواطن البجة من العوامل الطبيعية التى اثرت فيها ، فيغلب عليها قلة المطر بوجه عام ، وفى الشمال تسود الطبيعة الصحراوية ، وان كانت لا تخلو من جهات يغزر نباتها فى بعض فصول السنة ، ويتنوع فيها نزول المطر بين الصيف والشتاء ، وعلى أية حال ، فالبيئة قاسية فى جملتها ، ولكنها أقل مما يتصوره الانسان (١٧٤) .

ومما لا شك فيه أن شعوب البجة ، من أقدم العناصر التى سكنت وادي النيل . وقد أتفقت أراء الباحثين على أن أسلاف البجة من الحاميين الذين عبروا البحر الاحمر ، فى عصور بعيدة فى القدم ، وسكنوا الاماكن التى تعيشها سلالتهم فى الوقت الحالى ، ويرى سلجمان أن أسلاف البجة يمثلون الصفات التى عرفت فى مصر منذ عهود ما قبل الأسرات أصدق تمثيل (١٧٥) . ويقسم بول شعوب البجة الى مجموعتين رئيسيتين : احداهما جنوبية حافظت على نقاء جنسها الحامى ، لقلة اختلاطها بالعناصر السامية ، بيد أنها اخذت عن الساميين لغتهم ، ويمثل هؤلاء غالبية بنى عامر ، وثانيتها شمالية ، وهى أقل نقاء ، بسبب احتكاكها بالقبائل العربية التى وصلت الى مصر منذ الفتح العربى وتحركت جنوبا فى الصعيد ، وقد أدى هذ

---

(١٧٢) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ص ٢٤٦ ، عباس عمار وحدة وادى النيل ، أسسها الجغرافية ومظاهرها في التاريخ ص ١٢ .

(١٧٣) مصطفى مسعد : البجة والعرب في العصور الوسطى ص ١ .

(١٧٤) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ص ٢٤٦ — ص ٢٤٩ .

(١٧٥) عباس عمار : وحدة وادى النيل ص ١٢ ، مصطفى مسعد : البجة والعرب ص ٢ — ٣ .

الاحتكاك الى لون من الاختلاط والتأثير ، غير انها متمسكة بمظاهر العادات والتقاليد واللغة الحامية ، وافرادها على علم باللغة العربية ؛ ويمثل هؤلاء بقية البجة (١٧٦) .

وقد حاول الباحثون الربط بين قبائل البليميين Blemmyes البدوية وبين قبائل البجة ، فالاولى كانت تعيش مبعثرة فى الصحراء الشرقية بين مصر والحبشة والبحر الاحمر ، وهى الاراضى التى تشغلها قبائل البجة حاليا (١٧٧) . ومع أن التشابه شديد بين البليميين والبجة ، الا أنه ينقصنا الدليل القاطع لنبرهن على أنهما شعب واحد (١٧٨) . ويؤلف البجة فى الوقت الحاضر ، قبائل البشاريين ، والعبابدة ، والهدندوة ، وبنى عامر ، ويرى سيلجمان أن بنى عامر هم السلالة الحقيقية للبجة ، فالبشاريون يتميزون بالجبهة المستديرة ، أما بنى عامر فجبهتهم أقل استدارة ، وتتفق سماتهم مع سمات البجة الاصليين سكان الصحراء الشرقية ، ولكن كيروان Kirwan يعترض على ذلك الرأى مدللا أن اسم « بنو عامر » اسم عربى صريح (١٧٩) . وعلى أية حال ، فان التوزيع الواسع للبليميين أو البجة فى العصور القديمة والحديثة ، فضلا عن حياتهم الرعوية ، وفروعهم العديدة ، كل ذلك من الاسباب التى أوجدت تناقضا بعيدا فى روايات المؤرخين القدامى والجغرافيين العرب (١٨٠) .

وأهم فروع البجة التى تهمنا فى وصف البناء الاجتماعى لاسوان فى العصور الوسطى هما البشاريون (البشارية) والعبابدة . وفى الوقت الحالى ، يحتل البشاريون النصف الشمالى من أوطان البجة ، متوغلين من

---

(١٧٦) عباس عمار : وحدة وادى النيل ص ١٢ ، مصطفى مسعد : البجة والعرب ص ٣ .

(١٧٧) Kirwan : Studies in the later History of Nubia, P. 69.

(١٧٨) Ibid.

(١٧٩) Kirwan : Studies in the later Hist. if Nbia, P. 74

جهة الشمال داخل مصر ، وممتدين فى الجنوب الى سهل البطانة ، فى مساحة تقرب من ٥٠٠٫٠٠٠ ميل مربع ، منها جهات تشرف على البحر الاحمر ، ومنها ما يتصل بأقليم اسوان ، واخرى تبلغ العطبرة (١٨١) . والقبائل البشارية التى تتصل بمصر اتصالا وثيقا ، خاصة اسوان ، هى من الشمال الى الجنوب : العلياب والحمد وراب والشنتيراب والعمراب (١٨٢) . فالعلياب مستقرون بالقرب من أسوان ، والحمد وراب يعيشون على مقربة من دراو ، والسوق الطبيعية للتبيلتين هى أسواق أسوان ودراو ، وأهم سلعة يبيعونها الابل والاغنام وبعض من الفحم النباتى (١٨٣) . ويعيش الشنتيراب فى عزلة بين التلال ، ويعتبرون اشد القبائل البشارية خشونة وفظاظة ، لانهم لا يتحركون ولا ينتقلون من جبالهم ، ويمتلكون قطعانا هائلة من الاغنام وابل ليست من النوع الممتاز (١٨٤) . أما العمراب ، فهم اقل بداوة من القبائل الاخرى ، يعيشون فى مواطن مجدبة ، حول كوم عونيب ، لذلك دأبوا على التنقل كثيرا ، وتصل تنقلاتهم الى ساحل البحر الاحمر ونهر النيل وجنوبا حتى بربر التى يرتادونها أحيانا ، وقليلا ما يصلون الى عطبرة ، وتمثل أسوان السوق الطبيعية للعمراب ، واهم سلعة يتجهون بها الجلود المدبوغة (١٨٥) .

ولا ندرى ما هو أصل كلمة البشاريين أو البشارية ، ففى الواقع أن تلك الكلمة يشوبها الغموض . ويرى بعض الباحثين أن البشارية يرجعون نسبهم الى رجل يقال له بشر بن مروان بن اسحق ، نزح الى أرض البجة فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، ومعه ثلاثون ألف رجل من الحدارب ، وهم فرع آخر من البجة كانوا وثنيين ثم اعتنقوا الدين الإسلامى

---

(١٨١) محمد عوض : السودان الشمالى ص ٦٢ .

(١٨٢) Sanders : The Bisharin (S.N.R Vol. XVI. P. 145)

(١٨٣) Ibid.

(١٨٤) Sanders : The Bisharin (S.N.R. Vol. XVI, P. 146)

(١٨٥) Ibid.

في عهد منكر (١٨٦)... ومن الواضح أن ذلك الرأى يستند الى رواية المسعودى فى مروج الذهب ومعادن الجوهر (١٨٧) ، فقد جاء بها :.« وسكن فى تلك الديار (أرض البجة) خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، فاشتدت شوكتهم وتزوجوا فى البجة ، فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة ، وقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار ممن سكن تلك الديار ، وصاحب المعدن فى وقتنا هذا — وهو سنة ٣٣٢ هـ — أبو مروان بشر بن اسحاق ، وهو من ربيعة ، يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين الف حراب على النجب من البجة والحجف البجاوية ، وهم الحداربة ، وهم المسلمون من بين سائر البجة » . وفى تصورنا أن البشارية لا ينتسبون الى ذلك الرجل الذى يحمل اسم أبو مروان بشر بن اسحاق فنسبة البشارى — مفرد البشاريون أو البشارية — الى بشر مصطنعة ، ففى اللغة صحة النسبة الى بشر هى البشرى وليس البشارى ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، فان من بين شواهد القبور التى عثر عليها فى جبانة أسوان ، وجد شاهد يحمل اسم البشارى ، نورد نصه كاملا لأهميته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، ان أعظم مصائب أهل الاسلام مصيبتهم بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم . هذا قبر أم سلمة ابنة محمد بن الحسن بن سليمان البشارى ، توفيت فى جمادى الأولى سنة ٤٠٣ هـ » (١٨٨) . فاذا أخذنا فى الاعتبار أن سليمان البشارى الذى يمثل الجد الأعلى لأم سلمة ، ينتسب الى قبائل البشارية ، فان الأمر يقتضى بنا التسليم ان اسم البشارية سابق لأبى مروان بشر بن اسحاق . وبعبارة أخرى نستطيع القول أن سليمان البشارى كان حيا فى منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) .

---

(١٨٦) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ٢٢٠ ، دائرة المعارف الاسلامية : مقالة البشارية .

(١٨٧) جـ ٣ ص ١٨ .

(١٨٨) حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

كما يرى بعض الباحثين ، أنه من الجائز أن يكون للبشارية صـلة فى الانتساب الى بنى كاهل ، اذ ليس من الصعب التصور أن بعض الأمراء من بنى كاهل أصهروا الى البجة ، ثم ورث الرئاسة فيهم ، ومن المحتمل — كما أضاف — أن أولئك البجة ممن اختلطوا ببنى بشر بن مروان من ربيعة فى القرن العاشر الميلادى (١٨٩) . ولا يسعنا ازاء ذلك الرأى الا القول أيضا ، أن اسم البشارية عرف فى فترة سبقت القرن العاشر الميلادى .

ويرى الدكتور محمد عوض محمد أن البشاريين يزعمون أن جدهم كاهل، الذى يرجعون نسبه الى الزبير بن العوام ، ويقولون أيضا أن أجدادهم كانوا يعيشون فى جبل علبة الواقع على بعد عشرة أميال الى الغرب من عيذاب ، ويتفق مع البشـــاريين فى ذلك الزعم الكواهلة فى كردفان ، كمـــا يتفقون مع البشارية فى أن جدهم كاهل كان له ثلاثة عشر ولدا من الذكور من بينهم من يدعى بشار (١٩٠) . ويضيف الدكتور محمد عوض قائلا : « ومع بعد الشقة بين القبيلتين البجاوية (البشارية) والعربية (كاهل) لا شك أن هذا الاتفاق له مغزاه » ، واذا كان على ما يبدو أن العناصر العربية التى ينتمى أغلبها الى ربيعه ، تم توغلها فى بلاد البجة فى القرن العاشر الميلادى ، فقد أصهر العرب الى بعض البجة ، ومع أن المؤرخين العرب قد تحدثوا عن أهم قبائل البجة التى كان من بينها الحدارب أو الحداربة ، فان اسم البشاريون لم يكن له وجود (١٩١) . وفى تصور الدكتور محمد عوض أن بعض الأمراء من العرب قد أصهر الى بعض البجة ، ومن المرجح أن الذين أصهروا الى البجة على هذه الصورة كانوا فعلا ينتمون الى بنى كاهل ، والى أحد أبنائه المسمى بشار أو بشارة لشتق اسم البشاريين (١٩٢) .

---

(١٨٩) مصطفى مسعد : البجة والعرب ص ٥٢٠ .

(١٩٠) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ص ٦٩ .

(١٩١) المرجع السابق ، ص ٦٩ — ص ٧٠ .

(١٩٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ص ٧٠ .

ويبدو أن هذا الرأى أقرب الآراء الى الصواب ، وان كان يحتاج الى القاء بعض الضوء عليه . فكما نعلم أن قبيلة ربيعة باليمامة نزحت الى مصر فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، تحت ضغط بنى الأخيضر ، ثم سارت جنوبا الى أسوان ، ومن ثم الى أوطان البجة بغية الحصول على معدن الذهب . ولا ريب أن قبائل أخرى دخلت أرض المعدن مع ربيعة ، وليس ببعيد أن قبيلة الكواهلة كانت من بينها ، خاصة اذا علمنا مدى صلة القرابة الوثيقة بين ربيعة وكاهل ، فبنى ربيعة من نسل بنى حنيفة بن لجيم وأم حذيفة هى صفية بنت كاهل بن أسد بن خزيمة (١٩٣) . ومن المحتمل أن من بين زعماء بنى كاهل رجل يسمى بشار أو بشارة ، شق طريقه الى بلاد البجة ، وهناك أسس امارة هى التى تنتمى اليها قبائل البشارية . اذا فالشقة ليست ببعيدة بين القبيلتين البجاوية (البشارية) والعربية (كاهل) . ومما يؤيد ذلك الرأى ما ذكرناه من قبل أن سليمان البشارى كان حيا فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وهى الفترة التى تتفق مع نزوح ربيعة وبعض القبائل الأخرى الى أسوان ، ثم بلاد البجة .

أما الفرع الثانى الذى ينحدر من قبائل البجة ، فهم العبابدة الذين يعيشون فى أسوان وقراها . ويزعم العبابدة أنهم ينتمون الى الزبير بن العوام، أحد القواد الأربعة ممن أرسلهم عمر بن الخطاب نجدة لعمرو بن العاص خلال معارك الفتح (١٩٤) . ويبدو أن اسم العبابدة مشتق من سلفهم عياد الذى اختفى من صفحة التاريخ . ولكن اسمه ظل باقيا فى وادى عباد المواجه لمدينة أدفو من الشرق (١٩٥) .

ويسكن العبابدة فى الصحراء الجنوبية الشرقية ، وتحتل أوطانهم معظم

---

(١٩٤) المقريزى : البيان والاعراب ص ١٦٣ .

(١٩٥) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ١ ص ٥٠ ، سعاد ماهر : محافظات الجمهورية ص ١٨٠ .

تلك الصحراء جنوب خط يصل بين سفاجة وقنا شمالا ، والبحر الأحمر شرقا ، ووادى النيل غربا ، والحدود الادارية لمصر جنوبا ، ولهم امتداد آخر فى السودان على طول طريق القوافل القديمة بين بربر ودراو وأبو حمد وكورسكو (١٩٦) . وقد استقرت جماعات عديدة من العبابدة فى داخل الوادى شرقى وغربى النيل ، وفى هامش الوادى فى النطاقات التى تسمى بالحواجر ، وهى مناطق الانتقال بين الهضبة الصحراوية والوادى المزروع ، وتطل حافة الهضبة على الوادى مباشرة ، ولهذا نركز العبابدة فى قنا وقوص والأقصر وأرمنت شرقى النيل بوجه خاص ، وفى اسنا وأدفو وكوم أمبو شرقى وغربى النيل ، وفى أسوان وبلاد النوبة شرقى النيل (١٩٧) .

وينقسم العبابدة الى أربع بطون تعرف بالعمائر أو البدنات ، وهى العشاباب الذين ينتشرون فى الصحراء بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم أسوان ، والمليكاب بن دراو وبربر ومركز شيخهم دراو ، والفقراء وهم متفرقون فى شرقى النيل وغربيه بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم قرية الرمادى (على الضفة الغربية للنيل جنوبى أدفو) ، والعبوديين يقيمون شرقى النيل بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم السيالة شمالى كورسكو (١٩٨) .

وقد اشتغل العبابدة فى العصور الوسطى أدلة للقوافل التى تعبر الصحراء الشرقية ، ومن الملاحظ ان نشاطهم فى تلك المهنة امتد فى ثلاث طرق تجارية ، الطريق الأول من قوص الى عيذاب ، والثانى المتجه الى النوبة واعالى النيل والحبشة بحذاء ضفاف النيل ، وهذان الطريقان كانا شائعى الاستعمال فى العصور الوسطى (١٩٩) . أما الطريق الثالث فيبدأ من قنا

(١٩٦) Vollers : Ency. of Islam. Art. A babde.

(١٩٧) محمد رياض : العبابدة دراسة في الاقتصاد الصحراوى ص ١٠١ .

(١٩٨) نفس المرجع والمكان .

(١٩٩) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ١ ص ٥٠ ، سعاد ماهر محافظات الجمهورية ص ١٨٠ .

Vollér : Ency. of Islam. Art. Ababde.

وينتهى الى القصير ، بيد أنه استخدم فى العصور الحديثة (٢٠٠) . وللعبابدة تجارة واسعة فى الابل والسنامكى وفحم السنط المستخرج من الأشجار المنتشرة فى جبال الصحراء الشرقية ، يأتون بها الى أسواق أسوان ودراو ، ويرجعون الى صحرائهم بالغلال وبعض السلع الأخرى (٢٠١) . وفى وادى النيل استقر عدد كبير من العبابدة فى القرى ، وتمرسوا على الزراعة (٢٠٢) .

ويرى بعض الباحثين أن قبائل العبابدة والبشارية قد احتفظوا بلغتهم الحامية التى تسمى تبداوى أو بداويت ، وهى للمخاطبة فقط ولا تكتب ، احتفظوا بها على الرغم من معرفتهم اللغة العربية ، كما أنهم تأثروا الى حد كبير بالثقافة العربية التى ظهرت نتائجها واضحة فى حياتهم الاجتماعية مع الاحتفاظ ببعض عاداتهم التى نشأت معهم ، أو التى اقتبسوها من قدماء المصريين (٢٠٣) . وأود أن أضيف الى ذلك ، أن العبابدة والبشارية ممن يقطنون الجبال والأودية المطلة على أسوان هم وحدهم الذين احتفظوا بلغتهم الحامية . أما أولئك الذين استقروا فى أرض أسوان وقراها ، جنبا الى جنب مع القبائل العربية ، فقد نسوا لغتهم الحامية وتقاليدهم الاجتماعية القديمة .

* * *

ومن العناصر السكانية التى عرفتها أسوان فى العصور الوسطى ، النوبيون . والنوبيون كما هو معروف ، شعب قديم عاش على ضفاف النيل جنوبى أسوان ، لهم لغتهم الخاصة ، وثقافتهم الخاصة المستمدة من مصر ، بحكم الصلات الأزلية التى تربط بين مصر والسودان ، أخلدها بطبيعة الحال نهر النيل العظيم .

---

(٢٠١) Ibid.

(٢٠٢) نعوم شقير : تاريخ السودان ج ١ ص ٥٠ ، رحلات بوركهارت ص ١٢٩ .

(٢٠٣) Klunzinger : Upper Egypt., P. 254.

(٢٠٤) عباس عمار : وحدة وادى النيل ص ١٢ ، سعاد ماهر : محافظات الجمهورية ص ١٨١ .

ومنذ الفتح العربى لمصر ، بدأت الصلات بين مصر الاسلامية وبين النوبة المسيحية تزداد شدة وعمقا . وتلك ظاهرة ينفرد بها تاريخ مصر والسودان ، فما يحدث فى مصر ، نجد صداه فى النوبة . والدليل على ذلك أن الصراع بين مصر الاسلامية وبين مملكة النوبة المسيحية ، انتهى بسقوط الأخيرة فى القرن الرابع عشر الميلادى .

وقد رأينا من قبل ، أن قبيلة ربيعة التى اشتهرت بقبيلة الكنز ، نقلت الدماء العربية الى النوبيين فى منطقة النوبة الشمالية ، وصـــارت سلالتهم تعرف فى الوقت الحالى بالكنوز . غير أن الدماء العربية لم تتسرب الى جميع النوبيين ، فمن ظل على نقاوته يعرف حاليا بالفديجا ، تمييزا لهم عن الكنوز الذين يوصفون حاليا بالمـــاتوكى ، وهى تعنى فى اللغة النوبية « الذين جاءوا من الشرق » . ومنطقة النوبيين الخلص كانت تمتد من كيلو ١٨٣ جنوب أسوان حتى حوالى كيلو ٣٥٠ جنوبا أى حتى التقاء حدود مصر بجمهورية السودان ، وتبدأ القرى التى كانوا يسكنونها بقرية كورسكو فى الشمال وتنتهى بقريتى بلانة وأدندان فى الجنوب (٢٠٤) .

وعلى اية حال ، فان النوبيين الذين اختلطوا بالدماء العربية أو الذين ظلوا على نقاوتهم ، كانوا من العناصر السكانية التى تألفت منها أسوان فى العصور الوسطى . وقد عثر على شواهد قبور فى جبانة أســوان ، يرجع تاريخها الى القرون الاسلامية الأولى ، يحمل أصحابها أسماء عربية مسلمة تنتهى بكلمة النوبى ، فعلى سبيل المثال : آمنة ابنة مهدى بن يحيى النوبى (ت ٢٥٥ هـ) ، كامل موسى النوبى (ت ٢٥٨ هـ) ، ابو بكر أحمد بن عمرو النوبى (ت ٢٦٥ هـ) (٢٠٥) ، وحنة ابنة كامل النوبى (ت ٢٧٢ هـ) ، ويوسف ابن يعقوب بن ســلام النوبى (ت ٢٩٠ هـ) وزبيـــدة ابنـــة جابر النوبى

---

(٢٠٥) محافظة أســوان .

(٢٠٦) Hawary et Rached : Op. Cit., Vol. III, P. 51; P. 81; P. 139

(ت ٣٠٧ هـ) (٢٠٦) ، وام الحبيب ابنة محمد بن على بن أحمد النوبى (ت ٤٠٣ هـ) ، وعبد الله بن أحمد بن ابراهيم بن سعيد النوبى (ت ٤٥٣ هـ) (٢٠٧) .

* * *

واشتمل أيضا البناء الاجتماعى لأسوان زمن العصور الوسطى ، على جماعات قليلة من التكاررة (التكارنة) ، اتت من السودان الغربى من فلاتة وبرنو وباجرمى وغيرهم . ومن المعروف أن كلمة التكاررة تنسب الى بلاد التكرور ، غير أن الرحالة بوركهارت خرج برأى جديد مؤداه أن اسم التكاررة لا يرجع الى بلاد التكرور كما يتبادر الى الأذهان ، فضلا عما جاء فى كتابات الجغرافيين العرب ، بل ذكر أن كلمة تكرور مشتقة من الفعل تكرر (أى تتقى) بمعنى أن مشاعر التكاررة الدينية تنقت وتطهرت بحفظ القرآن وأداء فريضة الحج (٢٠٨) . ومما ذكره بوركهارت أيضا أن اسم التكاررة يطلق على جميع الزنوج القادمين من غرب السودان — على اختلاف أوطانهم — طلبا للعلم أو سعيا الى بيت الله الحرام وقد قابل بوركهارت أثناء رحلته الى بلاد النوبه والسودان كثيرا من هؤلاء الزنوج ، أكدوا له أنهم لم يسمعوا باسم التكاررة (٢٠٩) . واغلب التكاررة الذين قابلهم بوركهارت فقراء ، لا يملك أغلبهم شروى نقير ، يخرجون فى رحلات الى مكة المكرمة لقضاء فريضة الحج ، ثم يعودون الى أوطانهم ، ولا مورد لهم الا ما يجود به الخيرون (٢١٠) . وقد دأب التكاررة الموسرون على ملازمة الحجاج المصريين ، أما الفقراء منهم فيجتازوا الطريق النيلى حتى يصلوا مشارف مصر من ناحية الجنوب ، فيمكثون

---

(٢٠٧) Wiet : Op. Cit., Vol. IV, P.4; P. 100; P. 156

(٢٠٨) Wiet : Op. Cit., Vol. VI, P. 38; P. 156.

(٢٠٩) رحلات بوركهارت ، ص ٣٢١ .

(٢١٠) رحلات بوركهارت ، ص ٣٢١ .

(٢١١) نفس المرجع ص ٣٢٢ .

أياما بقرى الصعيد ، حيث الأروقة التى ينفق عليها من اموال المساجد لاستضافة التكاررة المارين بها ، ويحاول البعض منهم كسب بعض المال بالعمل اليدوى كى يستطيع الانفاق منه فى طريقه الى الحج (٢١١) . ولا ريب أن التكاررة فى العصور الوسطى اتخذوا من أسوان طريقا لأداء فريضة الحج ، مثلما فعلوا فى العصور الحديثة ، خاصة اذا علمنا أن أسوان كانت محطة رئيسية للحجيج يبدأون منها رحلة الحج عبر الصحراء الشرقية الى عيذاب ، ومنها الى مكة . ومن المحتمل أن افراد من التكاررة توقفوا فى أسوان خلال ذهابهم وعودتهم من الحجاز مفضلين الاقامة الدائمة فيها ، حيث سبل العيش متوفرة .

ويدخل فى التركيب الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى ، طبقة العبيد التى تنتمى الى الجنس الزنجى . وقد شاعت تلك الطبقة من الرقيق فى المجتمع الاسلامى فى العصور الوسطى ، ولاقت تجارتها رواجا واسعا لشدة الحاجة اليها . وقد عرفنا من قبل أن تجارة الرقيق كانت بعد اجتيازها أسوان تتوزع فى اسواق مصر والعالم الاسلامى . ويبدو أن العرب فى أسوان قد استخدموا الرقيق الزنجى فى الأعمال المهنية الشاقة . مثل الزراعة التى احتقرها العرب فى بدء تواجدهم فى مصر . أما نساء ذلك النوع من الرقيق فقد استخدمن فى خدمة المنازل بالاضافة الى عملهن كمرضعات وحاضنات . والتركيب الطبقى الزنجى ظل فى أسوان العصور الوسطى مكا هو ، فلم يختلط مع اى عصر آخر ، مما أدى الى عدم تطور سلالته . ولازالت البقايا — التى تصل الى منتهى الضآلة — من تلك السلالة موجودة فى أسوان وقراها .

* * *

وفى أواخر العصور الوسطى ، ظهرت عناصر سكانية لم يكن لها وجود من قبل فى البناء الاجتماعى لأسوان ، وهم : المهاجرون والمماليك والأتراك .

---

(٢١٢) رحلات بوركهارت ، ص ٣٢٤ — ص ٣٢٥ .

اما المهاجرون الذين سكنوا أسوان فى تلك الفترة ، فهم عرب الأندلس ممن عاشوا فيها قرونا عديدة الى أن غادروها تحت ضـــغط المسيحيين . ويحسن بنا أن نتحدث بشيء من الايجـــاز عن الظروف التى دفعت مسلمى الأندلس للهجرة الى الصعيد الأعلى ، خاصة أسوان وقراها .

عندما ذبلت دولة العرب فى أسبانيا ، لم يعـــد للمسلمين فى الأندلس سوى مملكة غرناطة ، بعد أن سقطت المدن العربية مدينة أثر أخرى ، ووقع أكثرها بأيدى المســـيحيين . فبين ســـنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) و ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، فتح فرديناند الثالث ملك قشتالة ، وجايم الأول ملك أرغونة مدن بلنسيه ، وقرطبة ، وأشبيلية ، ومرسيه ، وقدر للعرب بعد هذه الفتوح أن يستمر حكمهم بغرناطة قرنين ونصف قرن (٢١٢) . ولم يكن يتوقع العرب أن يعيشوا تلك الفترة فى غرناطة ، والممالك المســـيحية على مقربة منهم ، وقد أحسوا فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى بقرب زوالهم ، عندما تم توحيد أرغونة وقشتالة بتزويج فرديناند بايزابيلا (٢١٣) . وأخـــذ المسيحيون يضيقون الخناق على غرناطة ، فاستولوا على حصن لورة وغيره من الحصون سنة ٨٨٩ هـ (١٤٨٤ م) ، ثم ســـقطت بعـــد ذلك لوشـــة عام ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) ، وتم استيلاء فرديناند ورجاله على القسم الغربى من غرناطة ، ثم شرعوا فى حصار مالقـــة ، ولم يتمكنو من اقتحامها الابدس الألغام تحت أسوارها ، وحضرت الملكة ايزابيلا نفسها فأثار حضورها روح الحماسة فى الجند ، الى ان سلمت المدينة (٢١٤) . ولم يبق للمسلمين غـــير غرناطة ، فخرج فرديناند وايزابيلا فى عام ٨٩٦ هـ (١٤٩١ م) ، فضيق عليها الحصار ، وبعد أن انتظر العرب دون طائل وصـــول ما كانوا يؤملون من النجدات من مصر أو من سلاطين تركيا ، اضطروا الى تســـليم المدينة فى

---

(٢١٣) لين بول : العرب في أسبانيا ص ١٧٦ — ص ١٧٨ .
(٢١٤) المرجع السابق ص ١٨٣ .
(٢١٥) لين بول : العرب في أسبانيا ص ١٩٥ — ص ١٩٦ .

٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ م (٢١٥) . وعلى الرغم من أن شروط التسليم تنص على أن العرب ستكون لهم حرية العبادة ، واقامة شعائر الاسلام ، الا أن المسيحيين سرعان ما نقضوا ما عاهدوا المسلمين عليه (٢١٦) . فاخذوا يعملون السيف فى المسلمين ، ففر من استطاع منهم الى مراكش ومصر وآسيا الصغرى ، كما قاموا بنفى من تبقى من العرب ، ولم ينته النفى الا فى سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م) حين حكم فى هذا العام على نحو نصف مليون عربى بالنفى ، وقد ثبت أن من نفوا من العرب فى المدة بين سقوط غرناطة وأوائل القرن السابع عشر الميلادى يبلغون ثلاثة ملايين (٢١٧) .

وهؤلاء المسلمون من أهل الأندلس الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، عقب حملات التعذيب والتشريد والنفى التي لاقوها من المسيحيين ، كان ملاذهم الوحيد شمالى افريقية . فمنهم من جاء الى صعيد مصر ، وسكن اسوان وقراها . ولا زالت أعداد كثيرة من سلالتهم تعيش فى قرى أسوان ، يعرفون حاليا بالمهاجرين ، ويسمى الفرد منهم بالمهاجر . ومن المحتمل أن المهاجرين اطلق عليهم ذلك الاسم ، لأن هجرتهم إلى إسوان كانت رغم انفهم . ويحمل هؤلاء المهاجرون سمات أهل الأندلس ، فبشرتهم شديدة الحمرة ، تختلف عن بشرة أهالى اسوان التى تغلب عليها السمرة فى غالبية الأحوال .

أما المماليك الذين سكنوا أسوان فى أواخر العصور الوسطى ، فهم الذين خافوا أن يقعوا تحت طائلة السلطان سليم الأول العثمانى ، اذ فكر فى غزو مصر بعد أن استولى على الشام عام ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) (٢١٨) فعولت جماعات منهم على الفرار من وجهه الى الصعيد . ويصور ابن اياس (٢١٩)

---

(٢١٦) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ — ص ٢٠٦ .

(٢١٧) لين بول : العرب في أسبانيا ص ٢٠٨ .

(٢١٨) لين بول : العرب في أسبانيا ص ٢١٠ — ص ٢١٥ .

(٢١٩) بدائع الزهور في وقائع الدهور حوادث عام ٩٢٢ هـ .

(٢٢٠) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، حوادث عام ٩٢٢ هـ .

حالة الفزع التى انتابت المماليك الجراكسة بعد ان استولى سليم على الشام فقد قال : « فلما اشيعت الأخبار فى القاهرة بان ابن عثمان ملك الشام صارت الناس فى امر مريب بسبب ذلك ، وقالوا ما بقى بعد اخذ الشام الا مصر ، وجزموا بهذا الامر . وعول بعض الناس على الهروب الى جهة الصعيد ... فتنكد السلطان والامراء والناس قاطبة لهذا الخبر ، ولا سيما انها ليلة عيد الفطر ، والناس جرحهم طرى بسبب موت السلطان (الغورى) وكسرة العسكر » . وقبل ان يزحف السلطان العثمانى بجيوشه على مصر ، ارسل خطابا الى السلطان طومانباى يطلب منه الدخول تحت طاعته ، ويتوعده قائلا : « وان لم تدخل تحت طاعتنا ، ادخل الى مصر ، واقتل جميع من بها من الجراكسة حتى اشق بطون الحوامل ، واقتل الأجنة فى بطونهن من الجراكسة » ، فخاف معظم الجراكسة ، وجهزوا انفسهم للهروب الى الصعيد الأعلى (٢٢٠) وازاء ذلك التهديد الذى توعد به السلطان سليم المماليك الجراكسة ، فيبدو ان جماعات منهم قد فرت بالفعل الى اسوان فارة بجلدها، عندما بدا سليم زحفه على مصر . ومما يدل على ذلك ان الرحالة براون Browne الذى زار اسوان فى ٣١ اكتوبر عام ١٧٩٢ م وشاهد قبور موتاهم على مقربة من اسوان ، كما ذكر ان سلالتهم التى قابلها خلال زيارته ، تعيش فى بؤس وحطام (٢٢١) .

وفى عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) وقعت مصر فى ايدى الأتراك العثمانيين ، وانطوت صفحة تاريخها فى العصور الوسطى ، لتبدا صفحة جديدة من تاريخها فى العصر الحديث . ولما ان استتب الأمر للسلطان سليم فى مصر ، حتى وضع حاميات عسكرية فى كل من اسوان وابريم وغيرها لحراسة الحدود الجنوبية لمصر ، وتالفت تلك الحاميات من جماعات من الضباط يسمون الكشاف

---

(٢٢١) Browe : Travels in Africa., p. 141.

(جمع كاشف) اكثرهم من اصل البانى او بشناق او اناضولى (٢٢٣) . ومن تلك الحاميات ، ينحدر عنصر من عناصر أسوان السكانية (٢٢٢) ، يجسرى فى عروقه الدماء التركية . ولا زالت تعرف سلالة تلك الحامية فى اسـوان بالكشاف .

* * *

وهكذا يتضح من دراستنا فى هـذا الفصـل ، أن التركيب الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى ، قد شمل عناصر عديدة ، ينحدر معظمها من اصل عربى صريح ، وبعضها تأثر بالدماء العربية مما ادى الى ظهور سلالات جديدة ، وبعضها الآخر لم يتسرب اليه الدماء العربيـة . وبعبارة أخرى ، يمكننا القول أن التركيب الاجتماعى لأسوان ، قد احتوى جنسيات مختلفة ، قدمت على مر القرون من مختلف انحاء العالم الاسلامى . وقـد أحدث ذلك التنوع نتائج على جانب كبير من الأهمية ، اذ أن امتزاج معظم تلك الأجناس بالمصاهرة والزواج ، جعل أغلب اهالى اسوان خليطا فى شكلهم ، خاصـة لون بشرتهم . على ان الطابع العام لسكان اسوان هو طابع البداوة الذى يماثل طابع الحجاز . ولا غرابة فى ذلك ، فمظاهر التضاريس فى كلا البيئتين تكاد أن تكون واحدة . وليس ادل على ذلك من قول الرحالة بوركهارت الذى عايش أهالى اسوان فترة من الوقت ، اذ قال : « أهل الصعيد الى الجنوب من اسيوط ليسوا سوى قبائل البدو القديمة ، وعربيتهم فى نظرى خالصة نقية من الشوائب ، ولا يفضلها نقاء غير عربية شـبه الجزيرة . صـحيح أنهم ينطقونها بلغة مصرية ، ولكن الفاظهم وعباراتهم جلها مأخوذة من لغة الحجاز واليمن ، وهو ما تحققته بنفسى فى اثناء مقامى بعد ذلك بجدة ومكة » (٢٢٤) .

---

(٢٢٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ص ٣٠٣ — ص ٣٠٤ .

(٢٢٣) رحلات بوركهارت : ص ٣٤٣ — ص ٣٤٤ ، Ency. Britt. Art. Aswan.

(٢٢٤) رحلات بوركهارت : ص ٢٧٤ .

الخـــــاتمة

وبعد ، فانه يتضح لنا من هذا البحث أن أسوان مع بعدها وتطرفها تمتعت بموقع فريد ، جعلها تبدو فى صورة واحدة من أهم مدن مصر فى العصور الوسطى . فهى تمثل آخر الحدود الجنوبية لمصر ، فضــلا عن أنها ملتقى القوافل الآتية من السودان والصحراء الشرقية . وزاد من أهمية هذه المدينة فى تلك العصور أن القبائل العربية رابطت فيها منذ فجـــر الفتح العربى ، بغرض الدفاع عنها ضد غزوات مملكة النوبة المسيحية . ومنذ ذلك الوقت أيضا ، استمر نزوح القبائل والجمـــاعات العربية الى اسوان ، ومن تلك القبائل ، قبيلة ربيعة التى هبطت أرض أسوان فى القـــرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، وتمكنت من فرض نفوذها على القبائل الأخرى التى عاشت معها جنبا الى جنب . ولقد شاءت ظروف الدولة الفاطمية فى عهـــد الحاكم بأمر الله الفاطمى ، أن تهيىء لربيعة فرصـــة الظهـــور على مسرح الأحداث السياسية ، وذلك عندما خرج الثائر أبى ركوة على ذلك الخليفة ، واستطاع أن يجمع حوله الأتباع . وفى الفصل الأول اوضحنا المعارك التى نشبت بين ابى ركوة وبين جيوش الحاكم ، وادت فى النهاية الى هزيمة الأول وفراره الى شمال النوبة . بيد أن زعيم ربيعة فى أسوان ظفر به ، وسلمه للخليفة فمنحه لذلك لقب كنز الدولة الذى صـــار علما على تلك القبيـــلة .. والحقيقة التى خرجنا بها أن ذلك اللقب لا يخرج عن كونه لقبا فخريا ، منح لشخص نظير خدمة اداها للدولة . ومن المستبعد أن ذلك اللقب أعطى ربيعة الحق فى تأسيس امارة فى مدينة اسوان ، اذ ليس من المعقول أن تشجع الدولة الفاطمية تلك السياسة ، وهى الحريصة على الرغبة فى مد نفوذها الفعلى فى كافة أنحاء العالم الاسلامى . وقـــد كشفت الحـــوادث التاريخية عن أطماع قبيلة بنى الكنز (ربيعة) فى أسوان . من ذلك أنها استغلت ضعف الدولة الفاطمية فى أواخر أيامها ، فخرجت عن الطاعة ، ولكن بدر الجمالى ــ قائد الفاطميين ــ أخضعها ، ومن ثم أعاد الهدوء الى أسوان .

ولمـــا وصل صلاح الدين الأيوبى الى مصر ، انتهز بنو الكنز فرصة انشغاله بتأسيس دولته ، فرفعوا راية العصيان . وواجه صلاح الدين تلك الأزمة ، بأن ارسل اليهم اخاه الملك العادل سيف الدين ابى بكر الأيوبى على رأس جيش كبير ، استطاع الحاق الهزيمة بهم عام ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م)(٦) وإجبرهم على الجلاء من اسوان الى شمال النوبة ، وهناك ـــ خاصة منطقة المريس ـــ مالوا الى الهدوء فترة تقارب قرنا وربع قرن من الزمان ، اندمجوا خلالها بالأهالى عن طريق التزاوج .

ولم ينته دور بنى الكنز فى اسوان عند هذا الحد ، فقد وضح انه ليس من المنتظر ان يظلوا قابعين فى بيئة فقيرة مجدبة مثل شمال النوبة ، لا تضاهى بيئة اسوان الحضارية . لذلك دأبوا على شن الاغارات على تلك المدينة ، بغية استعادة نفوذهم فيها ، ولكن دولة المماليك البحرية لم تمكنهم من ذلك . غير ان تلك الاغارات اتخذت طابعا أشد وأقوى ابان عصر دولة المماليك الجراكسة ، واستطاع بنو الكنز فى نهاية القرن الثامن الهجرى ، ان ينجحوا فى العودة الى اسوان .

ولا ريب ان تضم مصر الى حوزة الدولة الاسلامية ، عرضن مدينة اسوان الى اشتداد غزوات جارتها ـــ من ناحية الجنوب ـــ أعنى من جانب مملكة النوبة المسيحية ومن المشاهد ان تلك المملكة لم تكن بقادرة على تســـديد ضرباتها الا عندما تحس بضعف مصر ، اما فى فترات قوتها ، فكانت تخلد الى السكينة . وعلى الرغم من ان حملة عبد الله بن سعد بن ابى سرح على النوبة عام ٣١ هـ انتهت بعقد معاهدة سلام بين مصر الاسلامية ومملكة النوبة المسيحية ، الا ان الاخيرة لم تحترم شروط تلك المعاهدة ، فقامت بالاغارة على مصر فى اواخر الدولة الاخشيدية . وعنـــدما قامت الدولة الأيوبية فى مصر ، فكر صلاح الدين الايوبى فى ضرورة تأمين حدود مصر الجنوبية ، للتفرغ للجهاد ضد الصليبيين ، فأرسل حملة بقيادة اخيـــه تورانشاه عام ٥٦٩ هـ

(١١٧٣ م) استطاعت التوغل في بلاد النوبة . والحقيقة التي خرجنا بها من تلك الحملة ، انه مهمــا يقال من ان هدفهــا اختيار ملجأ امين للأسرة الأيوبية اذا فكر نور الدين محمود في طردها من مصر ، الا أن من اهدافهـا الرئيسية تأمين حدود مصر من ناحية الجنوب . ومما يؤيد ذلك أن النوبيين لم يهاجموا مصر بقية العهد الأيوبي .

وأدرك السلطان الظاهر بيبرس بثاقب نظره خطــر وجود مملكة النوبة المسيحية جنوب مصر ، وهو الحريص على تصفية الجيوب الصليبية في الشام . فأرسل حملة الى بلاد النوبة عام ١٢٧٦ م ، استطاعت أن تضم الجزء الشمالي منها . وقــد حققت تلك الحملة ما لم تستطع أن تحققه حملة أخرى منذ الفتح العربي لمصر ، اذ منذ ذلك الوقت لم تعد النوبة خطرا على اسوان ، حتى انتهى الأمر بسقوط مملكة النوبة المسيحية في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي .

أما شعوب البجة التي سكنت الصحراء الشرقية ، فلم يكترث لهــا العرب عقب فتحهم لمصر ، غير أن الأمر اختلف عندما شــنوا اغارتهم على أسوان عام ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) واذا كان العرب قــد تمكنوا من صد تلك الاغارة ، وعقدوا معهم اتفاقية ، الا انهم نقضوا ما تعهدوا به ، وعاودوا الإغارة مرة أخرى عام ٢٣٢ هـ (٨٤٧ م) . وفي عهد المتوكل على الله العباسي (٢٣٢ ـــ ٢٤٧ هـ // ٨٤٧ ـــ ٨٦١ م) ، قاموا بشن اغارات على حدود مصر الجنوبية ، مما أدى بالخليفة الى ارسال حملة ضخمة تمكنت من هزيمتهم . ومنذ ذلك الحين لم نعد نسمع عن أية اغارة شنها البجة على أسوان . ومن العــوامل التي أدت الى وقف اغارات البجة تسرب القبائل العــربية إليهم اوطانهم ، ذلك التسرب الذي بلغ مداه ـــ على ما يبدو ـــ في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) .

ولبعد الشقة بين أسوان والقاهرة ، فان الأولى كانت خير ملجأ أمين للفارين من الضغط السياسى ، والمغامرين ذوى الشخصيات القوية مثل أبى عبد الرحمن العمرى . وفضلا عن ذلك ، فقد وقع نظر سلاطين دولة المماليك البحرية ، على اختيار تلك المدينة النائية منفى لكبار رجالات مصر المغضوب عليهم . أما فى أواخر دولة المماليك الجراكسة ، فلم تعد أسوان مكانا صالحا للنفى ، بسبب ما الم بها من فوضى من جهة ، وخروجها عن يد السلطنة من جهة أخرى .

هذا فيما يتعلق بالدور الذى لعبته أسوان فى الأحداث السياسية لمصر فى العصور الوسطى . أما بالنسبة لأهميتها الاقتصادية ، فتنحصر — بشكل بارز — فى مجال التجارة . ومما لا شك فيه أن أسوان تعتبر أحد المنافذ الرئيسية لتجارة مصر الخارجية فى العصور الوسطى . هذا وان كان بعض الباحثين قد ذكر أن تجارة مصر مع النوبة ، كان يقوم بها التجار النوبيين ، الا أنى اثبت بالدليل القاطع فى ثنايا الفصل الثانى ، أن تجار أسوان كانوا يقومون برحلات تجارية الى بلاد النوبة ، حاملين معهم السلع التى يحتاج اليها الأهالى هناك ، وفى عودتهم الى أسوان يأتون معهم بسلع النوبة . ومما زاد فى أهمية أسوان التجارية ، انها كانت — بحكم موقعها — ملتقى لطرق القوافل الآتية من بلاد النوبة والسودان من ناحية ، والصحراء الشرقية من ناحية اخرى . وازاء ذلك يمكننا القول ان اسوان كانت مستودعا هائلا للسلع التجارية الواردة من تلك المناطق . منها العاج ، والأبنوس ، والتمر الهندى ، وريش النعام ، والابل ، والرقيق الأسود . وتعتبر اسوان أيضا ، أقدم محطة تجارية — فى مصر العصور الوسطى — ارتبطت بميناء عيذاب ارتباطا وثيقا ، بيد أن ذلك الارتباط قد خفت حدته بظهور النشاط التجارى لمدينة قوص ابتداء من القرن الخامس الهجرى .

ولم تكن أسوان احد المنافذ الخارجية لتجارة مصر فى العصور الوسطى

فحسب ، بل كانت أيضا سوقا ضخمة للتجارة الداخلية ، لعبت المواصلات الداخلية — النيل والطرق البرية الممهدة — دورا كبيرا فى رواجها .

وإذا انتقلنا الى الحياة العلمية والأدبية والثقافية فى أسوان العصور الوسطى ، فمن السهل علينا أن نلمس أنها كانت أحد مراكز النهضة فى مصر . فقد نبغ من أبنائها كثير من علماء مذاهب السنة ، والفقه ، والتصوف ، وعلم القراءة . كما برز منهم نخبة من العلماء ، ممن كانت لهم مكانة مرموقة فى الفلسفة ، والرياضة ، والموسيقى ، والطب ، والطبيعيات ، والالهيات ، والمنطق ، وغير ذلك من العلوم التى كانت شائعة فى العصور الوسطى . وثمة حقيقة أوضحتها فى الفصل الثالث ، أن أسوان كانت أحد المحطات الهامة التى ينفذ منها الحجيج الى بيت الله الحرام ، عبر الصحراء الشرقية حيث ميناء عيذاب ، ومن ثم الى جدة . وقد استخدم طريق أسوان — عيذاب مسلكا للحج منذ القرن الأول للهجرة ، وصار الطريق الوحيدة لمدة قرنين من الزمان من ٤٥٠ هـ (١٠٥٢ م) حتى ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) عندما كسا الظاهر بيبرس الكعبة ، وأمر بتسيير قوافل الحج برا .

أما عن الحياة الأدبية فى أسوان ، فقد كانت حافلة بالثراء ، لا سيما فن الشعر ، اذ برع فيه العديد من أبناء أسوان . ومن المميزات التى انفردت بها الحياة الأدبية فيها ، أن كثيرا من أعضاء أسرة واحدة نبغوا فى قرظ الشعر ، مثل بني عرام والأخوين الرشيد والمهذب . كذلك أنجبت أسوان مؤرخا ، كان له الفضل فى القاء بعض الضوء على تاريخ النوبة والبجة فى العصور الوسطى ، وهو عبد الله بن سليم الأسوانى ، الذى ألف كتابا سماه « أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل ومن عليه وقرب منه من غيرهم » . ومما يدعو للأسف أن ذلك الكتاب قد ضاع ، ولم يتبق منه سوى شذرات حفظها لنا المقريزى فى كتابه « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » .

ومن الحقائق التى أوضحتها ، أن اسوان كانت احد المعابر الرئيسية الهامة ، التى نقلت الاسلام والثقافة العربية الى السودان والصحراء الشرقية . وبعبارة اخرى كانت تلك المدينة بمثابة عنق الزجاجة التى مرت منها القبائل والجماعات العربية خلال هجرتها الى جنوب مصر . وقد انطلق الاسلام والعروبة من اسوان بقوتين سارتا جنبا الى جنب . القوة الأولى تتمثل فى الهجرات العربية ، والاخرى تتمثل فى التجارة . وفى ثنايا الفصل الثالث ، أوضحنا أن القبائل العربية اندفعت الى بلاد النوبة والبجة حاملة معها الدم العربى ، واللغة العربية ، والدين الاسلامى . أما التجارة فانها لعبت دورا هاما فى نشر الاسلام والثقافة العربية فى تلك المناطق ، اذ لا جدال أن التجار كانوا خير دعاة لرسالة الاسلام ، فى عصر لم يعرفه الجمعيات والارساليات التبشيرية التى عرفناها فى العصر الحديث .

هذا عن الحياة الأدبية والثقافية لأسوان فى العصور الوسطى ، أما عن البناء الاجتماعى لتلك المدينة ، فمن الملاحظ أن اجناسا عديدة قد تلاقت على أرضها ، منها السامية ممثلة فى القبائل العربية بقسميها قحطان وعدنان . ومنها الشعوب الحامية مثل قبائل البجة التى تقطن الصحراء الشرقية . وقد أدى تسرب الدماء العربية لشعوب البجة ، الى ظهور سلالات جديدة مثل قبائل البشارية والعبابدة .

وبالاضافة الى ذلك شهدت اسوان أجناس اخرى اقل نقاوة من السابقة ، كالتكارزة (التكارنة) والعبيد . وفى اواخر العصور الوسطى اقامت فى اسوان عناصر سكانية اخرى ، مثل الاتراك ، والماليك ، والمهاجرين من اهل الأندلس ممن شردهم المسيحيين .

وتدل شواهد القبور العديدة التى عثر عليها فى جبانة اسوان ، على ان قبائل عربية عديدة تتابعت هجرتها — منذ الفتح العربى — الى اسوان . وهناك تطور اجتماعى اوجده هجرة تلك القبائل الى اسوان ، ذلك انه اورثها

النظام القبلى الذى ما زال ضاربا بجذوره حتى وقتنا الحالى . ومن الواضح أن ما تميزت به تلك المدينة كبيئة منعزلة ، حافظ على بقاء الشكل القبلى فى مجتمعها .

تلك هى أبرز الحقائق التى تناولتها فى البحث ، نستدل منها على أن أسوان احتلت مكانة هامة فى تاريخ مصر العصور الوسطى . وكان من الممكن أن تظل تلك المكانة باقية ، لولا ما احاط بها من احداث فى أواخر العصور الوسطى . فقد عانت من هجمات بنى الكنز فى أواخر عصر دولة المماليك الجراكسة ، مما جعلها تدفع الثمن باهظا فى الأرواح والممتلكات ، وشملها الخراب حتى كادت أن تقفر من أهلها .

وفى زمن دولة المماليك الجراكسة ايضا ، انتهز العربان فرصة ضعف السلطة المركزية فى مصر ، فثاروا فى أنحاء الصعيد الأعلى ، وقطعوا طرق التجارة ، ونهبوا الأهالى وغدت اسوان مسرحا لعبثهم وفسادهم .

وقد أدى ضعف سلاطين المماليك الجراكسة ، الى اضمحلال المكانة الاقتصادية لأسوان . وزاد الطين بلة أن أولئك السلاطين ساروا على سياسة الاحتكار ، مما أدى بالأوربيين الى اكتشاف رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، من أجل الوصول الى تجارة الهند والشرق الأقصى .

وقد كان من المحتمل أن تظل الحياة العلمية والأدبية والثقافية مزدهرة فى اسوان ، الا أن الفوضى التى عمتها حالت دون ذلك ، وأدت الى تدهور العلوم بها . وقد ذكر ابن حجر العسقلانى(١) أنه توجه الى الصعيد الأعلى عام ٧٩٣ هـ ــ خاصة قوص وغيرها ــ للاستفادة من علمائه ، غير أنه لم يخرج بشىء ذى قيمة .

---

(١) ابناء الغمر بابناء العمر ، ج ١ ص ٤١٩ .

وعلى أية حال ، فإن مدينة أسوان أواخر العصور الوسطى ، دخلت دور الذبول والركود .. واستمر الحال بها على ذلك الوضع ، حتى وقعت مصر تحت سيطرة الأتراك العثمانيين عام ١٥١٧ م . وثمة صورة أعطاها لنا الرحالة محمد مجدى(٢) عن حالة أسوان فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، تكاد تطابق الصورة التى رسمها قبله مؤرخو العصور الوسطى كالمقريزى وابن حجر العسقلانى وابن الياس ، فقد قال عنها : « أغلب المنازل كئيبة المنظر مقبضة ، ليس فيها من فن العمارة أثر الذوق ... ولولا عمائر الحكومة ودوائرها الحديثة ، وبعض أماكن استجدت وأعدت لسكنى الأوروباويين ... لكانت البلدة عبارة عن كفر ريفى غريب ! » . ويعود قائلا عنها : « كان لبطء سير حميرنا فضل فى جعلنا ندقق النظر ، ونكرر التأمل فى شوارع أو دروب تلك القرية (نسيت أنى كنت دعوتها كغيرى بمدينة) » . (٣) . وما زالت أسوان على تلك الصورة المنفرة ، حتى كان بناء السد العالى فأعاد الحياة الى شرايينها ، وجعلها محورا لنشاط كبير ، ولكنه نشاط من نوع جديد يختلف عن النشاط الذى اتصفت به فى العصور الوسطى .

---

(٢) رحلة مجدى او ثمانية عشر يوما بصعيد مصر ص ١٤١ — ص ١٤٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٢

دراسة عن أهم المصادر

لا يخفى على باحث التاريخ أن علاج أى موضوع سياسى أو حضارى لمدينة مثل أسوان يختلف عنه لمدينة أخرى مثل الفسطاط أو القاهرة ، وهما عاصمتا مصر فى العصور الوسطى . ففى العاصمة تتركز الحكومات والجيوش ومن السهل على أى مؤرخ عاش بالقرب من الأحداث ، أن يدون ما شاهده أو سمع عنه ، ثم يأتى من بعده من ينقل عنه — النص أو مضمونه — كما هو الحال فى معظم المراجع التاريخية التى تركها لنا مؤرخو العصور الوسطى . أما بالنسبة لأسوان ، فان مهمتى كانت صعبة ، ومنشأ الصعوبة أن مدينة أسوان تبعد عن عاصمة مصر بحوالى ١٠٠٠ كيلو متر . فضلا عن أن المراجع التاريخية لم تتعرض بشكل مباشر للأحداث التى مرت على تلك المدينة ، الا عندما تمس تلك الأحداث نفوذ السلطة المركزية فى مصر . ولذا تطلب منى الأمر قراءة كثير من المصادر والمراجع بكافة أجزائها ، علنى أصادف اشارة تمس موضوع البحث من قريب أو بعيد . وكانت المادة التى عثرت عليها ما ليست الا شذرات مبعثرة فى بطون المراجع ، لا تشفى — فى معظم الأحيان — غلة الباحث .

على انه هناك بالرغم من ذلك عدد لا بأس به من المصادر الأصلية استفدت منها فائدة كبيرة أهمها ما كتبه ابن عبد الحكم ، والمسعودى ، وناصر خسرو ، وعماد الدين الأصفهانى ، والأدفوى ، والقلقشندى ، والمقريزى .

فابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ — ٨٧١ م) أمدنا كتابه « فتوح مصر والمغرب » بأحداث الفتح العربى لمصر ، والقبائل العربية التى ساهمت فى الفتح . كما أمدنى بأحداث الحملات الأولى التى أرسلها ولاة مصر الى النوبة عقب الفتح .

اما المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٦ م) فقد اعتمدت على كتابه

مروج الذهب ومعادن الجوهر » عندما تناولت بالدراسة شعوب البجة في الصحراء الشرقية ، والبناء الاجتماعي لأسوان في العصور الوسطى .

اما الرحالة الفارسي ناصر خسرو المتوفى سنة ٤٨١ هـ (١٠٠٨ م) ، فقد قام برحلة بين ٤٣٧ هـ و ٤٤٤ هـ أبتداهـا من مرو في خراسان ، مارا بأذربيجان وارمينية والشام وفلسطين ومصر والحجاز ونجد وجنوبى العراق ، ثم عاد الى ايران . ومكث في أسوان ٢١ يوما قبل توجهه لأداء فريضة الحج عبر الصحراء الشرقية الى عيذاب ومن ثم الى مكة . وروى تفاصيل تلك الرحلة في كتابه « سفر نامة » . وبالرغم من صغر حجم ذلك الكتاب ، الا أنه ضم معلومات عن اسوان على قدر كبير من الاهمية ، اذ يعد ناصرو خسرو المؤرخ الوحيد الذى ذكر أن تجار أسوان كانوا يتوجهون بسلعهم الى بلاد النوبة ، ثم يعودون بما تشتهر به تلك البلاد من سلع ومحاصيل . ولاريب أن ماذكره ناصر خسرو — وهو شاهد عيان — بمثابة تصحيح لبعض الآراء التى تقلل من قيمة العرب كأهل تجارة . كما أن سفرنامة يعتبر أول مصدر يصف لنا وصفا شائقا طريق الحج من اسوان الى عيذاب ، فقد وصف مصاعب الطريق ، وندرة المياه به . وجاء من بعده ابو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) فوصف ذلك الطريق أيضا — ابان عودته من عيذاب الى اسوان — في كتابه « الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية » .

وثمة مصدر هام تعرض للكلام عن شعراء أسوان : وهو كتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » الفه العماد الاصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) . وقد اعتمدنا عليه في بحث الحياة الادبية في أسوان ، فأورد لنا كثيرا من القصائد التى نظمها الشعراء الأسوانيون في جميع الاغراض . ومما يؤخذ على العماد انه تعمد اهمال سرد القصائد التى قالها شعراء اسوان في مدح بنى الكنز . ولما كان العماد من اقرب المقربين الى صلاح الدين ،

فليس من المستبعد عليه ذلك الامر ، خاصة اذا علمنا أن بنى الكنز قاموا بثورة عنيفة ضد الأيوبيين ابان تأسيس دولتهم فى مصر ، وبذلك أعطانا النماذ صورة وأضحه عن تحيزه . وقد كان من الممكن أن نستخلص من القصائد التى قيلت فى مدح بنى الكنز بعض المعلومات التى تفيد البحث .

اما عن الادفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ، فيعتبر كتابه « الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد » من المصادر الاصلية التى اعتمدت عليها وليس من المبالغة أن يقال أنه لا غنى لباحث فى تاريخ صعيد مصر الاعلى فى العصور الوسطى عن ذلك المصدر . فقد ضم تراجم واضحة وافية لعلماء الصعيد ، خرجنا منها بمادة وافية عن الحياة العلمية والدينية والادبية فى اسوان .

ومن المصادر الهامة كتاب « صبح الاعشى فى صناعة الانشاء » للقلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) . ولا ريب أن ذلك الكتاب يعتبر اكبر موسوعة ضمت بين دفتيها جميع النظم الحضارية التى تهم باحث التاريخ فى العصور الوسطى . وقد افادنا هذا الكتاب فى بحث موضوع تطور النظام الادارى ، ونظام البريد لاسوان . بالاضافة الى أنه ألقى الضوء على القبائل العربية التى سكنت صعيد مصر فى العصور الوسطى .

على انه لا يمكن التحدث عن مصادر البحث دون ذكر المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) . فكتابه « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » اعاننى فى كثير من النقاط التى تعرض لها البحث ، لا سيما فيما يتعلق بالعلاقات بين مصر والنوبة ، وغارات البجة على مصر ، والقبائل العربية التى هبطت ارض مصر وقت الفتح . وقد خدم المقريزى التاريخ خدمة عظيمة باثباته لكثير من النصوص التى فقدت مصادرها الاصلية ، ككتاب « اخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » لمؤلفه عبد الله بن سليم الاسوانى . والفقرات التى أوردها المقريزى من ذلك الكتاب أفادتنا فى معرفة أحوال النوبة فى العصور الوسطى . أما كتاب « البيان والاعراب عما

بأرض مصر من الاعراب » ، فقد استفدت منه فى بحث القبائل العربية التى وفدت الى مصر على مر العصور الوسطى . وهو لم يكتف بالتحدث عن بطونها وفروعها فحسب ، بل أورد شيئا من تاريخها ، ومن الامثلة على ذلك قبيلة ربيعة التى سكنت أسوان فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) أما كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » فهو كتاب مخطوط حققه الدكتور محمد مصطفى زيادة حتى نهاية عـــام ٧٥٥ هـ ، وحقـــق الدكتور ســـعيد عبد الفتاح عاشور بقية الكتاب . وتتضح اهمية هذا الكتاب ـــ بالنســـبة للبحث ـــ فى أنه رسم صورة صـــادقة وافية لحالـــة الفوضى السياســـية والاقتصادية للصعيد بسبب ضعف سلاطين المماليك الجراكسة من جهـــة ، وعبث العربان وفسادهم من جهة أخرى . وهنـــاك كتـــاب مخطوط آخـــر للمقريزى وهو المقفى ، حقق نماذج منه دكتور خليل محمود عساكر ودكتور مصطفى محمد مسعد . وقد أمدنى هذا الكتاب بمعلومات قيمة تتعلق بالاحداث التى المت بالقبائل العربية فى بلاد البجة . كما أمدنى بأحداث الحروب التى نشبت بين عبد الرحمن العمرى وبين النوبة والبجة ، وما ترتب على ذلك من نشر العروبة فى تلك البلاد .

ومن المراجع الحديثة التى أعتمدت عليها كتاب « رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان » الذى ترجمه الى اللغة العربية فؤاد اندراوس . فاستفدت منـــه عنـــد بحث طـــرق التجـــارة المتفرعـــة مـــن أســـوان الى بلاد السودان والصحراء الشرقية فى العصور الوسطى . بالاضافة الى ذلك السلع التى ترد من السودان الى مصر . وعلى أية حال ، فان هذا الكتاب لا غنى عنه لباحث التاريخ عند دراسة أى موضوع يخص بلاد السودان .

هذا فضلا عن عدد اخر كبير من المراجع العربية الحديثة التى ذكرناها فى قائمة المصادر والمراجع فى نهاية البحث .

ومن المراجع الاجنبية التى اعتمدت عليها كتاب :

Catalogue géneral du Musée Arabe du Caire. Stéles funeraires

وقد ضم ذلك الكتاب شواهد القبور التى أسفرت عنها الحفريات فى مدن مصر الاسلامية لا سيما الفسطاط وأسوان . ولا ريب انى أفـدت من هـذا الكتاب خير افادة ، حينما تناولت وصف البناء الاجتماعى لاسوان فى العصور الوسطى . فقد جاءت على شواهد القبور نقوش بالخط الكوفى ، موضح بها أسم المتوفى ، والقبيلة التى ينتمى اليها ، والسنة التى توفى فيها . وهنـاك حفريات فى جبانة أسوان قام بها الاستاذ عبد الرحمن عبد التواب فى المدة من ديسمبر سنة ١٩٦٠ م حتى منتصف سنة ١٩٦٣ م ، أسفرت عن اكتشاف العديد من شواهد القبور فى أسوان ، ساعدتنى — أيضا — نقوشـها فى دراسة العناصر السـكانية التى تألفت منها أسـوان . وللاسف فان تلك الشواهد لم تطبع عنها دراسة حتى الآن .

وثمة مراجع أخرى تتمثل فى المجلات الدورية التى تصدر باللغـات الاوربية ، استفدت منها فى ثنايا البحث ، واخص بالذكر مجموعة Sudan Notes and Records واذا كان من المعروف ان تلك المجموعة تقتصر على تاريخ السودان ، الا انها كانت من المراجع التى خدمت البحث ، ولا عجب فالصلة وثيقة بين أسوان والسـودان ، فالاولى حلقة الوصـل بين مصر والسودان .

واخيرا ، فان هناك كتاب :

Klunzinger : «Upper Egypt : its people and it products».

افادنى فى بحث تجارة العبيد ، وكيفية صيدهم ، والظروف التى تحيط بهم منذ ان يقعوا فريسة فى أيدى صائدى الرقيق حتى يباعوا فى أسواق مصر والعالم الاسلامى .

« قائمة المصادر والمراجع »

(١) المصادر العربية المخطوطة :

١ — ابراهيم الحنبلى : (عاش فى القرن السابع الهجرى)
« شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب »
(مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢١)

٢ — ابن ايبك : (من علماء القرن الثامن الهجرى) أبو بكر بن عبد الله
« كنز الدرر أو الدر المطلوب فى اخبار بنى أيوب »
(مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٥٧٨، تاريخ)

٣ — ابن بهادر : محمد بن محمد
« فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر »
(مخطوط ، جزءان ، بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦١٦٦)

٤ — ابن حجر العسقلانى : (ت ٨٥٢ هـ) شهاب الدين أبو العباس احمد
« رفع الاصر عن قضاة مصر »
(مخطوط فى مجلد دار الكتب المصرية رقم ١٠٥ تاريخ)

٥ — : « انباء الغمر بأنباء العمر »
حققه الدكتور حسن حبشى حتى نهاية عام ٧٩٩ هـ وبقية الكتاب مخطوط .

(جـزءان ، دار الكتب المصرية رقـم ٢٤٧٦ تاريخ)

٦ ـ الخالدى : (ت ٩٢٧ هـ) بهاء الدين محمد بن لطف الله العمرى .
« المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الانشاء »
(مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقـم ٢٤٠٤٥) .

٧ ـ ساويرس بن المقفع : « سير الآباء البطاركة »
(مخطوط بدار الكتب المصرية ، الجـزء الثالث ، رقم ٦٤٣٤ ح) .

٨ ـ أبو صالح : (الشيخ أبو صالح الارمنى)
« تاريخ الشيخ أبى صالح الارمنى »
(معهد المخطوطـات بجامعـة الـدول العربية ، ميكروفيلم رقم ٩٤٨)

٩ ـ العينى : (ت ٨٥٥ هـ) بدر الدين محمود
« عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان »
(مخطـوط مصـور ٢٣ جزءا فى ٦٩ مجلدا ، دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ) .

١٠ ـ المقريزى : (ت ٨٤٥ هـ) تقى الدين أحمد بن على .
« السلوك لمعرفة دول الملوك »
(حققه الدكتور محمد مصطفى زيـادة حتى نهاية عام ٧٥٥ هـ ، وحقق الدكتور

١٤ — المقريزى : سعيد عبد الفتاح عاشـور بقية الكتاب « المقفى »
(مخطــوط مصــور فى أربعة مجلدات ، دار الكتب المصرية رقم ٥٣٧٢ تاريخ) .

١٥ — النويرى : (ت ٧٣٢ هـ) شهاب الدين أحمـد بن عبد الوهاب
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » .
(مخطوط مصور ، دار الكتب المصريـة رقم ٥٤٩ معارف عامة) .

(٢) المصادر العربية المطبوعة :

١ — ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ) على بن أحمـد بن أبى الكرم .
« الكامل فى التاريخ » .
٩ أجـزاء (طبعة المكتبـة التجـارية بالقاهرة) .

٢ — الادريسي : (ت ٥٦٠ هـ) أبو عبد الله محمد بن محمد
« نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق »
(ليون ١٨٦٦ م)

٣ — الأدفوى : (ت ٧٤٨ هـ) كمال الدين أبو الفضل جعفر بن على الأدفوى الشافعى
(مخطوط مصور فى أربعة مجلدات ، دار

(الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد)
(القاهرة ١٩٦٦ م)

٤ ـ الأصطخرى : (المتوفى فى النصف الاول من القرن الرابع الهجرى) ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرخى .
« المسالك والممالك »
تحقيق د . محمد جابر عبد العال الحينى
(القاهرة ١٩٦١ م)

٥ ـ ابن اياس : (ت ٩٣٠ هـ) أبو البركات محمد بن أحمد
« بدائع الزهور فى وقائع الدهور »
(بولاق ١٣١١ هـ ، جمعية الدراسات التاريخية بالقاهرة ١٩٥١ م جمعية المستشرقين الالمان بالقاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣ م) .

٦ ـ ابن بطلان : (المتوفى بعد سنة ٤٤٩ هـ) أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون الطبيب البغدادى .
« رسالة جامعة لفنون نافعة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد »
تحقيق عبد السلام هارون .
(القاهرة ١٩٥٤ م)

٧ ــ ابن بطوطة : (ت ٧٧٩ هـ) شرف الدين أبو عبد الله
محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى
« مهذب رحلة ابن بطوطة »
(جزءان ، القاهرة ١٩٣٤ م)

٨ ــ البلاذرى : (ت ٢٧٩ هـ) أحمد بن يحيى بن جابر
« فتوح البلدان »
تحقيق د . صلاح الدين المنجد
(القاهرة ١٩٥٦ م)

٩ ــ البيرونى : (ت ٤٣٠ هـ) محمد بن أحمد
« الجماهر فى معرفة الجواهر »
(حيدر آباد بالهند ١٣٥٥ هـ)

١٠ ــ التيفاشى : أحمد بن يوسف
« أزهار الافكار فى جواهر الاحجار »
(فرنسا ١٨١٨ م)

١١ ــ ابن جبير : (ت ٦١٤ هـ) أبو الحسين محمد بن أحمد
الكنانى الأندلسى البلنسى
« الرحلة »
(سلسلة جب التذكارية ١٩٠٧ م)

١٢ ــ ابن الجزرى : (ت ٨٣٣ هـ) شمس الدين أبو الخير محمد
بن محمد العمرى الدمشقى
« غاية النهاية فى طبقات القراء أو طبقات
القراء »
(القاهرة ١٣٥١ ــ ١٣٥٢ هـ

١٣ ــ ابن الجيعان : (ت ٨٨٥ هـ) شرف الدين يحيى علم
الدين شاكر بن المقر .
« التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية »
(بولاق ١٣١٦ هـ)

١٤ ـ ابن حجر العسقلاني : (ت ٨٥٢ هـ) شهاب الدين بن علي
« الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة »
تحقيق محمد سيد جاد الحق
خمسة أجزاء (١٩٦٩ م)

١٥ ـ ــــــــــ : « أنباء الغمر بأنباء العمر »
الجــزء الاول حتى نهاية ســنة ٧٩٩ هـ
حققه د . حسن حبشي
(القاهرة ١٩٦٩ م)

١٦ ـ ــــــــــ : « رفع الاصر عن قضاة مصر »
القسم الاول : تحقيق د . حامــد عبد المجيد
(طبعة القاهرة) م

١٧ ـ الحسن بن عبد الله : (ت ٧٠٨ هـ)
« آثار الاول في ترتيب الدول »
(القاهرة ١٣٠٥ هـ)

١٨ ـ ابن حوقل : (من أهل القــرن الرابــع الهجــري)
ابو القاسم محمد
« صورة الأرض »
(الطبعة الثانية في ليدن ١٩٦٧ م)

١٩ ـ ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ) عبد الرحمن بن محمد
« مقدمة ابن خلدون »
تحقيق د . علي عبد الواحد وافي
٣ أجزاء (الطبعة الاولى ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٠ م)

٢٠ — ابن خلدون : « العبر وديوان المبتدأ والخبر »
٧ إجزاء (بولاق ١٢٨٤ هـ)

٢١ — ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ) شمس الدين ابو العباس
احمد ابراهيم بن أبو بكر الشافعى
« وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان »
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد
٦ اجزاء (القاهرة ١٩٤٨ م)

٢٢ — ابن دقماق : (ت ٧٠٩ هـ) ابراهيم بن محمد المصرى
« الانتصار لواسطة عقد الأمصار »
(القاهرة ١٣٠٩ — ١٣١٠ هـ)

٢٣ — ابن رسته : (من اهل القرن الثالث) أبو على احمد بن عمر
« الأعلاق النفيسة »
(ليدن ١٨٩١ — ١٨٩٢ م)

٢٤ — السبكى : (ت ٧٧١ هـ) التاج السبكى عبد الوهاب
بن على بن عبد الكافى
« طبقات الشافعية الكبرى »
تحقيق محمود محمد الطناحى ، عبد الفتاح
محمد الحلو
٦ اجزاء (القاهرة ١٩٦٤ — ١٩٦٨ م)

٢٥ — السخاوى : (ت ٩٠٢ هـ) الحافظ شمس الدين محمد
ابن عبد الرحمن
« الضوء اللامع لاهل القرن التاسع »
١٢ جزء (القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٣٦ م)

٢٦ ــ السخاوى : « التبر المسبوك فى ذيل السلوك »
(بولاق ١٨٩٦ م)

٢٧ ــ ابن سمرة الجعدى : (المتوفى بعد ٨٦ هـ) عمر بن على أبى الخطاب
« طبقات فقهاء اليمن »
تحقيق فؤاد سيد
(القاهرة ١٩٥٧ م)

٢٨ ــ السيوطى : (ت ٩١١ هـ) جلال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر بن محمد .
« بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنجاة » .
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم جزءان
(القاهرة ١٩٦٤ م)

٢٩ ــ السيوطى : «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة»
جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ)

٣٠ ــ ابو شامة : (ت ٦٦٥ هـ) عبد الرحمن بن اسماعيل ابن عثمان
« الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية »
جزءان (القاهرة ١٢٨٧ هـ)

٣١ ــ ابن شاهين : (ت ٨٧٣ هـ) غرس الدين خليل الظاهرى
« زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك »
(باريس ١٨٩١ م)

٣٢ ــ ابن شداد : (ت ٦٣٢ هـ) بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع

٣٣ ــ شيخ الربوة : (ت ٧٢٧ هـ) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ابى طالب الانصارى الصوفى الدمشقى .
« نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر »
(بطرسبرج ١٢٨١ هـ)

٣٤ ــ ابن الصيرفى : (ت ٩٠٠ هـ) على بن داود بن ابراهيم المعروف بالخطيب وبابن الصيرفى
« نزهة النفوس والابدان فى تواريخ أهل الزمان »
تحقيق د . حسن حبشى
(دار الكتب المصرية ١٩٧٠ م)

٣٥ ــ الطبرى : (ت ٣١٠ هـ) أبو جعفر محمد بن جرير
« تاريخ الامم والملوك »
٨ أجزاء (القاهرة ١٩٣٩ م)

٣٦ ــ ابن ظهيرة (من علماء القرن التاسع الهجرى)
« الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة »
تحقيق مصطفى السقا ، وكامل المهندس
(دار الكتب المصرية ١٩٦٩ م)

٣٧ ــ ابن عبد البر النمرى : (ت ٤٦٣ هـ) الحافظ يوسف
« الانتقاء فى فضائل الثلاثة الفقهاء »
(طبعة القدسى بالقاهرة)

٣٨ ـ ابن عبد الحكم : (ت ٢٥٧ هـ) أبو القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله بن الحكم القرشي
« فتوح مصر والمغرب »
تحقيق عبد المنعم عامر
(القاهرة ١٩٦١ م)

٣٩ ـ ابن عبد الظاهر : (ت ٦٩٢ هـ) محيى الدين
« تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور »
تحقيق د . مراد كامل
(القاهرة ١٩٦١ م)

٤٠ ـ ابن العبرى : جريجور يوس ابى الفرج ابن هارون الطبيب الملطى المعروف بابن العبرى
« تاريخ مختصر الدول »
(بيروت ١٨٩٠ م)

٤١ ـ العماد الاصفهانى : (ت ٥٩٧ هـ) العماد الكاتب محمد بن محمد الأصفهانى
« خريدة القصر وجريدة العصر »
قسم شعراء مصر ، تحقيق د . أحمد أمين ، د . شوقى ضيف ، احسان عباس .
جزءان (القاهرة ١٣٥١ م)

٤٢ ـ ابن العماد الحنبلى : (ت ١٠٨٩ هـ) أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد

« شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ».
٨ أجزاء (القاهرة ١٣٥١ م)

٤٣ ــ العمرى : (ت ٧٤٢ هـ) ابن فضل الله
« التعريف بالمصطلح الشريف »
(القاهرة ١٣١٢ هـ)

٤٤ ــ أبو الفدا : (ت ٧٢٣ هـ) الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماه
« تقويم البلدان »
(باريس ١٨٤٠ م)

٤٥ ــ ابن الفرات : (ت ٨٠٧ هـ) محمد بن عبد الرحيم بن علـى بن الفرات المصرى الحنفى ناصر الدين .
« تاريخ ابن الفرات »
تحقيق د . قسطنطين زريق .
جزء ١ ، ٢ (بيروت ١٩٣٦ ــ ١٩٤٨ م)

٤٦ ــ القرمانى : (ت ١٠١٩ هـ) أحمد بن يوسف الدمشقى
« اخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ »
(بغداد ١٨٥٦ م)

٤٧ ــ القلقشندى : (ت ٨٢١ هـ) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على
« صبح الأعشى فى صناعة الانشاء »
١٤ جزء (القاهرة ١٩١٣ ــ ١٩١٩ م)

٤٨ — ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ) عماد الدين ابو الفدا اسماعيل
ابن عمر الحافظ
« البداية والنهاية »
١٤ جزء (القاهرة ١٣٥٨ هـ)

٤٩ — الكندى : (المتوفى بعد ٣٥٥ هـ) أبو عمر محمد بن
يوسف بن يعقوب
« الولاة والقضاة »
(بيروت ١٩٠٨ م)

٥٠ — مجهول : (كاتب مراكشى من كتاب القرن السادس
الهجرى)
« الاستبصار فى عجائب الأمصار »
تحقيق د . سعد زغلول عبد الحميد .

٥١ — أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ) جمال الدين يوسف بن تعزى
بردى
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة »
طبعة دار الكتب المصرية حتى نهاية الجزء
الثانى عشر (٨٠٨ هـ)
وبعد ذلك طبعة كاليفورنيا نشر وليم ببر
(كاليفورنيا ١٩٣١ م)

٥٢ — ابو المحاسن : « حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور »
نشر وليم ببر
٤ أجزاء (كاليفورنيا ١٩٣٢ م)

٥٣ — المسعودى : (ت ٣٤٦ هـ) أبو الحسن على بن الحسين
ابن على .
« التنبيه والاشراف »
(بغداد ١٩٣٨ م)

٥٤ ــ المسعودى : « مروج الذهب ومعادن الجوهر »
تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد
(القاهرة ١٩٦٤ م)

٥٥ ــ مفضل بن أبى الفضائل : (ت ٦٧٢ هـ)
« النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد »
(باريس ١٩١١ ، ١٩٢٠ م)

٥٦ ــ المقريزى : (ت ٨٤٥ هـ) تقى الدين احمد بن على
« اغاثة الأمة بكشف الغمة »
تحقيق د . مصطفى زيادة ، د . جمال الدين الشيال
(القاهرة ١٩٤٠ م)

٥٧ ــ ـــــــ : « التاريخ المقفى »
حقق نماذج منه د . خليل محمود عساكر ، د . مصطفى محمد مسعد
(القاهرة ١٩٦٤ م)

٥٨ ــ ـــــــ : « البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب »
مع دراسات فى تاريخ العروبة فى وادى النيل .
تحقيق وتأليف د . عبد المجيد عابدين
(القاهرة ١٩٦١ م)

٥٩ — المقريزى : « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار »
جزءان (بولاق ١٢٧٠ هـ)

٦٠ — ــــــــ : « السلوك لمعرفة دول الملوك »
حققه د . مصطفى زيادة حتى نهاية عام ٧٥٥ هـ ، وحقق الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور بقية الكتاب

٦١ — المقدسى : (توفى قريبا من عام ٣٨٠ هـ) أبو عبد الله محمد بن أحمد البشارى
« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم »
(ليدن ١٩٠٦ م)

٦٢ — ابن المقفع : (توفى فى أواخر القرن الرابع) ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين
« تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة »
(بيروت ١٩٠٤ ، ١٩١٠ م)

٦٣ — ابن مماتى : (ت ٦٠٦ هـ) القاضى الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد .
« قوانين الدواوين »
تحقيق عزيز سوريال
(القاهرة ١٩٤٣ م)

٦٤ — ابن ميسر : (ت ٦٧٧ هـ) محمد بن على بن يوسف بن جلب .
« تاريخ مصر »
(القاهرة ١٩١٩ م)

٦٥ — ناصر خسرو : (ت ٤٨١ هـ)
« سفر نامة » .
نقله الى العربية د . يحيى الخشاب
(القاهرة ١٩٤٥ م)

٦٦ — ابن الوردى : (ت ٧٤٩ هـ) أبو حفص عمر بن مظفر
ابن عمر
« تتمة المختصر أو تاريخ ابن الوردى »
(القاهرة ١٢٨٥ هـ)

٦٧ — ———— : « خريدة العجائب وفريدة الغرائب »
(القاهرة ١٢٨٠ هـ)

٦٨ — ياقوت الحموى : (ت ٦٢١ هـ) شهاب الدين أبو عبد الله
الحموى الرومى .
« معجم البلدان »
١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٠٦ م)

٦٩ — ———— : « معجم الأدباء »
٢٠ جزءا (طبعة أحمد فريد رفاعى
١٩٣٦ — ١٩٣٨ م)

٧٠ — اليعقوبى : (ت ٢٨٢ هـ) أحمد بن أبى يعقوب بن
جعفر بن وهب بن واضح .
« البلدان »
ذيلا لكتاب الأعلاق النفسية
(ليون ١٧٩٢ م)

٧١ — اليعقوبى : « تاريخ اليعقوبى »
٣ أجزاء (المكتبة المرتضوية بالنجف
١٣٥٨ هـ)

(٣) المراجع العربية الحديثة :

١ — ابراهيم على طرخان : (دكتـــور)
« مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة »
(القاهرة ١٩٦٠ م)

٢ — أحمد شلبى : (دكتـــور)
« تاريخ التربية الاسلامية »
(القاهرة ١٩٦٦ م)

٣ — احمد مخرى : (دكتـــور)
« الواحات المصرية فى التاريخ »
(مجلة الجمعية التاريخية ، المجلد الرابع،
العدد الأول مايو ١٩٥١ م

٤ — أحمد عيسى : (دكتـــور)
« معجم الأطباء »
(ذيل عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن
أبى أصيبعة
(القاهرة ١٩٤٢ م)

٥ — آدم ميتز : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابـــع
الهجرى »
ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريدة .
جزءان (القاهرة ١٩٤٠ — ١٩٤١ م)

٦ — اسماعيل سرهنك : « حقائق الأخبار عن دول البحار »
جزء ٢ (القاهرة ١٣١٢ — ١٣١٤ م)

٧ — بتلر : « فتح العرب لمصر »
ترجمة محمد فريد ابو حديد
(القاهرة ١٩٣٣ م)

٨ — بوركهارت : « رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان »
ترجمة فؤاد أندراوس
(القاهرة ١٩٥٩ م)

٩ — توماس ارنولد : « الدعـوة الى الاسلام »
نقلـه الى العربيـة د . حسن ابراهيم حسن ، د . عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحراوى .
(القاهرة ١٩٤٧ م)

١٠ — جاستون فييت : « المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى »
ترجمة محمد وهبى
(القاهرة ١٩٣٧ م)

١١ — جمال الدناصورى : (دكتـور)
« دراسات فى جغرافية مصر »
بالاشتراك مع آخرين .
(القاهرة ١٩٥٧ م)

١٢ — جورج فضلوحوراني : « العرب والملاحة فى المحيط الهندى »
نقله الى العربية د . السيد يعقوب بكر .
(لا يوجد تاريخ للطبيعة)

١٣ ــ حسن ابراهيم حسن : (دكتــور)
« تاريخ الدولة الفاطمية »
(القاهرة ١٩٥٨ م)

١٤ ــ حسن أحمد محمود : (دكتــور)
« الاسلام والثقافة فى افريقية »
(القاهرة ١٩٥٨ م)

١٥ ــ حسنين محمد ربيع : (دكتــور)
« النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين »
(جامعة القاهرة ١٩٦٤ م)

١٦ ــ راشد البراوى : (دكتــور)
« حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين »
(القاهرة ١٩٦٤ م)

١٧ ــ زكى محمد حسن : (دكتــور)
« كنوز الفاطميين »
(القاهرة ١٩٣٧ م)

١٨ ــ سامى جبرة : (دكتــور)
« وحدة وادى النيل عظة التاريخ القديم »
(مجلة كلية الآداب ، جامعة القــاهرة ، ديسمبر ١٩٥٠ م)

١٩ ــ يثرب الختم عثمان على : « العلاقات بين مصر والسودان فى العصور الوسطى بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر » .
(رســالة ماجستير ، آداب القــاهرة ، ١٩٦٩ م)

٢٠ ـ سعاد ماهر : (دكتوره)
« محافظات الجمهورية العربية المتحدة في العصر الاسلامي »
(فصل من مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ٢١ ، العدد الاول ، مايو ١٩٥٩ م)
; جامعة القاهرة ١٩٦٣ م)

٢١ ـ سعد الخادم : « الصناعات الشعبية في مصر »
(القاهرة ١٩٥٧ م)

٢٢ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : (دكتور)
« مصر في عهد دولة المماليك البحرية »
(القاهرة ١٩٥٩ م)

٢٣ ـ ــــــــ : « الظاهر بيبرس »
(القاهرة ١٩٦٣ م)

٢٤ ـ ــــــــ : « المجتمع المصري في عصر المماليك »
(القاهرة ١٩٦٣ م)

٢٥ ـ ــــــــ : « الناصر صلاح الدين »
(القاهرة ١٩٦٥ م)

٢٦ ـ ــــــــ : « العصر المماليكي في مصر والشام »
(القاهرة ١٩٦٥ م)

٢٧ ـ سليمان عطية سليمان : (دكتور)
« سياسة المماليك في البحر الأحمر حتى

نهاية عصر السلطان برسباى ١٢٥٠ ــ
١٤٣٨ م »
(رســـالة دكتوراه ، آداب القاهرة ،
١٩٥٩ م)

٢٨ ــ السيد الباز العرينى : (دكتـــور)
« مصر فى زمن الأيوبيين »
(القاهرة ١٩٦٠ م

٢٩ ــ سليم حسن : « مصر القديمة »
جزء ١٠ (القاهرة ١٩٥٥ م)

٣٠ ــ سليمان حزين : (دكتـــور)
« سكان مصر »
(المجلة التاريخية ، مجلد رقم ١ القاهرة
١٩٤٨ م)

٣١ ــ سيدة اسماعيل كاشف : (دكتـــوره)
« أحمد بن طولون »
(القاهرة ١٩٦٥ م)

٣٢ ــ ــــــــــــ : « مصر فى عصر الأخشيديين »
(القاهرة ١٩٥٠ م)

٣٣ ــ ــــــــــــ : « مصر فى عصر الولاة »
(القـــاهرة)

٣٤ ــ ــــــــــــ : « مصر فجر الأسلام »
(القاهرة ١٩٤٧ م)

٣٥ ـــ الشاطر بصيلي عبد الجليل : « معالم تاريخ سودان وادى النيل »
(القاهرة ١٩٥٥ م)

٣٦ ـــ صبحي لبيب : (دكتــور)
« التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى »
(مجلة الجمعية التاريخية ـــ المجلد الرابع
العدد الثانى مايو ١٩٥١ م)

٣٧ ـــ شكرى فيصل : (دكتــور)
« المجتمعات الاسلامية فى القرن الأول الهجرى »
(القاهرة ١٩٥٢ م)

٣٨ ـــ عباس عمار : (دكتــور)
« وحدة وادى النيل ، أسسها الجغرافية ومظاهرها فى التاريخ »
(القاهرة ١٩٤٧ م)

٣٩ ـــ عبد المجيد عابدين : (دكتــور)
« تاريخ الثقافة العربية فى السودان منذ نشأتها الى العصر الحديث »
(القاهرة ١٩٥٣ م)

٤٠ ـــ ـــــــــــــ : « بين الحبشة والعرب »
(لا يوجد تاريخ للطبعة)

٤١ ـــ عطية أحمد محمود القوصى : (دكتــور)
« بنو الكنز ، دراسة تاريخية »
(رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة
القاهرة ١٩٧٠ م)

٤٢ — علي بن حسين السليمان : (دكتــور)
« علاقة مصر بالحجــاز زمن ســلاطين المماليك »
(رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٠ م)

٤٣ — على بهجت : « قاموس الأمكنة والبقاع »
(القاهرة ١٣٢٤ هـ)

٤٤ — على مبارك : « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة »
٢٠ جزءا فى أربــع مجلــدات (بــولاق ١٩٣١ م)

٤٥ — عمر رضا كحالة : « معجم القبائل العرب القديمة والحديثة »
(دمشق ١٣٦٨ هـ)

٤٦ — عمر طوسون : « مالية مصر من عهد الفراعنة الى الآن »
(الاسكندرية ١٩٣١ م)

٤٧ — قسطنطين رزيق : « التجارة الاسلامية واثرها فى الحضارة »
(مقالة بمجلة المقتطف ، عــدد ديسمبر ١٩٣٥ م)

٤٨ — لين بول : « العرب فى اسبانيا »
ترجمة الى العربية على الجارم
(القاهرة ١٩٦٤ م)

٤٩ — محمد جمال الدين سرور : (دكتــور)
« تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق »
(القاهرة ١٩٦٧ م)

- محمد جمال الدين سرور: « الدولة الفاطمية فى مصر »
(القاهرة ١٩٦٦ م)

- ـــــــــــ : « دولة بنى قلاوون فى مصر »
(القاهرة ١٩٤٧ م)

- ـــــــــــ : « الحياة السياسية فى الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة »
(القاهرة ١٩٦٤ م)

- محمد حمدى المناوى : « نهر النيل فى المكتبة العربية »
(القاهرة ١٩٦٦ م)

- محمد رمزى : « القاموس الجغرافى للبلاد المصرية »
قسمان ، القسم الأول ، والقسم الثانى أربعة أجزاء .
(دار الكتب المصرية ١٩٦٣ م)

- محمد رياض : (دكتــور)
« العبابدة »
(محاضرة ألقيت بالجمعية الجغرافيــة فى ١٩٦١/٤/٢٦)

- محمد صفى الدين أبو العز : (دكتــور)
« مرفولوجية الأراضى المصرية »
(القاهرة ١٩٦٦ م)

- محمد عبد الله عنان : « الحــاكم بأمر اللــه وأسرار الدعــوة الفاطمية »
(القاهرة ١٩٥٩ م)

٥٨ ــ محمد عوض محمد : (دكتــور)
« السودان الشمالية ، سكانه وقبائله »
(القاهرة ١٩٥١ م).

٥٩ ــ ———— : « نهر النيــل »
(القاهرة ١٩٦٢ م).

٦٠ ــ ———— : « الشعوب والسلالات الافريقية ».
(القاهرة ١٩٦٥ م)

٦١ ــ محمد كامل حسين : (دكتــور)
« فى ادب مصر الفاطمية »
(القاهرة ١٩٥٠ م)

٦٢ ــ ———— : « ادبنا العربى فى عصر الولاة »
(القاهرة ١٩٦١ م)

٦٣ ــ ———— : « التشيع فى الشــعر المصرى فى عــصر الأيوبيين والمماليك
(مجلة كلية الآداب ، المجلد الخامس عشر الجزء الأول ١٩٥٣ م)

٦٤ ــ محمد لبيب البتنونى : « الرحلة الحجازية »
(القاهرة ١٣٢٧ هـ)

٦٥ ــ محمد مجدى : « رحلة مجدى أو ثمانية عشر يوما بصعيد مصر سنة ١٣١٠ هـ »
(القاهرة ١٣١٩ هـ)

٦٥ ــ محمد مختار : « التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية »
(القاهرة ١٣١١ هـ)

٦٧ — محمد يحيى الهاشمى : (دكتــور)
« الزمرد فى مصر »
(مقالة فى مجلة الكتاب يوليو ١٩٥١ م)

٦٨ — مصطفى محمد مسعد : (دكتــور)
« الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى »
(القاهرة ١٩٦٠ م)

٦٩ — ———— : « البجة والعرب فى العصور الوسطى »
(نفصل من مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٦٣ م)

٧٠ — مكى شبيكة : (دكتــور)
« السودان عبر القرون »
(بيروت ١٩٦٥ م)

٧١ — نسيم مقار : (دكتــور)
« الرحالة فى السودان فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، الرحالة بالم »
(القاهرة ١٩٦١ م)

٧٢ — نظير حسان سعداوى : (دكتــور)
« نظام البريد فى الدولة الاسلامية »
(القاهرة ١٩٥٣ م)

٧٣ — نعوم شقير : « تاريخ الســودان القــديم والحــديث وجغرافيته »
٣ أجزاء (القاهرة ١٩٠٤ م)

٧٤ — نعيم زكى فهمى سليمان : (دكتـــور)
« طرق التجـــارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى »
(رسالة دكتوراه ، آداب القاهرة ١٩٦٨م)

٧٥ — وهيب كامل (دكتـــور)
« استرابون فى مصر »
(القاهرة ١٩٤٧ م)

٧٦ — يوسف فضل حسن : (دكتـــور)
« المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية الى السودان »
(مجلة الجمعية التاريخية ، مجلد رقم ١٣ سنة ١٩٦٧ م)

٧٧ — دائرة المعارف الاسلامية .

٧٨ — محافظة أسوان : (كتيب اصدرته وزارة الارشاد القومى) .

٧٩ — مصلحة البريد : « تاريخ البريد فى مصر »
(القاهرة ١٩٣٤ م)

٨٠ — قاموس المصباح المنير .

(٤) المراجع الأجنبية :

1. **Adler (E.N.) :**
Jewish Travellers.
(London, 1930)

2. **Amelineau :**
La Géographie de l'Egypte à l'Epoque Copte.
(Le Cairo, 1893)

3. **Arkell (A.J.) :**
A History of the Sudan from the earliest times to 1821.
(London, 1955)

4. **Becker (C.H.) :**
Ency. of Islam. Art. Aidhab, Bakt.

5. **Bent :**
Visit to Northern Sudan.
(J.R.A.S. London, 1896)

6. **Bloss (J.F.E.) :**
Relics of Ancient gold miners.
Sudan Notes and Records. Vol. XX, 1937.

7. **Browne (W.G.) :**
Travels in Africa, Egypt, and Syria, from the year 1792 to 1798.
(London, 1799)

8. **Buhl :**
Ency. of Islam. Art. Medinata.

9. **Charlesworth (M.R.) :**
Trade-Routes and Commerce of the Roman Empire.
(London, 1924)

10. **Combes (E.) :**
Voyage en Egypte en Nubid.
Tome I (Paris 1846)

11. **De Villard (Mouneret) :**

La Musulmana di Aswan.

(Cairo, 1930).

12. **Darrag (Ahmed). :**

L'Egypte sous le Règne de Barsbay.

(Damas, 1961)

13. **Hassan El Hawary :**

Trois Minarets Fatimides à la Frontière Nubienne.
Bulletin de L'Institute Egyptienne
4 Mars 1939, T. XVII.

14. **Heyd :**

Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age.
2 Vols. (Leipzig, 1923)

15. **Hillelson (S.) :**

Ency. of Islam. Art. Nuba.

16. **Huart :**

Histoire des Arabes.

T. 2. (Paris, 1913)

17. **Kirwan (L.P.) :**

Studies in the later History of Nubia
Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology,
Vol., XXIV.

18. **Klunzinger :**

Upper Egypt : its people and its products.

(London, 1878)

19. **Longfield (Vol. W.E.) :**

«The Growth of Sudan Communication». Anglo
Egyptian Sudan from within», ed. Hamilton.

20. **Mac Michael (H.A.) :**

Nubiar elements in Darfur.
Sudan Notes and Recorders, Vol. I, 1918

21. **A History of the Arabs in the Sudan.**
Vol. I. (London, 1922)

22. **«The Coming of the Arab to Sudan.», Anglo Egyptian Sudan from within, ed. Hamilton.**
(London, 1935)

23. **Newbold (D.) :**
«The Beja Tribes of the Red Sea Hinterland», Anglo Egyptian Sudán from within, ed. Hamilton.
(London, 1935)

24. **Quatremère (E.) :**
Histoire des Sultans Mamlouks.
2 Vols. (Paris, 1937(

25. **Sanders (G.E.R.) :**
The Bisharian.
Sudan Notes and Records. Vol. Vol. Xvi, 1933.

26. **Shaw (W.B.K.) :**
Darb el Arbain.
Sudan Notes and Records ; Vol XII, 1929.

27. **Stanley Lane-Poole**
A History of Egypt in the Middle Ages.
(London, 1901)

28. **Trimingham (J.S.) :**
Islam in the Sudan.
(London, 1949)

29. **Vollers (K.) ·**
Ency. of Islam. Art. Ababde .

30. **Wiet (Gaston) :**
Mémoires sur l'Egypte, Année 1791.

31. L'Egypte Arabe de la Conquête Arabe.
(G. Hanotaux), Histoire de la Nation Egyptienne.
Vol. IV. (Paris, 1937)

32. Catalogue général du Musée Arabe. du Caire.
Stèles funéraires. Vol. II (1936) ; V (1937) ; VI (1939) ; VII (1940) ; VIII (1941) ; X (1941) ; X (1942). Vol I (1932) ; III (1939) par Hassan Hawary et Hussein Rached.

33. Precis de l'Histoire d'Egypte par divers historiens et archeologues.
Tom. II (Caire, 1932)

34. **Zaki Hassan** :
Les Tulunides.
(Paris, 1933)

35. **Ziyada (Mohamed Mustafa)** :
Foreign Relations of Egypt in the fifteenth century (1422 — 1517).
Vol. I (Liverpool, 1930)

36. Encyclopaedia Britanica .Art. Aswan.

37. Camrbidge Medieval History. Vol. 4.

38. The Oxford Classical Distionary.

فهـــرس

الموضـــوع	صفحة

رقم الايداع ٢٩١٤/٨٠

مطبعــة القاهرة الجديدة
٣٣ شارع الجيشي ت : ٩٠٤٢٨٦

